BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

مكتبة الإسكندرية 2010 ©

الاستغلال غير التجاري

تم إصدار المعلومات الواردة في هذا المصنف للاستخدام الشخصي والمنفعة العامة لأغراض غير تجارية، ويمكن إعادة إصدارها كلها أو جزء منها أو بأية طريقة أخرى، دون أي مقابل ودون تصاريح أخرى من مكتبة الإسكندرية . وإنما نطلب الآتي فقط :

- يجب على المستغلين مراعاة الدقة في إعادة إصدار المصنفات.
- الإشارة إلى مكتبة الإسكندرية بصفتها "مصدر" تلك المصنفات.
- لا يعتبر المصنف الناتج عن إعادة الإصدار نسخة رسمية من المواد الأصلية، ويجب ألا ينسب إلى مكتبة الإسكندرية، وألا يشار إلى أنه تمَّ بدعمٍ منها .

الاستغلال التجاري

يحظر نسخ المواد الواردة في هذا المصنف كله أو جزء منه، بغرض التوزيع أو الاستغلال التجاري، إلا بموجب إذن كتابي من مكتبة الإسكندرية . وللحصول على إذن لإعادة إنتاج المواد الواردة في هذا المصنف، يرجى الاتصال بمكتبة الإسكندرية، ص.ب. 138 الشاطبي، الإسكندرية، 21526، مصر. البريد الإلكتروني :

secretariat@bibalex.org

في الفكر النهضوي الإسلامي

المدنية الإسلامية

رسالة همة الهمام في نشر الإسلام

تأليف

شمس الدين سامي فراشري

ترجمة وتقديم

محمد م. الأرناؤوط

دار الكتاب المصرى
القاهرة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

دار الكتاب اللبنانى
بيروت

المدنية والإسلام

هــذا الكــتــاب

طُبع لأول مرَّة في عام (١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م) تحت عنوان: «تطبيق الديانة الإسلامية على النواميس المدنية»، ثم أُعيدت طباعته عام (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م) تحت عنوان: «المدنية والإسلام»، ويعد من أهم أعمال المفكرين المسلمين دفاعًا عن علاقة الدين بالمدنية.

ينطلق محمد فريد وجدي في موقفه من مسألة الدين والمدنية من فكرة أن كلَّ ترقٍّ يحصل في العالم، وكلَّ خطوة تخطوها العقول في سبيل الكمال ليس إلا تَقرُّبًا إلى الإسلام، وأن الإسلام فتح باب الارتقاء الرُّوحي ووسَّع مداه، كما فتح باب الارتقاء الماديِّ، فلم يُحرِّم علمًا نافعًا، ولم يضع للعلوم حدودًا.

ويسعى الكتاب لإثبات أن المسلمين أضاؤوا للبشرية أنوار المدنية، وأسَّسوا أركان العدل والإنسانية في جميع أرجاء الكرة الأرضية، وسادوا أغلب ممالكها بأفضل أنواع السلطة الاعتدالية؛ وبالجملة صارت دولتهم دولة العالم بأسره، بينما كان غيرهم يهيم في وديان الجهالة، ويضرب في ليلاء الضلالة.

سلسلة
في الفكر النهضوي الإسلامي

الإشراف العام

إسماعيل سراج الدين

إدارة المشروع

صلاح الدين الجوهري

ألفت جافور – هالة عبد الوهاب– حنان عبد الرازق

اللجنة العلمية

محمد عمارة — محمد كمال الدين إمام

صلاح الدين الجوهري — إبراهيم البيومي غانم

الإشراف على الإخراج الفني

ألفت جافور

تصميم جرافيكي: ريم نعمان

الإشراف على مراجعة النصوص

أحمد محمد شعبان — محمد القاسم

مراجعة لغوية: أحمد عبد الحميد

الأعمال التحضيرية والمتابعة

بسمة عبد العزيز ـ هدى سيد ـ شيماء التركي

في الفكر النهضوي الإسلامي

المدنية والإسلام

تأليف

محمد فريد وجدي

تقديم

معتز شكري

١٤٣٤ هـ / ٢٠١٢ م

دار الكتاب المصرى
القاهرة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

دار الكتاب اللبنانى
بيروت

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة – أثناء – النشر (فان)

وجدي، محمد فريد، 1875–1954.

المدنية والإسلام / تأليف محمد فريد وجدي؛ تقديم معتز شكري – الإسكندرية مصر: مكتبة الإسكندرية، 2012.

ص. سم. (في الفكر النهضوي الإسلامي)

تدمك 978-977-452-176-1

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية

1. الإسلام والمجتمع. أ. شكري، معتز. ب. العنوان. ج. السلسلة.

ديوي – 297.27 | 2012619258

ISBN: 978-977-452-176-1

رقم الإيداع: 9296/2012

تتقدم مكتبة الإسكندرية بالشكر والتقدير

للوكالة السويسرية للتنمية والتعاون Swiss Agency for Development and Cooperation (SDC)

ومؤسسة كارنيجي بنيويورك Carnegie Corporation of New York

على الدعم المادي والمعنوي الذي قدَّماه للمشروع.

© **مكتبة الإسكندرية، ٢٠١٢**

جميع حقوق النشر الورقي محفوظة لدار الكتاب المصري واللبناني، وذلك بموجب اتفاق مبرَم بين مكتبة الإسكندرية ودار الكتاب المصري واللبناني.

المحتوى

مقدمة السلسلة ٩
تقديم ١٥

كتاب «المَدَنِيَّةُ والإسْلام»

فاتحة ٣
فاتحة الطبعة الثانية ١٢
فاتحة الطبعة الثالثة ١٥
مقدمات ١٧
الإنسـان ١٨
تكاليف الحياة ٢٧
الدين والعلم ٣٩
ما هو الإسلام؟ ٤٥
ما هو الدين؟ ٤٨
الناموس الأعظم للمدنية ٥٥
جهاد الإنسان لنيل الحرية ٥٩
١- حرية النفس ٦٣
٢- حرية العقل ٦٩
٣- حرية العلم ٧٢

الواجبات الشخصية والعائلية والاجتماعية ٧٧
الواجبات الشخصية ٧٧
تطهير النفس من الأوهام ٨٠
تهذيب النفس بالعلم ٨٢
تأديب النفس بمكارم الخصال ٨٥
تصحيح الاعتقاد ٩٣
المطالب الجسمية ١٠٠
حفظ الصحة ١٠٠
الاعتدال في مطالب الجثمان ١٠٣
الواجبات العائلية ١٠٥
الواجب الأول: إصلاح العائلة أدبيًّا ١٠٥
الواجب الثاني: إصلاح العائلة ماديًّا ١٠٧
مقام العلم والجد في نظر الإسلام ١٠٩
الواجبات الاجتماعية ١١٧
١- واجبات المسلمين فيما بينهم ١١٨
استطراد إلى الرق في الإسلام ١٢٣
٢- واجبات المسلمين بالنسبة للذمّيين ١٢٩
٣- واجبات المسلمين بالنسبة لمعاهَديهم ١٤١
٤- واجبات المسلمين بالنسبة لمحاربيهم ١٤٣
نظرة على الإسلام والمسلمين ١٤٩
الأصول التي دعا إليها الإسلام ١٦٩
هل كان بالأمم حاجة إلى دين جديد؟ ١٧٠

الأصل الإسلامي الأول: التخليص بين الإنسان وخالقه ١٨٢
الأصل الإسلامي الثاني: تقرير المساواة العامة ١٨٤
الأصل الإسلامي الثالث: تقرير مبدأ الشورى في الحكومة ١٨٥
الأصل الإسلامي الرابع: تعليق السعادة والشقاوة في الحياة الأخرى
على الأعمال والصفات الذاتية، لا على الشفاعات والقرابات ١٨٧
الأصل الإسلامي الخامس: الاعتراف بحقوق العقل والعلم ١٨٩
الأصل الإسلامي السادس: المؤاخاة بين الدين والمدنية ١٩٢
الأصل الإسلامي السابع: تنبيه الإنسان إلى أن للوجود الإنساني
سننًا لا تتبدل ١٩٤
الأصل الإسلامي السابع: لفت الإنسان لنظام الطبيعة وتوجيه نظره
لأسرارها الخفية ١٩٧
الأصل الإسلامي الثامن: الاعتراف بحقوق ميل الإنسان وعواطفه ١٩٨
الأصل الإسلامي التاسع: توحيد العالم في دائرة المعاملات ٢٠١
الأصل الإسلامي العاشر: الاعتراف بناموس الترقي ٢٠٤
الأصل الإسلامي الحادي عشر: تقرير أن الدين شرع لخير الناس
ومصلحته لا لتسخيره وإذلاله ٢٠٦
الأصل الإسلامي الثاني عشر: حرية البحث والنظر ٢٠٧
لماذا انحط المسلمون وفيهم هذه الأصول؟ ٢١٠

مقدمة السلسلة

إن فكرة هذا المشروع الذي أُطلِق عليه «إعادة إصدار مختارات من التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريَّيْن / التاسع عشر والعشرين الميلادِيَّيْن»، قد نبعت من الرؤية التي تتبناها مكتبة الإسكندرية بشأن ضرورة المحافظة على التراث الفكري والعلمي في مختلف مجالات المعرفة، والمساهمة في نقل هذا التراث للأجيال المتعاقبة تأكيدًا لأهمية التواصل بين أجيال الأمة عبر تاريخها الحضاري؛ إذ إن الإنتاج الثقافي - لا شكَّ - تراكمي، وإن الإبداع ينبت في الأرض الخصبة بعطاء السابقين، وإن التجديد الفعال لا يتم إلا مع التأصيل. وضمان هذا التواصل يعتبر من أهم وظائف المكتبة التي اضطلعت بها، منذ نشأتها الأولى وعبر مراحل تطورها المختلفة.

والسبب الرئيسي لاختيار هذين القرنين هو وجود انطباع سائد غير صحيح؛ وهو أن الإسهامات الكبيرة التي قام بها المفكرون والعلماء المسلمون قد توقفت عند فترات تاريخية قديمة، ولم تتجاوزها. ولكن الحقائق الموثقة تشير إلى غير ذلك، وتؤكد أن عطاء المفكرين المسلمين في الفكر النهضوي

التنويري – وإن مر بمدٍّ وجزر – إنما هو تواصل عبر الأحقاب الزمنية المختلفة، بما في ذلك الحقبة الحديثة والمعاصرة التي تشمل القرنين الأخيرين.

يهدف هذا المشروع – فيما يهدف – إلى تكوين مكتبة متكاملة ومتنوعة، تضم مختارات من أهم الأعمال الفكرية لرواد الإصلاح والتجديد الإسلامي خلال القرنين الهجريَّيْن المذكورَيْن. والمكتبة إذ تسعى لإتاحة هذه المختارات على أوسع نطاق ممكن، عبر إعادة إصدارها في طبعة ورقية جديدة، وعبر النشر الإلكتروني أيضًا على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)؛ فإنها تستهدف في المقام الأول إتاحة هذه المختارات للشباب وللأجيال الجديدة بصفة خاصة.

ويسبق كلَّ كتاب تقديمٌ أعده أحد الباحثين المتميزين، وفق منهجية منضبطة، جمعت بين التعريف بأولئك الرواد واجتهاداتهم من جهة، والتعريف بالسياق التاريخي/ الاجتماعي الذي ظهرت فيه تلك الاجتهادات من جهة أخرى؛ بما كان فيه من تحديات وقضايا نهضوية كبرى، مع التأكيد أساسًا على آراء المؤلف واجتهاداته والأصداء التي تركها الكتاب. وللتأكد من توافر أعلى معايير الدقة، فإن التقديمات التي كتبها الباحثون قد راجعتها واعتمدتها لجنة من كبار الأساتذة المتخصصين، وذلك بعد مناقشات مستفيضة، وحوارات علمية رصينة، استغرقت جلسات متتالية لكل تقديم، شارك فيها كاتب التقديم ونظراؤه من فريق الباحثين الذين شاركوا في هذا المشروع الكبير. كما قامت مجموعة من المتخصصين على تدقيق نصوص الكتب ومراجعتها بما يوافق الطبعة الأصلية للكتاب.

هذا، وتقوم المكتبة أيضًا – في إطار هذا المشروع – بترجمة تلك المختارات إلى الإنجليزية ثم الفرنسية؛ مستهدفة أبناء المسلمين الناطقين بغير العربية، كما ستتيحها لمراكز البحث والجامعات ومؤسسات صناعة الرأي في مختلف أنحاء العالم. وتأمل المكتبة أن يساعد ذلك على تنقية صورة الإسلام من التشويهات التي يلصقها البعض به زورًا وبهتانًا، وبيان زيف كثير من الاتهامات الباطلة التي يُتَّهم بها المسلمون في جملتهم، خاصة من قِبَل الجهات المناوئة في الغرب.

إن قسمًا كبيرًا من كتابات رواد التنوير والإصلاح في الفكر الإسلامي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، لا يزال بعيدًا عن الأضواء، ومن ثم لا يزال محدود التأثير في مواجهة المشكلات التي تواجهها مجتمعاتنا. وربما كان غياب هذا القسم من التراث النهضوي الإسلامي سببًا من أسباب تكرار الأسئلة نفسها التي سبق أن أجاب عنها أولئك الرواد في سياق واقعهم الذي عاصروه. وربما كان هذا الغياب أيضًا سببًا من أسباب تفاقم الأزمات الفكرية والعقائدية التي يتعرض لها أبناؤنا من الأجيال الجديدة داخل مجتمعاتنا العربية والإسلامية وخارجها. ويكفي أن نشير إلى أن أعمال أمثال: محمد عبده، والأفغاني، والكواكبي، ومحمد إقبال، وخير الدين التونسي، وسعيد النورسي، ومالك بن نبي، وعلاَّل الفاسي، والطاهر ابن عاشور، ومصطفي المراغي، ومحمود شلتوت، وعلي شريعتي، وعلي عزت بيجوفتش، وأحمد جودت باشا – وغيرهم – لا تزال بمنأًى عن أيدي الأجيال الجديدة من الشباب في أغلبية البلدان العربية

والإسلامية، فضلاً عن الشباب المسلم الذي يعيش في مجتمعات أوروبية أو أمريكية؛ الأمر الذي يلقي على المكتبة عبئًا مضاعفًا من أجل ترجمة هذه الأعمال، وليس فقط إعادة نشرها بالعربية وتيسير الحصول عليها (ورقيًّا وإلكترونيًّا).

إن هذا المشروع يسعى للجمع بين الإحياء، والتجديد، والإبداع، والتواصل مع الآخر. وليس اهتمامنا بهذا التراث إشارة إلى رفض الجديد الوافد علينا، بل علينا أن نتفاعل معه، ونختار منه ما يناسبنا، فتزداد حياتنا الثقافية ثراءً، وتتجدد أفكارنا بهذا التفاعل البناء بين القديم والجديد، بين الموروث والوافد، فتنتج الأجيال الجديدة عطاءها الجديد، إسهامًا في التراث الإنساني المشترك، بكل ما فيه من تنوع الهويات وتعددها.

وأملنا هو أن نسهم في إتاحة مصادر معرفية أصيلة وثرية لطلاب العلم والثقافة داخل أوطاننا وخارجها، وأن تستنهض هذه الإسهامات همم الأجيال الجديدة كي تقدم اجتهاداتها في مواجهة التحديات التي تعيشها الأمة؛ مستلهمة المنهج العلمي الدقيق الذي سار عليه أولئك الرواد الذين عاشوا خلال القرنين الهجريين الأخيرين، وتفاعلوا مع قضايا أمتهم، وبذلوا قصارى جهدهم واجتهدوا في تقديم الإجابات عن تحديات عصرهم من أجل نهضتها وتقدمها.

لقد وجدنا أن من أوجب مهماتنا ومن أولى مسئولياتنا في مكتبة الإسكندرية، أن نسهم في توعية الأجيال الجديدة من الشباب في مصر، وفي غيرها من البلدان العربية والإسلامية، وغيرهم من الشباب المسلم في البلاد غير الإسلامية بالعطاء الحضاري للعلماء المسلمين في العصر الحديث، خلال القرنين المشار إليهما على وجه التحديد؛ حتى لا يترسَّخ الانطباع السائد الخاطئ، الذي سبق أن أشرنا إليه؛ فليس صحيحًا أن جهود العطاء الحضاري والإبداع الفكري للمسلمين قد توقفت عند فترات زمنية مضت عليها عدة قرون، والصحيح هو أنهم أضافوا الجديد في زمانهم، والمفيد لأمتهم وللإنسانية من أجل التقدم والحث على السعي لتحسين نوعية الحياة لبني البشر جميعًا.

وإذا كان العلم حصاد التفكير وإعمال العقل والتنقيب المنظم عن المعرفة، فإن الكتب هي آلة توارثه في الزمن؛ كي يتداوله الناس عبر الأجيال وفيما بين الأمم.

إسماعيل سراج الدين

مدير مكتبة الإسكندرية
والمشرف العام على المشروع

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن وجهة نظر مكتبة الإسكندرية، إنما تعبِّر عن وجهة نظر مؤلفيها.

تقديم

معتز شكري

تمهيد

لا تسعى هذه الدراسة إلى أن تكون فحسب مجرد تقديم بحثيٍّ موسع لطبعة جديدة من كتاب «المدنية والإسلام» للعلامة محمد فريد وجدي، وإلقاء الضوء على الكتاب بعد نحو ١١٤ عامًا من صدوره لأول مرة (١٨٩٨م)، وعلى القضية الرئيسية المهمة التي يدور حولها، والتي لا تزال مع غيرها - من قضايا عصر مقدمات النهضة في الفكر العربي والإسلامي الحديث - مطروحة على ساحة النقاش.

فالدراسة في الحقيقة تسعى، علاوة على ذلك، صوب غاية أخرى لا تقل أهمية، وهي أن تسهم ضمن سلسلة من الإسهامات - المتناثرة مكانًا، والمتباعدة زمانًا، والقليلة كمًّا للأسف - في التذكير بهذا الرائد العظيم، وإلقاء مزيد من الأضواء الكاشفة والهادية على مشروعه الفكري الطويل والمهم، والمتشعب التجليات، والمتنوع المجالات.

القسم الأول: محمد فريد وجدي.. حياته ومشروعة الفكري .. صورة من قريب

محمد فريد وجدي (١٢٩٥-١٣٧٣هـ/ ١٨٧٨-١٩٥٤م)، الذي اعتاد قراء العربية وكُتابها، سواء في زمن سطوع كتاباته أو بعد رحيله أن يضعوا بين يدي اسمه في الأغلب الأعم لقب «العلامة» - وهو يستحقه بكل جدارة كما سنرى بعيدًا عن نوازع المجاملة أو إغراءات المبالغة - هو في الواقع واحد من رموز عصر النهوض والتجديد والإصلاح في الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر.

جاء بعد أن أدركت النخبة المتعلمة والمثقفة في تلك الفترة - التي كانت قد بلغت إحدى ذرى نضجها مع صدمة الحملة الفرنسية (١٢١٣-١٢١٦هـ/ ١٧٩٨-١٨٠١م)، وإن بدأت إرهاصاتها بالتأكيد قبل ذلك بنحو نصف قرن وربما بقرن كامل، واستمرت تداعياتها لما بعدها بنحو قرن ونصف - مدى الهُوة العلمية والحضارية السحيقة التي انزلق إليها العالم الإسلامي على مدى عدة قرون، بعد أن كانت حضارة المسلمين أنفسهم - باعتراف كل المؤرخين المنصفين - هي مدد الغرب الرئيسي لبناء حضارته الحديثة، فهبوا جميعًا، كلٌّ حسب اجتهاده ورؤيته، يتلمس السُّبل لإقالة المجتمعات العربية والإسلامية من وهدة تخلفها.

وعندما كانت النخبة في شرقنا الإسلامي تتلمس في أواخر القرن التاسع عشر أسباب تلك الفجوة مع العالم الغربي، وتلك الوهدة الحضارية التي

انزلق إليها العالم الإسلامي، لم يكن يكفي الركون إلى أسباب خارجية فقط، كالاستعمار مثلاً، كما لم يكن يشفع حينئذ، مثلما لا يشفع الآن، أن يقال: «يكفي أن لدينا المُثل العليا والقيم الفاضلة»؛ إذ الصحيح هو أن تلك المثل والقيم سبق أن أقام بها المسلمون حضارة شامخة، فلا بد أن طوارئ سلبية طرأت عليهم، سواء من داخلهم أو من خارجهم، أطاحت بهذه الحضارة وهوت بظروف حياتهم إلى الحضيض، فوجب الاعتراف بذلك، وتشخيص الداء، وإزالة أسباب العلل، حتى تعود للمسلمين نهضتهم وحضارتهم بجناحيها: الأخلاق والعلم.

وفضلاً عن أن محمد فريد وجدي كان من رموز ذلك العصر، فقد كان - من حيث نسق الأفكار والقضايا في عمومها، وكذلك من حيث حركة الدفاع عن الإسلام وبث بذور النهضة في المجتمع - معاصرًا لجزء لا بأس به من حياة الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦- ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩-١٩٠٥م) ونشاطه، ومستفيدًا من فكره، ومواكبًا ومدعمًا لمدرسته التي انبثقت بدورها من الزخم الذي أحدثه ظهور جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤-١٣١٤هـ/١٨٣٩-١٨٩٧م) بأفكاره الثورية والإصلاحية، ومع ذلك لا يمكن - في رأينا - اعتبار فريد وجدي كما يرى بعض الباحثين أنه كان مجرد تلميذ في مدرسة الأستاذ الإمام، على غرار تلاميذه الآخرين - وهم كُثُر - ممن تحلقوا حوله، وأخذوا عنه بالتلقي المباشر، أو بالتأثر الواضح المعالم، كما كان الحال مثلاً مع محمد رشيد رضا (١٢٨٢-١٣٥٤هـ/ ١٨٦٥-١٩٣٥م) أحد رموز ذلك العصر؛ لأن التأمل في مشروع وجدي الفكري

وسبقه الزمني في طرح قضايا مهمة ومفصلية في موضوع الإصلاح يجعله بلا مبالغة نسيج وحده و«مدرسة» قائمة بذاتها.

١- شخصية فريدة.. في عصر فريد.. وبيئة فريدة!

إن الصورة التي ترتسم أمامنا لذلك العصر، من حيث ما حفلت به من نوابغ وعمالقة، وما ماجت به من أفكار ومشروعات، توضح أن الأستاذ محمد فريد وجدي لم يكن بدعًا من ذلك الجيل ومن تلك الكوكبة، وهذه الحقيقة تجعل ظهوره - كمفكر وعالم ومفسر وأديب وصحفي رائد - ظهورًا داخل السياق بكل معاني الكلمة لا خارجه.

فأما أن العصر كان فريدًا، فيكفي أن نعرف أن الرجل ولد (١٨٧٨) - وهو أرجح الأقوال في تاريخ مولده، وهو القول الذي اقتنعنا بصحته كما سيأتي بيانه - في أواخر عهد الخديوي إسماعيل (حياته ما بين ١٨٣٠ - ١٨٩٥، وحكمه ما بين ١٨٦٣ و ١٨٧٩) الحافل بالإنجازات الحضارية، والمضطرب أيضًا سياسيًّا واقتصاديًّا وماليًّا، وكذلك من حيث العلاقة بالغرب الاستعماري؛ مما جعل مصر - بعد مولد وجدي بسنوات قلائل - قاب قوسين أو أدنى من الثورة العرابية (١٨٨١م)، ثم الاحتلال البريطاني (١٨٨٢م)، لتدخل بعد ذلك - ليست مصر والمنطقة فحسب، بل العالم كله، مما يصل صداه وآثاره إلى مصر بالضرورة - في دوامة رهيبة من التحولات والأحداث العظام التي استمرت

حتى رحيل وجدي عام (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م)، شملت مثلاً عدة حروب وثورات وانقلابات إقليمية وعالمية، منها:

- الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م).
- والثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م).
- وتحول مصر في غضون سنوات قلائل من ولاية مستمرة في تبعيتها رسميًّا للسلطنة العثمانية حتى بعد الاحتلال الإنجليزي، إلى دولة تحت الحماية البريطانية مع إنشاء سلطنة مصرية (١٩١٤م)، ثم تحولها إلى الملكية وحصولها على الاستقلال (١٩٢٢م).
- والثورة العربية الكبرى (١٩١٦م)، وحركات القومية العربية عمومًا.
- وثورة (١٩١٩م) في مصر.
- والثورة الشيوعية في روسيا (١٩١٧م).
- وسقوط الخلافة العثمانية على يد أتاتورك (١٩٢٤م)، وكان حدثًا جللاً.
- والحركة الصهيونية والهجرات اليهودية إلى فلسطين، ثم النكبة (١٩٤٨م)، وهي حدث جلل آخر.
- وبزوغ قوة الولايات المتحدة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.
- وظهور ونشاط حركات وطنية مصرية كثيرة كان آخرها في حياة المؤلف حركة الضباط الأحرار (١٩٥٢م).

ناهيك عن تطورات سياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية وفكرية... إلخ في مصر والعالمين العربي والإسلامي، وكذلك على مستوى العالم كله، منها على سبيل المثال لا الحصر:

- ثورات وانقلابات ونظريات كانت تموج بها أوروبا بالذات حول الإصلاح والديمقراطية والليبرالية والوطنية وحقوق المرأة، والعلم، والدين... إلخ.
- نظرية التطور Evolution لتشارلز داروين.
- الداروينية الاجتماعية لهربرت سبنسر.
- النسبية Relativity لألبرت أينشتاين.
- حدوث الكساد المالي العظيم The Great Depression على مستوى العالم كله (١٩٢٩م).
- استخدام القنبلة الذرية لأول مرة ١٩٤٥م.
- ظهور جماعات إسلامية، أهمها «الإخوان المسلمون» ١٩٢٨م.
- ظهور الحركة الشيوعية المصرية.
- تغيرات في بنية المجتمع المصري اقتصاديًا واجتماعيًا وطبقيًا... إلخ، منها الحركة العمالية، والحركة التعاونية، وظهور طلعت حرب ومشروعه «بنك مصر» وشركاته الوطنية، وزخم هائل في منظمات المجتمع المدني.

- بزوغ عبقريات مصرية في جميع المجالات: أدبيًّا وفكريًّا وعلميًّا واقتصاديًّا وفنيًّا وصناعيًّا ورياضيًّا وموسيقيًّا... إلخ.
- بدايات الانفجار المعرفي الهائل وتطور وسائل الإعلام والاتصال والنقل والطباعة.
- ظهور قائمة طويلة بمخترعات ومكتشفات.
- ظهور مناهج جديدة في العلوم الإنسانية... إلخ.

ولكن النظر إلى الرجل على أنه كان فحسب مجرد واحد من مائة أو مائتين من رواد النهوض والإصلاح - كلهم يشترك في معاصرته لذلك الزمن الزاخر بالأحداث الخطيرة - لا يفيه حقه، بل يغمطه الكثير الذي يستأهله.

فمحمد فريد وجدي - دونما نظر إلى اعتبارات تضعه دون غيره بمقاييس الشهرة الكاسحة أو معايير ذيوع الصيت بشكل صاخب أو الاستئثار بالساحة واحتكارها - كان في الحقيقة من أرفع تلك الكوكبة قدرًا وأجلهم مكانة وأغزرهم علمًا وأوفرهم إنتاجًا وأكثرهم تعددًا في مجالات البحث والعمل والنشاط، فضلاً عن «ريادته»، بالمعنى الدقيق للكلمة وليس بالمعنى المجازي العام، لعدد من فروع البحث والتأليف والنشاط يندر أن ينهض بها غيره، أو يشهد التاريخ بها لسواه على النحو الذي عرف عنه وتأكد في حقه، وعلى النحو الذي جمع هو فيه بين تلك المجالات والفروع على تشعبها.

٢- فريد وجدي: تفردات الكاتب والإنسان

وإذا أردنا أن نجمل هنا أهم «تفرداته»، قلنا:

الأول: أنه كان من القلائل أو النوادر - بين رواد الفكر الكبار - الذين بلغوا ذرى سامقة من النبوغ البحثي والفكري والزخم الهائل من المؤلفات الموسوعية دون أن يكملوا تعليمهم النظامي، فهو ليس فقط لم يحصل على تعليم عال، بل لم يتم تعليمه الثانوي أيضًا !، فضلاً عن أنه لم يكن مثلاً ممن استعاضوا بالدراسة في الأزهر عن الدراسة في الجامعات، وأقرب شيء أن نقول: إنه بنى نفسه بنفسه.

الثاني: أنه كان ممن يجمعون، من ناحية، بين ثقافة تراثية راسخة ومتينة في علوم العربية والإسلام جميعها، وهذا يشي به بشكل ساطع ما كتبه من مواد تراثية في موسوعته، وكذلك مقاماته وكتابه «كنز العلوم واللغة»، وأسلوبه العربي النادر، ومن ناحية أخرى، بين ثقافة غربية حديثة تشمل الفلسفة والسياسة والاقتصاد والتاريخ والأدب والعلوم الحديثة والاجتماع والأديان وغير ذلك، مع إتقانه لعدد من اللغات الأجنبية، من أهمها:

- التركية (بحكم تحدر أسرته من أصل تركي شركسي، ولا شك أن ذلك مثل رافدًا ما في نشأته وتكوينه وثقافته حتى ولو لم نشعر نحن الآن بتجليات مباشرة له في مؤلفاته، والثابت أنه وجد في بيته منذ نشأته

مكتبة عامرة بالكتب باللغات العربية والتركية والفرنسية، وتدل عبارة له في دائرة معارف القرن العشرين على إتقانه للغة التركية لدرجة تفكيره في أن يؤلف بها بعض بحوثه في بدايات مسيرته التأليفية[١]، ولا تزال طوائف الشركس المعاصرة في العالم العربي تفخر بانتماء محمد فريد وجدي إليها، وتضعه ضمن أهم الشخصيات الشركسية في العصر الحديث)[٢].

(١) يحكي الأستاذ وجدي أنه رأى رؤيا كأنه في مؤتمر علمي، وأراد أن يقوم فيه خطيبًا في موضوع المدنية الإسلامية، ويقول: «عدت إلى نفسي وقلت بأي لغة أخطب بالعربية أم بالتركية أم بالفرنسية، فاخترت الأولى...». وهو ما يدل على أن تلك كانت هي اللغات التي يتقنها في ذلك الوقت إتقانًا تامًّا يمكنه من أن يحاضر بها، وذلك بالطبع قبل أن يتقن الإنجليزية أيضًا. انظر: محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، المجلد ٤، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٣، د. ت، ص ١٦٨.

(٢) انظر على سبيل المثال: «العلامة الإسلامي محمد فريد وجدي»، مقال على موقع «سانا أديجا» الإليكتروني، وهو موقع يهتم بالشركس وتاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم والثقافة الشركسية، والمقال منقول عن كتاب «أعلام الشراكسة» تأليف فيصل موسى حبطوش، ويصف المقال وجدي بأنه: «علامة وأديب ومفكر وفيلسوف وباحث صحفي ومناضل إسلامي متميز من شراكسة مصر».

الطريف أن الأكراد أيضًا يفخرون بمحمد فريد وجدي ويعتبرونه من أصل كردي، ويبدو أن السبب راجع إلى أن تحديد فروق صارمة - في أصول بعض الشخصيات المشهورة - بين بعض الأعراق بعينها كالأكراد والأتراك والشركس يكون صعبًا في بعض الحالات، لتداخل العلاقات العرقية والعائلية بين هذه الأعراق التي عاش أبناؤها في مناطق متقاربة جغرافيًّا ومتداخلة سكانيًّا، وخضعوا تاريخيًّا في كثير من الأحيان لدول بذاتها.

انظر: شخصيات كردية، بحث بقلم أرشفين ميكائيل، موقع شبكة بيور الثقافية على الإنترنت «peiwar» (وهو موقع كردي يُعنى بالعلاقات بين الأكراد والعرب)، حيث وردت فيه عبارة «المؤرخ الكوردي محمد فريد وجدي»، في سياق حديث عن الأستاذ العقاد باعتباره أيضًا كردي الأصل، وشملت القائمة محمد كرد علي وقاسم أمين وآخرين.

ولعل ذلك يذكرنا بشخصيات أخرى مهمة في تاريخ الفكر المصري الحديث، ذات أصول شرقية غير عربية، مثل: أحمد شوقي أمير الشعراء الذي كانت في أصوله أعراق غير عربية، بعضها كردي وبعضها غير ذلك، =

- الفرنسية (من واقع دراسته لها على أيدي فرنسيين في مدرسة ثانوية رفيعة بالإسكندرية، ثم انهماكه في القراءة الدائمة بها، ويلاحظ أي قارئ لمؤلفات الأستاذ وجدي اطلاعه الواسع جدًّا على الثقافة الفرنسية بكل مجالاتها، واعتماده بشكل رئيسي على مصادر ومراجع وموسوعات وصحف فرنسية).
- الإنجليزية (بحكم اطلاعه عليها وتضلعه فيها لاحقًا في سياق تثقفه الذاتي).

مع ما صحب ذلك من اطلاع أيضًا على معارف عصره، ومتابعة لكل قضايا ذلك العصر الذي كان يموج بالتطورات العلمية والفكرية في الداخل والخارج.

= وعائشة التيمورية التي كانت من أصل كردي تركي من ناحية الأب وأصل شركسي من ناحية الأم، ومعها بالطبع سائر نجوم الأدب والفكر من العائلة التيمورية، مثل أخيها غير الشقيق العلامة أحمد باشا تيمور وولديه محمد ومحمود... إلخ، كما يذكرنا بالعائلة الأباظية، التي ترجع أصولها إلى إقليم «أبخازيا» في القوقاز، ونجوم هذه العائلة في ميادين الفكر والأدب والسياسة أشهر من أن تذكر، ومنهم على سبيل المثال فقط: عزيز أباظة، وفكري أباظة، ودسوقي أباظة... إلخ.
بل إن من المعلومات الطريفة ذات الدلالة في هذا السياق أن العلامة الكبير خير الدين التونسي (١٨١٠-١٨٩٠م) كان هو نفسه من أصل شركسي وأباظي! قال عنه المفكر الكبير محمد عمارة إنه: «ولد في إحدى القرى الصغيرة بجبال القوقاز، بقبيلة «أباظة» الشركسية...». انظر: محمد عمارة، تيارات اليقظة الإسلامية الحديثة، كتاب الهلال، العدد ٣٨٠، أغسطس ١٩٨٢، دار الهلال، القاهرة، ص ٩٥.

الثالث: أنه كان ممن وضعوا مؤلفات تعالج قضايا خطيرة، وتحمل قيمة فكرية عالية وباقية في سن صغيرة نسبيًّا وغير معتادة من المؤلفين، فقد وضع كتابه الأول «الفلسفة الحقة في بدائع الأكوان» وهو في السابعة عشرة، ثم كتابه هذا الذي هو بين يدي القارئ «المدنية والإسلام» وهو في العشرين تقريبًا، وهو نفسه ترجمة عربية لما كان قد وضعه أصلاً قبل ذلك بالفرنسية! كل ذلك وهو من الذين لم يتلقوا تعليمًا نظاميًّا عاليًّا فقد وقف عند الدراسة الثانوية، ولعله لم يتم الدراسة بها أيضًا! وحسبنا هنا أن نشير إلى تنويه جرجي زيدان في مجلته (الهلال) بصدور جريدة (الدستور) لمحمد فريد وجدي سنة ١٩٠٧م، قائلاً ضمن هذا التنويه: إن فريد وجدي غني عن التعريف؛ لأنه مشهور للقراء ببحوثه الفلسفية والاجتماعية ودراساته في الإسلام ونهضته، وكان وجدي في ذلك الوقت - طبقًا للراجح من تاريخ مولده - مازال في أواخر العشرينيات من عمره لم يصل حتى إلى الثلاثين[١].

الرابع: أنه كان - بشهادة كل من عرفوه عن قرب وخالطوه - صاحب شجاعة أدبية لا تبارى، ضمن منظومة من المبادئ والقيم الخلقية التي كان يتمسك بها تمسكًا شديدًا ولا يتنازل عنها مهما كانت الأخطار التي تتهدده، أو المصاعب التي يتعرض لها، والمغريات التي أمامه.

(١) انظر: جرجي زيدان، مجلد (الهلال)، والمجلد يضم الأعداد من أكتوبر ١٩٠٧ إلى يوليو ١٩٠٨، السنة ١٦، عدد ديسمبر ١٩٠٧، مطبعة الهلال بالفجالة بمصر، ص١٩٢.

روى الأستاذ العقاد[١] الكثير من هذه المواقف النادرة التي عايشها بنفسه أثناء عمله مع فريد وجدي، وذكر الأستاذ أنور الجندي[٢] نماذج أخرى من واقع معاركه الصحفية، فمن ذلك:

- حملاته على الاستعمار والاحتلال البريطاني واللورد كرومر (١٨٤١-١٩١٧م) وهو في عنفوان نفوذه حيث كان تقريبًا حاكم مصر الفعلي.
- هجومه على دنلوب مستشار وزارة المعارف، وعدم إعفائه سعد زغلول نفسه من المسئولية فيما يتعلق بالسياسات التعليمية في ظل الاحتلال.
- هجومه على أحمد شوقي (١٨٦٨-١٩٣٢م) لما اعتبره وجدي تخليًا منه عن دوره الوطني وانهماكه - من وجهة نظره - في مدح الخديوي باعتباره فقط شاعر الأمير.
- انتقاده لمصطفى كامل (١٨٧٤-١٩٠٨م)، زعيم الحزب الوطني، مع أنه كان هو نفسه (فريد وجدي) ينتمي إلى الحزب الوطني، وذلك لاختلاف في وجهات النظر! وكانت المعرفة بينهما قد بدأت بطلب من مصطفى كامل نفسه أن يتعرف عليه، وهو ما يدلنا على قيمة فريد وجدي لدى معاصريه، وصدى كتاباته بينهم في تلك المرحلة المبكرة.

(١) انظر: عباس محمود العقاد، رجال عرفتهم، طبعة المجموعة الكاملة لمؤلفاته، المجلد السابع عشر (تراجم وسير-٣)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٠، من ص ٥٣٦ إلى ٥٣٨.

(٢) انظر: أنور الجندي، محمد فريد وجدي رائد التوفيق بين العلم والدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤، من ص ٣٤ إلى ٤٣.

- هجومه على وزارة مصطفى فهمي.
- انتقاده - دونما اكتراث لأية حساسيات أو مجاملات - لاختيار بطرس غالي رئيسًا للوزراء.
- انتقاده الشديد للأميرة نازلي فاضل (ت ١٩١٤م)[١]، وهي شخصية قوية مشهورة وذات نفوذ، فضلاً عن أنها تنتمي إلى الأسرة المالكة، فهي ابنة الأمير مصطفى فاضل ابن إبراهيم باشا، وهي صاحبة الصالون الشهير الذي كانت تستضيف فيه، في مناقشات أدبية وفكرية، شخصيات من أمثال الشيخ محمد عبده وقاسم أمين (١٨٦٣-١٩٠٨م) وسعد زغلول (١٨٥٧-١٩٢٧م)، وغيرهم.

(١) حاولت كثيرًا وأخفقت للأسف - حتى بعد الرجوع لمظان كثيرة ولأصدقاء وزملاء باحثين - في أن أعثر على تاريخ دقيق وموثق لميلاد الأميرة نازلي فاضل، بالرغم من أهمية شخصيتها في تاريخ مصر الحديث، ووجدت من اطلعت عليهم من الباحثين اكتفوا مثلي بذكر تاريخ وفاتها (١٩١٤م) نقلاً عن «معجم النساء» لعمر رضا كحالة. ولكن كلام المصادر عنها يرجح - في رأيي - ألا يكون عمرها وقت وفاتها يقل عن خمسين وربما ستين عامًا، حيث ذكر بلنت على سبيل المثال أنها كانت تساعد أحمد عرابي خلال حركته الوطنية وكانت عندئذ أميرة ذات قيمة وشهرة وتحظى بتقدير، وهو ما يشي بأنها مثلاً لم تكن أقل من ثلاثين سنة في أوائل الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وهي فترة ظهور الحركة العرابية.
انظر مثلاً:
Wilfrid Scawen Blunt. Secret History of the English Occupation of Egypt, Arab Center for Research and Publishing, Cairo, Egypt, 1981, p. 394.
وقد نمى إلى علمي أن كتابًا صدر في تونس عنها خلال السنوات الأخيرة، ولكن للأسف لم تتح لي بعد فرصة الاطلاع عليه، وبياناته كما يلي لمن شاء الاستزادة، حيث يتعرض الكتاب ليس فقط لحياة الأميرة نازلي فاضل في مصر ونشاطها، بل كذلك لفترة ذهابها إلى تونس حيث بقيت هناك على مدى ثلاث عشرة سنة، وافتتحت صالونًا مشابهًا لصالونها بمصر، وكان لها هناك نشاط مهم: أبو القاسم محمد كرو، الأميرة نازلي فاضل رائدة النهضة في مصر وتونس، دار المغرب العربي، تونس، ٢٠٠٢.

- انتقاده الجريء للخديوي عباس حلمي الثاني نفسه (حياته ما بين ١٨٧٤ و١٩٤٤م وحكمه ما بين ١٨٩٢ و١٩١٤م) وهو في عنفوان سطوته وجبروته رغم ما عرف عنه من شدة مع خصومه، وجاء ذلك بالوقوف ضده والانتصار لمحمد توفيق البكري (١٨٧٠-١٩٣٢م) في موقف مشادة له مع الخديوي، بعد أن رأى وجدي أن الحق في صف البكري! ولا يعني هذا أن وجدي كان مناوئًا دائمًا للقصر، ولكنه كان لا يتردد في المعارضة والنقد إذا رأى ما يستوجب ذلك.

الخامس: أنه كان من رواد الصحافة في مصر في أواخر القرن التاسع عشر، وعلى امتداد النصف الأول من القرن العشرين، محررًا، ومؤسسًا للصحف، ورئيسًا للتحرير، فأصدر على سبيل المثال، من حيث الريادة الزمنية: مجلة «الحياة» سنة ١٨٩٩م، ومن حيث مجال الصحافة اليومية السياسية المؤثرة صحيفة «الدستور» في عهدها الأول أواخر ١٩٠٧م. ودخلت «الدستور» تاريخ الصحافة العربية من أوسع الأبواب، ويكفي أنها كانت تتعثر كثيرًا لقلة الموارد، مع كونها لسانًا مهمًّا - وإن كان غير رسمي - للحزب الوطني بعد جريدة «اللواء»، وذلك لأن صاحبها فريد وجدي كان شديد التمسك بمبادئه، بحيث كان يرفض أي مساعدة ترمي إلى الضغط عليه لتغيير مواقفه السياسية. وكان في مرحلة لاحقة من حياته من أبرز من تولوا رئاسة تحرير مجلة «الأزهر» - الناطقة باسم هذه المنارة الشامخة في العالم الإسلامي - فأجرى فيها منذ تسلمها ١٩٣٣م يد التطوير، مع أنه لم يكن هو نفسه أزهريًّا في يوم من الأيام.

السادس: أنه أول من عكف بمفرده - دون معاونة من أحد على الإطلاق (فيما يطلق عليه بالإنجليزية مجازًا one-man show) - على تأليف دائرة معارف عربية حديثة هي «دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجري - العشرين الميلادي»، في عشرة مجلدات وقرابة تسعة آلاف صفحة، بغض النظر عن أية ملاحظات أو انتقادات وجهت للموسوعة(١)، فحسبه أنه ارتاد طريقًا يكاد يكون مستحيلاً بالنسبة للأفراد، ولم يسبقه في ذلك سوى محاولات غير مكتملة - كدائرة معارف بطرس البستاني (١٨١٩-١٨٨٣م) - لا تقارن بما أنجزه، فقد عكف محمد فريد وجدي وحده على هذا العمل الكبير وأنجزه في صمت وعمل دؤوب شاق دون مساعدة أو تمويل خارجي، لا لشيء إلا ليكمل - كما قال هو - نقصًا وجده في المكتبة العربية في مجال الموسوعات؛ وليسهل على العلماء والباحثين عملهم!(٢)، وهذا الجانب في شخصية محمد فريد وجدي يذكرنا بما قاله مثلاً

(١) من بين من وجهوا بعض الانتقادات أو الملاحظات لـ«دائرة معارف القرن العشرين»، سواء من حيث المنهج أو الترتيب أو توزيع المواد أو فيما يتعلق بمعلومات معينة داخل المواد... إلخ، كلٌّ من العلامة أحمد تيمور باشا، والشيخ محمد رشيد رضا، والدكتور محمد حسين هيكل، وإن كانوا قد أقروا للمؤلف بجهده وأثنوا على مواطن الثناء. وعلى الجانب الآخر، قرظ الموسوعة تقريظًا كبيرًا داود بركات رئيس تحرير الأهرام، والصحفي العجوز توفيق حبيب، وغيرهما.

ولابد من أن نذكر أن فريد وجدي احترم الانتقادات التي وجهت لموسوعته فكان أن عكف على إصدار طبعة جديدة مزيدة ومنقحة راعى فيها أوجه النقد، واستكمل النقص وصوب الأخطاء.

انظر: فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٩١٤م، ج٣، ص ١٨٩ حاشية ٤.

(٢) انظر: المعلم بطرس البستاني، كتاب دائرة المعارف، المجلد الأول، بيروت، ط١، ١٨٧٦م، طبع بمعرفة المؤلف، ص ٢ و ٣ من المقدمة، وانظر: محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن الرابع عشر/ العشرين، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط٣، د.ت.، المقدمة، ص ٣ و ٤.

العلامة أبو الحسن الندوي من أنه كان هناك في تلك الحقبة أفراد يقومون بدور المجامع العلمية[١].

السابع: أنه انفرد بأنه كان من رواد المؤلفين في علوم اللغة العربية في العصر الحديث، من خلال كتابه المبكر «كنز العلوم واللغة»، والذي كان نواة مبكرة لموسوعته الكبيرة لاحقًا.

الثامن: أنه كان من القلائل الذين أسهموا باجتهاد واضح في فن من أخص فنون النثر العربي، ومن أندرها نتاجًا عبر العصور، وهو فن المقامة، من خلال مقاماته المعروفة بـ«الوجديات»[٢].

(١) انظر: أبو الحسن علي الحسني الندوي، الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص ٦٠.

(٢) انظر: الوجديات – شرح مقامات محمد فريد وجدي، حققها وقدم لها محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، دار الكتاب اللبناني – مكتبة المدرسة، بيروت، ط١، (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).
وتجدر الإشارة – طبقًا لما ذكره خفاجي وشرف ص ٤٠ و٤١ – إلى أنه عندما أعاد وجدي إصدار مجلة «الحياة» من جديد في القاهرة ١٩٠٦م، خصص فيها بابًا سماه «الوجديات» ، وإن كان الحاجري قد ذكر أن وجدي بدأ بهذه المقامات منذ السنوات الأولى من «الحياة» ١٨٩٩م، متخذة عناوين مختلفة إلى أن استقرت أخيرًا على هذا العنوان. ومن ذلك يتضح اقتراب المسافة الزمنية بين «حديث عيسى بن هشام» للمويلحي و«المقامات الوجدية» .
ولابد أيضًا من توضيح أن «الوجديات» جعلها الأستاذ محمد فريد وجدي عنوانًا لإصدارين له لا إصدار واحد، فهي عنوان (مقامات) كما قلنا نشرها تباعًا في مجلة «الحياة» وغيرها، ثم جمعت لاحقًا في كتاب، كما أنه أصدر (مجلة) بالاسم نفسه في ١٥ فبراير ١٩٢١م حسبما يذكر فيليب دي طرازي في كتابه عن تاريخ الصحافة العربية، الجزء ٣ ص ١٩٨، كانت تضم أحيانًا مقامات على الصورة ذاتها، وتضم خواطر ومقالات أخرى له أيضًا.

التاسع: أنه كان من أوائل المهتمين بتفسير القرآن الكريم عمومًا، ومن رموز مدرسة التفسير العلمي للقرآن خصوصًا، وذلك من وجهين لا من وجه واحد:

أ – أنه كان من ناحية صاحب مدرسة في التفسير لها خصائص وسمات مهمة، منها مواكبة علوم العصر والاجتهاد في فهم النص القرآني في ضوئها، والاجتهاد في التوفيق بين الاثنين بقدر ما يتحمل النص، وقد أجمل منهجه ذلك في مقدمة لتفسيره سماها «صفوة العرفان»(١)، طبعت أحيانًا منفردة – لأهميتها في ذاتها – وأحيانًا أخرى مع التفسير.

ب– ثم كان أن انفرد من ناحية ثانية، وهي ناحية الشكل، بأنه كان صاحب أول تفسير موجز للقرآن الكريم في العصر الحديث بلغة مبسطة منذ «تفسير الجلالين» وما في مضماره، وكذلك أول تفسير على الإطلاق – فيما أشار إليه بعض الباحثين – يظهر على هامش نص المصحف، فيما أطلق عليه «المصحف المفسر»، وهو ما اقتفى أثره بعد ذلك العشرات من المؤلفين والناشرين، سواء بإصدار مصاحف مفسرة جديدة، أو بإعادة طبع تفاسير مختصرة تراثية (لعل أكثرها ذيوعًا بين الناشرين، بعد تفسير الجلالين المحلي والسيوطي، مختصر ابن صمادح الأندلسي

---

(١) انظر: محمد فريد وجدي، مقدمة صفوة العرفان في تفسير القرآن، مطبعة الشعب، شوال ١٣٢١هـ.

لتفسير الإمام الطبري)، أي باقتفاء ذلك الشكل الذي ابتكره وجدي وهو طبع التفسير على حاشية المصحف[١].

العاشر: أنه لم يكد يترك - فيما نعلم - معركة فكرية أو اجتماعية مهمة إلا كان يدلي بدلوه فيها، في أسلوب عف ولغة مهذبة، تنفذ مباشرة إلى لب القضية بشكل موضوعي ولا تتدنى لتراشقات شخصية، وشهد له بذلك الخصوم قبل الأنصار. ونلاحظ أن ردوده كانت سريعة ومواكبة للجدل حول القضية، إذا لم تكن هي ذاتها من مثيرات هذا الجدل، وشديدة الحسم في منطلقاتها الفكرية، مما يعكس اتساقًا فكريًّا تامًّا لدى وجدي بين ما يؤمن به وما يعلنه ويعبر عنه ويدافع عنه. ومن الأمثلة:

- رده على كتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين فور صدوره ١٨٩٩م بمجموعة مقالات في جريدة (المؤيد) حسبما نص هو على ذلك في موسوعته[٢]، وهي معلومة غير مشهورة، إذ المشهور فقط بين الباحثين أن رد وجدي على قاسم أمين كان بكتابه «المرأة المسلمة» بعد صدور كتاب أمين «المرأة الجديدة». وبالطبع كان رده فعلاً على كتاب أمين الثاني «المرأة الجديدة» الصادر في سنة ١٩٠٠م هو بكتاب «المرأة المسلمة» في سنة ١٩٠١م.

(١) انظر: محمد رجب البيومي، محمد فريد وجدي الكاتب الإسلامي والمفكر الموسوعي، سلسلة أعلام المسلمين رقم ٨٦، دار القلم، دمشق، ط١، ٢٠٠٣، فصل: «المصحف المفسر»، وبالذات ص ١٣٠ و ١٣١.

(٢) انظر: محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، المجلد ٨، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ص ٥٩٥.

- رده - ضمن ردود آخرين - على المسيو جابرييل هانوتو وزير خارجية فرنسا السابق (١٨٥٣-١٩٤٤م) في معركة فكرية اندلعت بعد نشر ترجمة مقال هانوتو في (المؤيد) في إبريل ١٩٠١.
- ردوده على اللورد كرومر، سواء بعد تقرير الأخير الذي صدر ١٩٠٦م، أو بعد صدور كتابه (كتاب كرومر) «مصر الحديثة» أو Modern Egypt سنة ١٩٠٨م.
- رده على كتاب «في الشعر الجاهلي» لطه حسين الصادر في سنة ١٩٢٦م بكتاب «نقد كتاب في الشعر الجاهلي» في السنة نفسها ١٩٢٦م.
- رده على «الرسالة» التي أصدرها في سنة ١٩٣٧م إسماعيل أحمد أدهم (١٩١١—١٩٤٠م)[١] وأثارت ضجة في وقت صدورها - وهي «لماذا أنا ملحد؟»، والتي كتبها أدهم نفسه ردًّا على رسالة لأحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢-١٩٥٥م) عن «عقيدة الألوهية»، وذلك بمقال بعنوان «لماذا هو ملحد؟» كتبه فريد وجدي في مجلة الأزهر في السنة نفسها (١٩٣٧م)، بأسلوب مهذب وموضوعي استلفت نظر النقاد، وكان موضع تقدير وإكبار لبعده عن المعتاد في مثل هذه السياقات من ردود عنيفة من الكتاب الإسلاميين[٢].

---

(١) انظر: ترجمة إسماعيل أدهم في: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، مايو، ١٩٨٠م، الجزء الأول، ص ٣١٠.

(٢) انظر مثلاً: جابر عصفور، هوامش على دفتر التنوير، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط٢، ١٩٩٤، ص ١٨٤، حيث أثنى ثناء عاطرًا على الأستاذ محمد فريد وجدي، وقال: «لقد اعتدت أن أعاود قراءة ما كتبه محمد =

- رأيه الذي أدلى به في المعركة الفكرية المحتدمة التي قامت حول مدى جواز ومشروعية وإمكانية ترجمة القرآن الكريم، بعد أن وافق الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر (١٨٨١-١٩٤٥م) على جواز الترجمة، وذلك في وجه حملة عاتية من أزهريين وغيرهم كانت ترفض الترجمة تمامًا. وقد وافق فريد وجدي الشيخ المراغي على رأيه، والذي بدأ المراغي إعلانه حوالي سنة ١٩٣٢م، أي قبل أن يتولى المشيخة للمرة الثانية.
- ردوده على بعض ما جاء في «دائرة المعارف الإسلامية» من أخطاء لبعض المستشرقين، مثلما جاء في مادة (أبو بكر) ومادة (الإجماع). ومعروف أن هذه الموسوعة بدأ صدور ترجمتها العربية في أوائل الثلاثينيات حتى تتاح مادتها العلمية للعرب والمسلمين، فيستفيدون مما فيها من معلومات أو منهج، ويتمكنون من الرد على ما يستوجب الرد(١).

= فريد وجدي، متأملاً، قائلاً لنفسي: هذا مفكر إسلامي جليل، لا يجد حرجًا في الرد على من يعلن إلحاده بأكثر من سبيل، ويواجه هذا الإلحاد محترمًا صاحبه، مؤمنًا بحقوقه الدستورية، فلا يتكلم عنه إلا بكلمة «حضرة» جادًّا لا هازلاً، ومحاورًا لا مرهبًا، ومناقشًا الحجة بالحجة...».

(١) من أجل صورة واضحة وموضوعية - وإن تكن مركزة - عن «دائرة المعارف الإسلامية»، بما لها وما عليها، سواء في نصها الأصلي كمشروع استشراقي غربي ضخم، أو - بالذات - في طبعتها العربية المترجمة كمشروع ثقافي مهم، وملابسات صدور واستمرار ذلك المشروع في مصر وأصدائه المختلفة، ولاسيما وكاتب التقديم الحالي أتيحت له المشاركة ضمن فريق الطبعة العربية لهذه الموسوعة الجليلة في سنواتها الأخيرة من عهد صاحب المشروع - الباقي عندئذ معه بعد رحيل معظم الرواد الآخرين - الأستاذ الراحل إبراهيم زكي خورشيد، يمكن للقارئ الرجوع إلى: معتز شكري، دائرة المعارف الإسلامية أو سر المنزل رقم ١٤، مقال نشر بموقع صحيفة «مصرنا» الإليكترونية، بتاريخ ٥ يناير ٢٠١٠م.

الحادي عشر: أنه كان من «رهبان» العلم والفكر - إذا جاز التعبير - فقد كان نباتيًّا، وعازفًا عن الحياة الاجتماعية، ومحبًّا للعزلة، وعاكفًا على القراءة والبحث والتأليف، يكتفي برياضة المشي ذاهلاً عما حوله في الشوارع والطرقات!

كما يتضح من سيرة حياته بره الشديد بوالدته التي كان يقيم معها في بيت واحد تحتل هي فيه طابقًا، ويحتل هو فيه مع زوجته طابقًا آخر، وكان يقضي مع والدته وقتًا طويلاً[١]، وشاءت الأقدار ألا يرزق بأولاد؛ فعاش مع أسرته الصغيرة هذه متفرغًا للعمل البحثي والتأليفي، زاهدًا في الأضواء ومباهج الحياة الاجتماعية.

ولعل أحدًا لم يلمس هذا المعنى ويجمله كما لمسته وأجملته بطريقة رقيقة معبرة الأديبة الشهيرة مي زيادة (١٨٨٦-١٩٤١م) حين بعثت برسالة إلى الأستاذ محمد فريد وجدي بمناسبة عيد الأضحى سنة (١٣٤٧ - ١٩٢٩م) لتسأله كيف يقضي العيد مفكر مثله معروف بالانكباب الدائم على العلم والبحث، فقالت: «... فهل أنت يا أستاذ تُعيِّد على طريقة سائر الناس، أم أنت اليوم ككل يوم عاكف على دروسك وأبحاثك لتخرج تلك الكتب التي هي مجتمع يغنيك عن كل مجتمع، وتصدر دائرة معارف القرن العشرين التي يزيد قيمتها أنها عمل رجل فرد... إلخ؟» وقد أجاب وجدي عليها مؤكدًا هواجسها

(١) طبقًا لما ذكره محمد رجب البيومي، الأستاذ الجامعي ورئيس تحرير مجلة الأزهر، والمقيم في المنصورة بصفة دائمة لظروفه الصحية، في حوار هاتفي أجراه معه كاتب هذا البحث في ١٣ يونيو ٢٠٠٩م.

قائلاً: «ما رأيت سؤالاً تضمن جوابًا مثل هذا الجواب»!، وذلك بعد أن حياها وأثنى عليها بكلمات عاطرة، منها قوله: «أنت التي لك في كل منحى من مناحي النشاط العقلي جولة تنثرين فيها من يراعتك الساحرة دررًا يتجلى بها جيد الأدب أو العلم»[(١)].

وهذه الواقعة، على طرافتها، تؤكد أن الفكرة الخاصة بتفرغ وجدي للعلم والبحث وعزوفه عن أي نشاط اجتماعي كانت فكرة شائعة عنه، ومستقرة في الأوساط الثقافية، واستمرت منذ بواكير حياته حتى خواتيمها، وأنه لم يكن يجد نفسه في حاجة لدفعها أو نفيها.

وقد لفتت نظر كاتب هذه السطور مسألة شديدة الغرابة، وهو يعكف على دراسة حياته، وهي كيف أن صاحب «كنز العلوم واللغة» و«دائرة معارف القرن العشرين» و«المصحف المفسر» و«الوجديات» ومؤلفات موسوعية أخرى كثيرة، وأحد أعاظم علماء اللغة والأدب والفكر في زمنه، لم يكن في أي وقت على مدار حياته كلها عضوًا في مجمع اللغة العربية، مع أنه كان وقت إنشائه (١٩٣٢م) في الستين من عمره، وصاحب مؤلفات طبقت شهرتها الآفاق، ولا يختلف اثنان على فضله وعلمه ومكانته![(٢)].

---

(١) انظر: أنور الجندي، محمد فريد وجدي رائد التوفيق بين العلم والدين، مرجع سابق، من ص ١٣٥ إلى ١٣٧.

(٢) يؤكد هذه الحقيقة على نحو قاطع الاطلاع على كتاب شوقي ضيف «مجمع اللغة العربية في خمسين عامًا»، حيث ذكر في كتابه على سبيل الحصر أسماء جميع أعضاء المجمع في دوراته المتوالية منذ نشأته، بمن فيهم =

ولكن الدكتور محمد رجب البيومي، تلميذه النجيب المحب الذي كتب عنه كثيرًا، وأحيا الكثير من مؤلفاته بإعادة نشرها في السنوات الأخيرة، فسر للباحث هذا اللغز قائلاً: إن سبب ذلك أنه كان محبًّا للعزلة عزوفًا عن الحياة العامة، حتى ولو كانت في شكل مشاركة في عضوية المجمع اللغوي، بما يقتضيه ذلك من التزام بحضور جلسات، ومشاركة منتظمة وأعمال إضافية، مضيفًا: «مع أن محمد فريد وجدي يكفيه أنه كان أستاذ العقاد، وهو أفضل في رأيي - أي رأي البيومي- من جميع أعضاء مجمع اللغة العربية الآخرين»[(١)].

ولكن أي عجب من زهده في عضوية مجامع كالمجمع اللغوي لمجرد ميله للعزلة إذا عرفنا ما هو أكثر من ذلك، مما جاء في مصادر ترجمته نقلاً عمن خالطوه عن قرب، من قبيل أنه «لم يكن يرتاد دور السينما أو المسارح، وكان يعتذر عن شهود الحفلات والاجتماعات كلها، ولم يعرف أنه اصطاف مرة في إحدى مدن الشواطئ أو سافر إلى الخارج»[(٢)]! كما ذكروا أنه كان يعمل في شبابه وكهولته ست عشرة ساعة كل يوم، ثم خفف هذا النمط المضني من العمل اليومي الشاق بعد بلوغه الخمسين[(٣)].

= من حل محل راحلين، وبمن فيهم مراسلو المجمع من خارج مصر، إلى ما بعد وقت وفاة وجدي بأكثر من ٣٠ عامًا، ويتضح مما ذكره غياب اسم الأستاذ فريد وجدي تمامًا.

(١) المصدر: الحوار الهاتفي السابق الإشارة إليه مع الدكتور البيومي.

(٢) انظر: صباح إبراهيم بيومي سليمان، محمد فريد وجدي مفكرًا إسلاميًّا، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، المقدمة، صفحة ج، ح.

(٣) المرجع السابق، صفحة ج.

الثاني عشر: أنه كان من القلائل أو النوادر في تاريخنا المعاصر، في العالم العربي والإسلامي، الذين أخلصوا للكتابة واعتبروها رسالة يخصصون لها حياتهم كلها، ومن الذين كانوا يكتفون بالقليل الذي يحصلونه من ريع بيع كتبهم، ولا يضطرون للارتزاق بالعمل لدى حزب أو هيئة أو مؤسسة، وهو ما كان له في رأينا أثر بالغ في محافظته على استقلاله الفكري، وكان يكتب بنفسه إعلانات عن كتبه وموسوعاته، ويرغب القراء في مزاياها، ويجري لهم تخفيضات على أثمانها، ويقدم لهم خيارات منها الحصول على الكتاب على شكل ملازم مجزأة ترسل لهم بالبريد بأسعار قليلة!!.

ويلفت نظرنا أن قرار وجدي بالتفرغ للكتابة والتأليف لم يأت فقط بعد اقتناعه بعدم جدوى مزيد من الدراسة النظامية، بل جاء كذلك زهدًا في أي وظيفة أخرى ولو حتى بالجمع بينها وبين الكتابة، فقد ذكرت المصادر أنه أتيحت له في بواكير حياته العملية عدة وظائف كانت جيدة ومناسبة له في ظروف ذلك العصر، مثل وظيفة في ديوان الخديوي وأخرى في وزارة الأوقاف، ولكنه ضرب بذلك كله عُرض الحائط، مقررًا الإخلاص للعلم والتأليف فقط [1]!

الثالث عشر: أن تراثه من المؤلفات والكتابات لم يجمع كاملاً حتى الآن، وهو تراث شديد الغزارة، ولاسيما ما كان ينشر في الصحف والمجلات في زمنه، وقد توزعت كتاباته خلال نحو ستين عامًا على عدد كبير من

---

(١) محمد طه الحاجري، محمد فريد وجدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص ٩.

الصحف والمجلات، منها: صحفه التي أصدرها، مثل: (الحياة)، و(الدستور)، و(الوجديات)، ومنها صحف ومجلات أخرى، مثل: (المؤيد)، و(مجلة المجلات العربية)، و(المقتطف)، و(المنار)، و(الأهرام)، و(المعرفة)، و(الأخبار)، و(الرابطة العربية)، و(البلاغ)، و(الهلال)...إلخ.

كما أنه ممن لم ينالوا كل ما يستحقونه من الشهرة وإلقاء الأضواء على مكانتهم العلمية المرموقة.

٣- محمد فريد وجدي: سيرة حياة ومسيرة فكرية

(أ) حياة فريدة

عندما وصف الأستاذ عباس محمود العقاد العلامة محمد فريد وجدي بأنه كان «فريد عصره غير مدافع»، في مفتتح الفصل الذي خصصه له في كتابه «رجال عرفتهم»، لم يكن في رأينا يجنح إلى المبالغة أو يسعى فحسب للوفاء بجميل الرجل الذي كان له أستاذًا وصديقًا ورائدًا، وهو يخطو أولى خطوته المهمة في عالم الصحافة والأدب، ولا كان مستسلمًا فقط لإغراء الجناس اللفظي في كلمة (فريد) بين الاسم والصفة، وهو الأمر الذي لم يكن ليغفل عنه عملاق كالعقاد.

نقول ذلك بمنتهى الاقتناع والاطمئنان لأن المتأمل لحياة فريد وجدي وأعماله سيجده في كثير من الأمور كان بالفعل اسمًا على مسمى، بصورة ربما لا تتفق بالنسبة نفسها حتى مع آخرين كانت لهم هم أيضًا ريادة وسبق وتأثير في تلك الحقبة الساطعة من تاريخ الفكر المصري والعربي والإسلامي المعاصر، ولاسيما أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين.

ودون أن نستبق الأمور، نشرع أولاً في سرد مكثف لمسيرة حياة هذا الرجل، جمعًا وتنسيقًا من مختلف المصادر.

(ب) مشكلة في تاريخ ميلاده

الغريب أن نقطة البدء، وهي تاريخ مولده، تمثل هي بذاتها مشكلة واجهت المترجمين لسيرته! فالمصادر تتفاوت بين عامين تحديدًا، هما ١٨٧٥ و ١٨٧٨م.

ولن نلقي بالاً لرأي شارد وحيد انفرد به أحد تلاميذه ومريديه، وهو المهندس محمد توفيق أحمد، ونقله عنه الأستاذ أنور الجندي، هو أن الأستاذ وجدي ولد سنة ١٨٦٩م؛ لأنه قول مرسل غير موثق ولا يقوم على دليل، كما أنه لا يتفق مع ما ذكره وجدي نفسه من إشارات عن تاريخ مولده سنذكرها لاحقًا[١].

(١) انظر: أنور الجندي، محمد فريد وجدي رائد التوفيق بين العلم والدين، مرجع سابق، ص ٨٤، حاشية ١.

وقد كفانا - فيما نرى - البحاثة الكبير الدكتور محمد طه الحاجري، وكفى كل من جاء بعده من دارسي وجدي وآثاره مؤونة تحقيق سنة مولده، وقام ببحث مفصل في ذلك في كتابه، ربما سيكون من التزيد هنا إعادة سرد كل خطواته تفصيلاً، ولكنه قارن فيه بين مختلف الأقوال إلى أن انتهى إلى ترجيح سنة ١٨٧٨م باعتبارها السنة التي شهدت مولد وجدي في مدينة الإسكندرية.

فقد انفرد مؤرخ أو اثنان بذكر التاريخ الأسبق (١٨٧٥م)، بناء على أقوال فردية أو استنتاجات دون دليل كاف، وبالذات محمد يوسف خليفة في مقال رثائه لوجدي في الأهرام عقب وفاته، ثم عمر رضا كحالة في «معجم المؤلفين» الذي رجح تاريخ (١٨٧٥م) مع أنه احترز في حاشية قال فيها إنه رجع في ذلك إلى «معجم المطبوعات» ليوسف سركيس، ولكنه وجد في «مشاهير أدباء العصر» أنه ولد ١٨٧٨م، وكذلك نقل عن طاهر الطناحي أنه قال في الهلال إنه ولد حوالي ١٨٧٨م[١].

أما الزركلي في «الأعلام» فقد فعل عكس ما فعل كحالة؛ إذ أثبت التاريخ المرجح ١٨٧٨، ولكنه أشار في الحاشية إلى أن حسن عبد الوهاب أرخ ولادته سنة ١٨٧٥ في مقال بالأهرام في ١٦ فبراير ١٩٥٤م[٢].

---

(١) انظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٣م، ج٣، ص ٥٨٦.

(٢) انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، الجزء السادس، ص ٣٢٩.

بينما وضع الدكتور الحاجري يده على عدة أمور ترجح كفة التاريخ الثاني (١٨٧٨م)، لعل أهمها على الإطلاق إشارة من محمد فريد وجدي نفسه في موسوعته الشهيرة «دائرة معارف القرن العشرين» تدل على أنه كان في العشرين من عمره في سنة ١٨٩٨م.

فقد ذكر فريد وجدي أنه رأى رؤيا معينة عندما كان في العشرين من عمره ذكر تفاصيلها التي لا تهمنا في هذا السياق، ثم قال إنه بعد مرور سنة على تلك الرؤيا أصدر قاسم أمين كتابه «تحرير المرأة»، وبما أن كتاب قاسم أمين هذا صدر كما هو موثق ومؤكد في عام ١٨٩٩م، ومع الرجوع إلى الوراء واحدًا وعشرين عامًا، يكون تاريخ مولد فريد وجدي هو ١٨٧٨م[(١)].

(ج) نشأته الأولى وتعليمه بين الإسكندرية والقاهرة ودمياط والسويس

ولد محمد فريد وجدي - واسمه مركب (محمد فريد) على عادة الناس في ذلك الزمان، واسم أبيه (مصطفى) واسم جده (علي رشاد وجدي) - في أسرة شركسية الأصل بالإسكندرية، لأب وصف بأنه من أوساط الموظفين، وإن تكن مناصبه تفيد أنه يكاد يكون من كبارهم؛ لأنه تقلد مناصب إدارية مرموقة في عدة محافظات مصرية، منها الإسكندرية ودمياط والسويس، وكان أرفع هذه المناصب منصب (وكيل محافظة).

---

(١) انظر: محمد طه الحاجري، محمد فريد وجدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص ١٨ و ١٩، وهذا في رأينا يحسم المسألة تمامًا. وانظر أيضًا الحاشية رقم ٢ أعلاه، ففيها نفس بيانات المصدر الخاص بالحاشية الحالية.

وكان هذا الأب محبًّا للعلم يمتلك في بيته مكتبة ضخمة تضم مئات الكتب في الدين والأدب والتاريخ وعلوم ومعارف أخرى كثيرة، كما كان يقيم في داره ما يشبه الصالون الأدبي الذي يؤمه العشرات من أصدقائه ومعارفه من الشيوخ والأدباء، وكان من الطبيعي أن ينهل الصبي الذي بدت عليه أمارات النبوغ ومخايل النجابة مبكرًا من هذين الموردين الثريَّين: المكتبة والصالون، وهو ما سيكون له أثره البالغ فيما سيصير إليه مستقبل الفتى الصغير النجيب.

تلقى كاتبنا – وهو صغير – الجانب الأكبر من تعليمه في مدينة الإسكندرية، ما بين ثلاث مدارس خاصة: بدءًا من مدرسة (إسماعيل حقي أفندي) التي دخلها في الرابعة وقضى فيها أربع سنوات، ثم مدرسة (حمزة قبطان) التي بقي فيها حتى أتقن القراءة والكتابة، ثم تحول إلى مدرسة ثانوية فرنسية تحمل اسم صاحبها (مسيو فالون)، وهي التي أتقن فيها الكثير من مبادئ اللغة الفرنسية، مما سيدين له لاحقًا ببداية إجادته لها، ولكنه ما لبث أن نقل من هذه المدرسة بغير إرادته وإرادة العائلة كلها عندما نقل أبوه إلى القاهرة.

وقد رصد بعض مؤرخي حياة وجدي[١] أثر الإسكندرية التي نشأ فيها على تكوين شخصيته، وذكروا ما كانت تحظى به المدينة وقتها من مكانة حضارية خاصة وكذلك نشأة الصحافة بها، حيث من المعروف أنها شهدت إنشاء أول صحيفة عربية في فترة ما بعد صحف بونابرت وهي «الكوكب الشرقي» لسليم

(١) انظر: المرجع السابق، ص ٢٣.

الحموي سنة ١٨٧٣م، ثم الصحف الحكومية الأولى من قبيل الوقائع وصحف الجيش... إلخ، وسط زخم متتابع من صحف ومجلات أخرى سرعان ما أحدثت في مجموعها، ومع وجود عدد من الشوام المرتحلين إلى الإسكندرية - من رواد الصحافة والأدب، ونظراء لهم مصريين- مناخًا ثقافيًّا مزدهرًا بالمدينة، وجده محمد فريد وجدي حوله عند نشأته طفلاً وصبيًّا[١].

وفي القاهرة ألحقه أبوه بمدرسة ثانوية شهيرة هي (المدرسة التوفيقية)، ولكن فريد الصغير لم يتجاوب مع نظم الدراسة فيها لاختلافها عن المناهج والمقررات وطرق التدريس التي عايشها في مدارس الإسكندرية، ويبدو أن أباه أحس أن ابنه لا يستطيع متابعة دروسه بشكل جيد، فكان أن بادر إلى استحضار مدرسين خصوصيين للتدريس له في المنزل. وكالعادة، جاء قرار مفاجئ نقل بموجبه الأب إلى منصب إداري رفيع جديد في دمياط، بعد بقاء الأسرة عامين في القاهرة. فاضطر فريد للتوقف عن الدراسة في القاهرة، سواء في التوفيقية الثانوية أم من خلال الدروس المنزلية الخاصة. وكان ذلك في عام ١٨٩٤م عندما كان فتانا قد بلغ السادسة عشرة[٢].

---

(١) انظر: عبد العليم القباني، نشأة الصحافة العربية بالإسكندرية (١٨٧٣-١٨٨٢م)، المكتبة الثقافية ٢٩٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م، ص ١٠.

(٢) انظر: محمد طه الحاجري، محمد فريد وجدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص ٢٦.

(د) وجدي يقرر احتراف الكتابة وعدم مواصلة التعليم النظامي

بحلول ذلك التاريخ شاءت الأقدار أن تنقطع صلة فريد وجدي بالتعليم النظامي، ومن جانبه هو أحس بزهده في المزيد منه، مقررًا استكمال كل ما يحتاجه من علوم ومعارف وثقافة بالنهل المباشر والمتواصل وبطريقة موسوعية من جميع ما يتاح له من كتب وموسوعات ومصادر للثقافة، بل ومقررًا أيضًا شيئًا آخر خطيرًا لفتى في مثل سنه، وهو أن يكون عمله وحرفته وحياته كلها في اتجاه واحد هو التفرغ للكتابة، سواء في الصحف والمجلات أو كمؤلف للكتب، وسواء بلغته العربية أو بالفرنسية التي أجادها، وأن تكون رسالته الأولى ككاتب هي الدفاع عن الإسلام في وجه كل ما يُوجه إليه من اتهامات، ويلصق به من افتراءات أو تشويه، وأن يكون له دور تنويري بين بني وطنه.

ويبدو أن والده كان قبل ذلك يتطلع إلى مستقبل آخر لنجله هو أن يتم تعليمه فيما كان متاحًا آنذاك من تعليم عال، أو أن يتأهل بقدر الإمكان ليصبح موظفًا حكوميًّا مرموقًا مثله، ولكنه – فيما ترويه المصادر – لم يشأ الضغط على ابنه لإجباره على غير ما انتواه لنفسه، بعد أن رأى الأب في فريد من مخايل النجابة ما يدل على موهبة حقيقية واضحة، ورآه يشرع بالفعل في التأليف والكتابة، ووجد من الثناء عليه ما جعله يؤمن بما اختار الابن لنفسه من طريق في الحياة، لدرجة أن يقوم هذا الأب الفخور بابنه النابغة بتمويل أوائل كتبه التي أصدرها، وهو بعدُ فتى يافع ما بين السادسة عشرة والعشرين.

(هـ) هزة عقلية وشك في العقيدة

ونعود إلى دمياط، فنجد فتانا يتعرض لهزة نفسية وعقلية - إذا جاز التعبير - تقوده إلى شك في العقيدة الدينية، حيث كان ينهمك في المشاركة في الصالون الأدبي والفكري الذي نشأ في دار أسرته عندما نقل الأب إلى دمياط في منصبه الكبير وأقبل علماء المدينة يرحبون به بينهم، ودمياط مشهورة طوال تاريخها الإسلامي بالذات وحتى مشارف العصور الحديثة بعلمائها ومعاهدها ونشاط الحركة الفكرية وحركة الترجمة بها، ناهيك عن نشاطها الصناعي والتجاري، وهو ما يعود في جانب كبير منه إلى ميناء دمياط. وقد ظلت دمياط منذ الحملة الفرنسية وحتى السنوات الأولى من حكم محمد علي هي ثاني مدن مصر من حيث عدد السكان بعد القاهرة، وميناء مصر الأول ترد إليها معظم التجارة، وكانت تقوم بها الكثير من الخانات والوكائل[١].

فقد حدث عندئذ أنه كانت تدور أثناء المجلس مناقشات في مسائل دينية، وكان وجدي الشاب الصغير يجد فيها مجالات للتساؤل، ولكنه لاحظ أن أباه لم يكن يرحب بأسئلته الكثيرة والجريئة الموجهة للحضور من العلماء والأدباء في مسائل الدين بالذات. وبصورة أو بأخرى، استنتج وجدي حسب تفكيره الغض في تلك الفترة الحساسة من عمره، والتي يكون فيها تفكير المراهق ونفسيته ومشاعره شديدة الحساسية والتقلب أنه لابد أن يكون الأسلوب الذي كُتبت

(١) انظر: جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٠م، ص ٦١.

به كتب الدين ومراجعه عقيمًا، والمناهج التي تلقى بها هؤلاء العلماء معارفهم الدينية مناهج غير مجدية، ماداموا لا يستطيعون أن يجيبوه إجابة عقلية شافية عما يحيره.

ويقول فريد وجدي وهو يقص علينا ما انتابه في تلك الأيام: «ومن هنا تزلزلت عقيدتي، وشرع الشك يتسرب إلى نفسي؛ حتى صرت لا أرتاح إلى رأي واحد يتضمنه كتاب، ولا أقتصر على فكرة معينة يجتهد بعض العلماء في إثباتها بما أدلى من قوة الحجة وساطع البرهان، وجعلت أتناول بالقراءة والدرس جميع الكتب الدينية والكونية والاجتماعية، وسائر ما يتعلق فيها بعلم النفس، وأكببت على ذلك عدة سنين، فاكتسبت علمًا غزيرًا، واتسع أمامي نطاق الحياة، وجال نظري في الكائنات جولات أفادتني فيما أتناوله بالبحث والدرس، حتى صرت لا أقتنع بفكرة دون أن أعنى بدرسها وتمحيصها، معتمدًا في ذلك على تجاربي الذهنية التي مرت بي. وقد أفادني هذا الشك استقلالاً في الفكر، واعتمادًا على النفس، ورغبة في استيعاب ما يقع بيدي من الكتب على اختلاف أنواعها بصبر وجلد، كما أفادني دقة في البحث حتى أزال الشك عني، وارتاحت نفسي إلى عقيدة ثابتة»[(١)].

---

(١) ارجع إلى: طاهر الطناحي، مقدمة كتاب الإسلام دين الهداية والإصلاح لمحمد فريد وجدي، دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال، العدد ١٤٠، (جمادى الآخرة ١٣٨٢هـ/ نوفمبر ١٩٦٢م)، ص ٩ و ١٠، والنقل هنا عن: محمد طه الحاجري، محمد فريد وجدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص ٢٨.

(و) نشاط عام وبدء صدور المؤلفات والإصدارات الصحفية

كنا قد تركناه في دمياط، مقررًا الاكتفاء بما حصله من دراسة منتظمة والبدء بالتأليف، ذلك أنه لم يكد يبلغ السادسة عشرة، حتى اعتبر أن هذه السن هي سن البدء في العمل للوطن «أليست هي السن التي بدأ فيه مصطفى كامل الشعور بواجبه نحو وطنه والعمل له؟»[١].

ونعرف من مقدمة كتابه «المدنية والإسلام» الذي أصدره وهو في العشرين من عمره (١٨٩٨م)، وكان عنوانه إذ ذاك «تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية»، أن فكرته كانت تجيش في نفسه قبل صدور الكتاب بأربع سنوات، أي عندما كان في السادسة عشرة من عمره، وكان الباعث على تأليفه هو ما لاحظه من صورة مشوهة عن الإسلام والمسلمين لدى الأوروبيين من جراء ممارسات العوام وبدع الطرق الصوفية وغير ذلك، فرأى أن أول واجب عليه هو أن يصحح هذه الصورة ويقدم الإسلام على حقيقته أمام الأوروبيين.

ولكن هذا الكتاب لم يكن أول مؤلفاته، بل سبقه كتاب ألفه وهو في السابعة عشرة، وأسماه «الفلسفة الحقة في بدائع الأكوان». وننقل هنا عن صديقه الشامي، الشيخ عبد القادر المغربي، الذي زار دمياط سنة ١٨٩٨م، وقال عن وجدي: «فريد بك ابن وكيل محافظة دمياط، شاب ذكي نبيه، أبصر أهل دمياط

---

(١) محمد طه الحاجري، محمد فريد وجدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص ٣٠.

بحالة الإسلام والوقت، وجهته مثلنا دينية، يطالع الإحياء، وله اعتناء بالفلسفة، ألف كتابًا صغيرًا سماه الفلسفة الحقة أهداني نسخة منه، وهو الآن يستعد لتأليف كتاب بالفرنسية في الديانة الإسلامية ويعرضه في معرض باريز الآتي...»(١).

وكُتيب «الفلسفة الحقة» يقع في نحو ٨٤ صفحة، موضوعه بيان أسرار الوجود، والحكمة الكامنة في كل وجه من وجوهه، وقد صنفه على عوالم الكون الأربعة، الإنسان والحيوان والنبات والجماد. «وأكبر الظن أن هذا الكتيب الذي خرج إلى الناس يحمل اسم (محمد فريد نجل مصطفى بك وجدي) قد أثار في بيئة دمياط وفي الأوساط المتصلة بهذه الأسرة غير قليل من الإعجاب، وخاصة لصدوره عن شاب ناشئ مثله...ولكن أصداءه لم تكد تتجاوز ذلك النطاق»(٢).

ولم يطل مقام فريد وجدي بدمياط بعد صدور كتابه «المدنية والإسلام»، فما لبث أن انتقلت أسرته وهو معها إلى السويس؛ حيث قضى معهم هناك ست سنوات حتى عام ١٩٠٥م عندما قرر الانتقال إلى القاهرة واتخاذها مقرًّا له.

صحيفة «الحياة»: ولما كان مقتنعًا بأهمية الصحافة ودورها في نشر أفكاره، فقد شرع وهو في السويس، ومن خلال زيارات منتظمة للقاهرة، في إصدار مجلة بعنوان «الحياة» وطبعها في مطبعة صديقه محمد رشيد رضا «المنار»، ولكن بغض النظر عن مكان طباعتها، فمن الواضح أن مكان صدورها وتوزيعها - أو ربما

(١) المرجع السابق، ص ٣١ و ٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٠.

على الأقل رخصتها ومقرها الرئيسي - كان هو مدينة السويس، حيث يدرجها الفيكونت فيليب دي طرازي في مرجعه الضخم عن تاريخ الصحافة العربية، وهو المعروف بدقته المتناهية، ضمن الصحف الصادرة في مدينة السويس، بخلاف مثلاً صحيفتي الدستور والوجديات اللتين أشار دي طرازي إلى أن وجدي أصدرهما من القاهرة.

وقد صدر العدد الأول من «الحياة» في (غرة صفر ١٣١٧هـ/ ٩ يونيو ١٨٩٩م)[١]، وكان موضوعها الرئيسي وقضيتها الأولى هي مقاومة الإلحاد. واستمرت تصدر شهريًّا حتى أكتوبر ١٩٠٠م، دون أن يعرف أحد سبب توقفها.

ولم يمنع توقف المجلة صاحبها فريد وجدي من أن يكتب مقالاته في صحف أخرى، مثل: جريدة المؤيد، ومن مقالاته فيها ردوده على قاسم أمين وكتابه «تحرير المرأة»، ثم شارك بمقالات في حملة الردود على ما كتبه المسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا السابق عن الإسلام.

بعد ذلك، أصدر فريد وجدي سنة ١٩٠١م كتابًا بعنوان «الحديقة الفكرية في إثبات وجود الحضرة الإلهية بالأدلة الطبيعية»، وهو كما يظهر موضوعه الأثير، وقضيته الدائمة، أن يبرهن على وجود الخالق وعلى صحة مقولات الإسلام بالاستئناس بحقائق العلم وأدلته.

---

(١) انظر: فيليب دي طرازي، مرجع سابق، ج٤، ص ٣٣٨.

ويبدو أن عام ١٩٠١م كان عامًا مثمرًا بالنسبة له ولمعاركه الفكرية، فقد شهد أيضًا صدور كتابه «المرأة المسلمة» ردًّا على كتاب قاسم أمين الثاني «المرأة الجديدة» الذي صدر ١٩٠٠، ونقصد بالثاني ترتيبه من حيث كتبه الخاصة بقضية المرأة، لا من حيث ترتيب أعماله زمنيًّا.

بعد ذلك، احتشد فريد وجدي لمشروع متكامل في شكل كتاب كبير تصدر أجزاؤه تباعًا، وهو أمر كانت البيئة الثقافية في ذلك العهد تتحمله، وكان القراء يعتادونه، وكان له مزية تواصل الكاتب مع قرائه ومعرفته بردود فعلهم، حيث كانت بعض الكتب تصدر في أجزاء أو ملازم أو ملاحق متتابعة مقابل اشتراكات غالبًا، وهذا الكتاب هو «الإسلام في عصر العلم» في ١٤٠٠ صفحة، حيث بدأ بإصدار مقدمته منفردة سنة ١٩٠٢م، ثم أصدر الكتاب الذي يضم أربعة أقسام، «مبحث الإنسان» و «خاتم النبيين» و «ما وراء المادة»، والرابع «ردود على استفسارات القراء».

وربما من المهم ألا نترك هذه المناسبة دون أن ننبه الباحثين إلى أن هذه الطريقة في إصدار الكتب على شكل أجزاء أو ملاحق يتتابع صدورها مقابل اشتراكات القراء – وهي غير معروفة حاليًّا إلا نادرًا جدًّا – تفسر لنا ما يحدث أحيانًا من تفاوت في ذكر تواريخ الصدور أو الطباعة لعدد من كتب وجدي، أو حتى آخرين، في ذلك العصر، إذ تحمل الأجزاء المطبوعة بالضرورة – إذا استمر نشر الكتاب الواحد على مدى عدة سنوات – عددًا من التواريخ!

وما بين أواخر ديسمبر ١٩٠٣م وأوائل يناير ١٩٠٤م، أصدر كتابًا يحمل عنوان «صفوة العرفان في تفسير القرآن» كان يصدر أيضًا في فصول شهرية متتابعة. وقد طبعت مقدمته بنفس العنوان منفصلة، بينما صدر باقي الكتاب، وهو تفسير موجز للقرآن الكريم، بعنوان «المصحف المفسر»، والذي حقق شهرة كبيرة، وطبعت منه طبعات كثيرة.

بعد ذلك، بدأ فريد وجدي الكتابة في صحيفة «اللواء» التي كان يصدرها الزعيم مصطفى كامل، وكان وجدي موضع تقدير للزعيم؛ فاستكتبه لجريدته، وتآلف الرجلان، وتكونت بينهما صداقة. وبلغت مقالات وجدي في «اللواء» نحوًا من عشرين مقالاً[١].

ولأسباب غير واضحة، فترت علاقة الرجلين، وانقطع وجدي عن الكتابة في «اللواء»، ثم ألف في تلك الفترة أيضًا بحثًا بعنوان «الإسلام دين عام خالد» كان مخصصًا أصلاً للمشاركة به في مؤتمر للأديان كان من المزمع انعقاده في اليابان سنة ١٩٠٦م، ولكن ذلك لم يتم لسبب أو لآخر، وهو ما زاد عليه ونقحه ليصبح في وقت لاحق من حياته كتابًا جديدًا يصدره سنة ١٩٣٣م.

وفي عام ١٩٠٦م، أيضًا استأنف وجدي إصدار مجلة «الحياة» التي كانت قد توقفت سنة ١٩٠٠م.

---

(١) محمد طه الحاجري، محمد فريد وجدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص ٩٩.

وبعد عدة سنوات، توقفت من جديد، عندما بدأ وجدي يفكر في حاجته لإصدار صحيفة يومية، وهو الحلم الذي تبلور في صدور صحيفة «الدستور» في ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٧م.

وفي مرحلة مجلته «الحياة»، كان من بين ما يكتبه فيها أحيانًا «مقامات خيالية تسمى بالوجديات».

ثم حدث في حياة فريد وجدي تطور غريب يندر توقعه من كاتب غيره، حيث رأى بعد كتابته سلسلة مقالات انتقد فيها مناهج التعليم بالأزهر وعدم كفايتها للطلاب، أن يفتتح مدرسة يقوم فيها بتدريس معارف معينة يحتاجها المتعلم الأزهري، فكان أن افتتح بالفعل مدرسة خاصة سماها «مدرسة العلوم العالية»، وحدد الغرض منها في «تخريج فرقة من حملة العلوم الدينية في المعارف العصرية والفلسفة الحديثة؛ ليكونوا على بينة من أمر الدفاع العصري عن هذا الدين الحنيف»[١]، وافتتحت هذه المدرسة، وبدأت محاضراتها في منتصف سنة ١٩٠٧م حسب تقدير الدكتور طه الحاجري، وظلت مفتوحة على الأقل حتى آخر شهر يونيو ١٩٠٨م.

وفي عام ١٩٠٧م، الذي كان كما هو واضح من الأعوام الثرية الحافلة بالأحداث في حياة فريد وجدي، صدر له كتاب بعنوان «كنز العلوم واللغة»، وهو

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣٠.

نواة موسوعته الضخمة بعد ذلك «دائرة معارف القرن العشرين»، وهو العنوان المختصر الأكثر شهرة، وإن كان عنوان الموسوعة كاملاً يورد أولاً «القرن الرابع عشر الهجري»، ويرجح الدكتور الحاجري أن يكون قد بدأ صدور الكتاب في أجزاء اعتبارًا من ١٩٠٥م.

كما شهدت تلك الفترة ردود فريد وجدي على اللورد كرومر والتقرير الذي وضعه عن الأحوال في مصر سنة ١٩٠٦م[١]، وقال فيه ضمن ما قال: إن الشريعة الإسلامية لا تصلح للتطبيق في العصر الحديث.

صحيفة «الدستور»: وبعد تجربته مع صحيفة «الحياة»، وكتابته مقالات كثيرة على مدى عدة سنوات في عدد من صحف ذلك العصر الشهيرة، كـ«اللواء» و«المؤيد» وغيرهما، رأى فريد وجدي أن الوقت قد جاء لكي يصدر صحيفته اليومية الخاصة، وهنا ظهرت صحيفة «الدستور»، واختار لها هذا الاسم؛ لأنه كان يعتقد أن الدستور هو أهم ما كسبته الأمة لنفسها منذ سنة ١٨٧٩م، وأنه أساس كل رقي سياسي.

وقد صدر العدد الأول من «الدستور» في السادس عشر من نوفمبر ١٩٠٧م، «لتكون إلى جانب جريدة اللواء، صوت الوطنية المصري الواضح الصريح ولسانها

(١) راجع: تقرير عن المالية والإدارة والحالة العمومية في مصر وفي السودان سنة ١٩٠٦م، رفعه جناب اللورد كرومر قنصل دولة إنكلترا الجنرال ووكيلها السياسي في مصر إلى جناب السر إدورد جراي ناظر خارجيتها، ترجم في إدارة المقطم، وطبع في مطبعته سنة ١٩٠٧م.

الذي لا يمالئ ولا يداهن، ولا يسالم أو يلاين، بعد أن فترت حماسة المؤيد، وخفت صوته في مهاجمة المحتل... وبعد أن خاب رجاء الأمة في بعض الصحف الأخرى كالظاهر والمنبر»[١].

وجاء كثير من مقالاته في الدستور في شكل سلاسل يدور حلقات كل منها في موضوع بعينه أو بحث مستقل، كسلسلة مقالاته التي كتبها عقب وفاة الزعيم مصطفى كامل سنة ١٩٠٨م، ومقالاته التي كتبها في الرد على اللورد كرومر والتي بلغت وحدها حوالي عشرين مقالاً أو أكثر.

وكان في صحيفته يتابع حركة النشر العلمي في أوروبا، وينشر ترجمات لبعض الكتب التي يصدرها علماء ومفكرون أوروبيون، مثلما فعل مع كتاب «الأكاذيب المتفق عليها في مدنيتنا الحاضرة» من تأليف ماكس نورداو، ثم استحدث في سنة ١٩٠٨م بابًا ثابتًا بعنوان «حركة العلم والفلسفة في القرن العشرين». ويقول الدكتور الحاجري إنه أراد أن يصبغ جريدته بالصبغة العلمية، فقد كان الجانب العلمي أبرز صفات وجدي وأهم ملامح شخصيته، وأن من أظهر مكوناتها عنده سعة الأفق، وحرية الفكر، واستقلال الرأي، وأن ذلك كله انعكس على «الدستور»[٢].

---

(١) انظر: محمد طه الحاجري، محمد فريد وجدي حياته وآثاره، مرجع سابق، ص ١٥٨، وفيليب دي طرازي، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص ١٨٨.

(٢) محمد طه الحاجري، محمد فريد وجدي حياته وآثاره، مرجع سابق ص ١٦٢.

وهذه الفترة أيضًا هي التي شهدت بداية تعرف الأستاذ العقاد على فريد وجدي وعمله معه في تحرير صحيفة الدستور، ومن خلال عمله بالصحيفة بدأ تعرف العقاد على سعد زغلول، وكانت البداية اختلاف العقاد مع انتقادات وجهتها لزغلول صحيفة اللواء الناطقة باسم الحزب الوطني، ولم يمانع وجدي - بالرغم من انتمائه هو نفسه للحزب الوطني - في أن يذهب العقاد لإجراء حديث – هو الأول من نوعه في الصحافة المصرية يجريه صحفي مع وزير أثناء وجوده في منصبه – مع زغلول؛ لرد اعتباره في وجه هذه الانتقادات، وكان ذلك أواخر سنة ١٩٠٧م.

وبسبب خلاف نشب بين فريد وجدي وبعض مواقف وخطب مصطفى كامل، وتعبير وجدي عن رأيه بمنتهى الحرية دون مجاملة أو مواربة أو «حسابات»، بدأ كثير من أعضاء الحزب الوطني المخلصين لمصطفى كامل والذين لا يقبلون أي نقد له ينصرفون عن قراءة الدستور.

كما بدأ بعض الشباب ممن كانوا يعاونونه في تحريرها في تركها، فعرفت الصحيفة التعثر والأزمات المالية، وانفصل كل ما بينها وبين الحزب الوطني بعد أن فضل وجدي استقلاله الفكري على أي اعتبارات أخرى.

وكثرت الديون على وجدي، ولكنه أجرى اتفاقًا مع المكتبات يضمن به دفع كل متأخرات الأجور المستحقة للمحررين والعاملين بالجريدة، قبل أن تغلق «الدستور» أبوابها بعد عمر قصير لم يتجاوز العامين!

ولكننا نفهم أن الأزمة المالية «فاقمت» فقط من وضع «الدستور»، أما السبب الرئيسي لإغلاقها، قبل أن يفكر الأستاذ وجدي في أنشطة أخرى صحفية وتأليفية، كان هو الاختلاف مع الحزب الوطني والخروج عنه. وإذن فهو حديث المبادئ دائمًا ونحن نستعرض حياة وجدي، فقد «أدى تغير الخريطة السياسية إلى استقالة بعض أعضاء الحزب (المعتدلين) الموالين للخديوي عباس الثاني أو للخليفة العثماني أو خروجهم مثل محمد فريد وجدي صاحب جريدة الدستور الذي أعلن في جريدته عدد ٢٠ إبريل ١٩٠٩م أن في مقدمة أسباب خروجه من الحزب الوطني عداء الحزب للخديوي»[(١)].

ويقرر الأستاذ محمد فريد وجدي اعتزال الحياة السياسية بصخبها ومعاركها منذ عام ١٩١٠م تقريبًا، ليتفرغ لما هو معد له أصلاً من عكوف على القراءة والبحث والكتابة والتأليف، وبالذات دفاعًا عن الإسلام وجلاء لحقيقة مبادئه وشرائعه. وسوف تمضي السنون به بعد ذلك وهو يتابع الكتابة في الصحف وتأليف الكتب وإعادة إصدار صحفه ومجلاته كلما أمكنه ذلك، مع

(١) لويس عوض، تاريخ الفكر المصري الحديث من عصر إسماعيل إلى ثورة ١٩١٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٢٨٣ و ٢٩٤.

مشاركته من وقت لآخر في بعض ما كان يثار في الحياة الفكرية والأدبية من قضايا ومساجلات، ومع زهده دائمًا في الأضواء والشهرة، وعكوفه على العمل الفكري والأدبي في صمت.

وفيما يلي بيان بمراحل إصداراته الصحفية[١]:

- مجلة الحياة: صدرت عام ١٨٩٩م، ثم توقفت ١٩٠٠، وعادت للصدور سنة ١٩٠٦، ١٩٠٧، وتوقفت، ثم عادت للصدور ١٩١٤، ١٩١٥م.
- صحيفة الدستور: صدرت في ١٦ نوفمبر ١٩٠٧م – وتوقفت سنة ١٩١٠م – ثم أعيدت ١٩٢٢م.. واستمرت تصدر كجريدة أسبوعية حتى عام ١٩٣٣م.
- مجلة الوجديات: صدرت عام ١٩٢١ – ١٩٢٢م.

ولعل من أهم المحطات في مسيرته التأليفية والفكرية، ونشاطه الصحفي خلال الفترة ما بين ١٩١٠م ونهاية حياته في ١٩٥٤م: صدور عمله الموسوعي الضخم «دائرة معارف القرن العشرين» بدءًا من سنة ١٩١٠م، واتباعه للمذهب النباتي هو وزوجته اعتبارًا من ١٩١٤م، ثم إصدار كتابه الكبير «على أطلال المذهب المادي» في ثلاثة مجلدات سنة ١٩٢١م، ثم اختياره رئيسًا لتحرير مجلة

(١) أنور الجندي، محمد فريد وجدي رائد التوفيق بين العلم والدين، مرجع سابق، ص ١٩٠.

الأزهر سنة ١٩٣٣، ووقوفه مؤيدًا للشيخ المراغي في قضية ترجمة معاني القرآن، والتي استمرت معركتها ما بين ١٩٣٢ و ١٩٣٦م.

وسارت حياة العلامة الكبير - رحمه الله - على هذا النحو إلى أن وافته المنية في (٣ جمادى الآخرة ١٣٧٣هـ/ ٦ فبراير ١٩٥٤م).

٤ — قائمة بمؤلفاته المطبوعة(١)

قبل أن نورد قائمة لمؤلفات الأستاذ محمد فريد وجدي — والتي حاولنا أن تأتي منضبطة وكاملة إلى أقصى درجة ممكنة بالرجوع للمصادر المختلفة، وترجيح أصح البيانات وأدق التواريخ - لابد أولاً من الإشارة إلى أن هناك تراثًا آخر هائلاً للأستاذ محمد فريد وجدي، متناثرًا فيما كتب من مقالات بالصحف والمجلات، مما لم يجمع بعد في صورة كتب مطبوعة، وهذه المقالات ما زالت تنتظر من الباحثين جهودًا كبيرة؛ لأنها لا تقل أهمية عن كتبه المطبوعة، باعتبارها تشكل جزءًا لا

(١) رجعنا إلى عدة مصادر، مع المقارنة والتحقق من صحة البيانات وترجيح الأكثر مصداقية أو إجماعًا، وهذه المصادر هي: كتب وكتابات الحاجري والبيومي والجندي عن حياة الأستاذ فريد وجدي وأعماله، بما في ذلك ما جمع حديثًا في كتب من بعض مقالات وجدي، والأطروحتان الجامعيتان السابق الإشارة إليهما، وصفحة خصصها رابط ببليوإسلام — التابع لموقع إسلام أون لاين. نت - لبعض أعمال الأستاذ وجدي، وبعض ما نشر عن الأستاذ من مقالات وبحوث على شبكة المعلومات الدولية، ونوضح هنا أن جانبًا من الخلط أو الالتباس أو الاختلاف بين المصادر يرجع إلى عدم مراعاة صدور عدة طبعات من الكتاب الواحد، وجانبًا آخر إلى عادة صدور الكتب في ذلك الزمان في شكل ملازم أو أجزاء يتفاوت تاريخ صدورها، بينما يرجع جانب ثالث إلى أخطاء وافتقار إلى الدقة.

يتجزأ من مشروعه الفكري، وتجليات شديدة الأهمية لتطور مسيرته الفكرية، ويتضح لنا أن ما تم جمعه من تلك المقالات، كالجهد الذي قام به الدكتور محمد رجب البيومي والأستاذ طاهر الطناحي، على سبيل المثال، وعلى كثرته وأهميته واستحقاقه للثناء، لم يكن مستقصيًا وشاملاً، ولذلك يظل قاصرًا عن الإحاطة بالكثير الذي لم يجمع بعد:

١- الفلسفة الحقة في بدائع الأكوان (١٣١٣هـ/ ١٨٩٦م)، مطبعة عبد الرازق.

٢- تطبيق الديانة الإسلامية على النواميس المدنية (١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م)، المطبعة العثمانية، ثم تغير عنوانه إلى: المدنية والإسلام (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م)، مطبعة هندية.

٣- الحديقة الفكرية في إثبات وجود الله بالبراهين الطبيعية (١٣١٨هـ/ ١٩٠١م)، مطبعة الترقي.

٤- الرد على هانوتو، ط ١٣١٨هـ.

٥- المرأة المسلمة، مطبعة الترقي شارع عبد العزيز بمصر، الطبعة الأولى (١٣١٩هـ/ ١٩٠١م)، الطبعة الثانية (١٩٠٥م)، الطبعة الثالثة (١٩٢٠م)، مطبعة هندية.

٦- الإسلام في عصر العلم (١٣٢٠هـ/ ١٩٠٣م) جزء أول بمطبعة الترقي، جزء ٢ صدر (١٩٠٥م)، مطبعة الشعب.

٧- كنز العلوم واللغة (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٥م) والطبعة الثانية (١٩١٦م)، مطبعة الواعظ.

٨- صفوة العرفان في تفسير القرآن ومقدمة، طبع حجر، مصر، (١٣٢٣هـ/١٩٠٥م)، وطبع باسم «المصحف المفسر» (١٩٢٥م) (مطبعة دائرة معارف القرن العشرين)، تم طبعه بمطابع الشعب سنة (١٣٧٧هـ).

٩- اللورد كرومر والإسلام، صدر سنة (١٩٠٧م)، مطبعة الواعظ.

١٠- رسالة: سفير الإسلام إلى سائر الأقوام، نشرها ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٧م.

١١- دائرة معارف القرن الرابع عشر والعشرين الميلادي (طبعة أولى ١٩١٠-١٩١٨م) وطبعة ثانية ١٩٢٣ (عشرة أجزاء).

١٢- الوجديات: مقالات خيالية في سبيل الدين واللغة والوطنية (١٣٢٨هـ/ ١٩١١م)، مطبعة الواعظ، الطبعة الثانية (١٩٢٨م).

١٣- مجموعة الرسائل الفلسفية (الرسالة الأولى) (١٣٣٣هـ/ ١٩١٦م)، (في معترك الفلسفتين المادية والرُّوحية).

١٤- كتاب المعلمين (منهج الدراسة لوزارة المعارف) (١٣٣٥هـ/ ١٩١٨م)، مطبعة دائرة المعارف.

١٥- على أطلال المذهب المادي، (مطبعة دائرة المعارف)، ١٩٢١م، ثلاثة أجزاء.

١٦- دستور التغذي، ١٩٢١م.

١٧- نقد كتاب الشعر الجاهلي، ١٩٢٦م، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين.

١٨- الإسلام دين عام خالد، ١٩٣٢م، مطبعة دائرة المعارف، وأعادت (دار الهلال) طبعه سنة ١٩٦٢م، تحت اسم: (الإسلام: دين الهداية والإصلاح)، بتحقيق وتقديم الأستاذ طاهر الطناحي (١٩٠٢هـ/ ١٩٦٧م).

١٩- الأدلة العلمية في جواز ترجمة القرآن، ١٩٣٦م، مطبعة الرغائب.

٢٠- مهمة الإسلام في العالم: سلسلة مقالات هادفة، جمع ومراجعة وتقديم د. محمد رجب البيومي، ١٩٨٩م.

٢١- السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، (كتبه المؤلف في حياته في شكل فصول ومقالات بنفس العنوان، ولكنه لم يصدر في حياته في

شكل كتاب، بل هو مما صدر لاحقًا)، جمع ومراجعة وتقديم د. محمد رجب البيومي، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).

٢٢- فصول من سيرة الرسول ﷺ، جمع ومراجعة وتقديم د. محمد رجب البيومي، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى (شوال ١٤١٧هـ/ مارس ١٩٩٧م).

٢٣- مناقشات وردود، جمع ومراجعة وتقديم د. محمد رجب البيومي، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

٢٤- من معالم الإسلام، جمع ومراجعة وتقديم د. محمد رجب البيومي، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

٢٥- الإسلام وتحرير الفكر الإنساني: بحوث ودراسات في الدين والحياة، جمع ومراجعة وتقديم د. محمد رجب البيومي، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م).

٢٦- المستقبل للإسلام، بيروت، دار الكاتب العربي، دون ذكر التاريخ (ذكره الدكتور زكي الميلاد، والأرجح أنه مما جمع وصدر لاحقًا).

٥ – المشروع الفكري لمحمد فريد وجدي

أ- ملامح مدرسته من حيث الشكل والمنهج

– يشكل محمد فريد وجدي في رأينا مدرسة مستقلة في الفكر الإسلامي الحديث، من حيث الإطار الشكلي والمنهجي العام، فهو يتسم بالملامح التالية:

– موسوعية التأليف والاهتمامات.

– التركيز في المشروع الفكري على قضية فكرية واحدة ذات خطوط عريضة.

– توظيف الإمكانيات الثقافية والإعلامية والوظيفية المتاحة لصاحب المشروع لخدمة مشروعه الفكري.

– توازن الأصالة والمعاصرة في نموذج نادر.

– اتساق الفكر وعدم التناقض أو الفصام أو التعرض لطفرات، ولكن بارتقاء طبيعي ومنطقي ومبرر، في نضج الأفكار والتعاطي الإيجابي مع متغيرات الواقع.

– استقلال التوجه تمامًا، إنسانيًّا وسياسيًّا وفكريًّا، بل و«تمويليًّا» إذا جاز التعبير.

– أقصى درجات التسامح في الخطاب.

– تماثل القيم المعلنة مع الحياة الخاصة.

ب- من حيث السياق الموضوعي العام

- الاقتناع الذاتي التام - وإقناع الآخرين بالتالي بالإسلام كنسق فكري قادر على التعاطي مع جميع مشكلات الحياة، ومؤهل بمفرده - من خلال قيمه وأسسه العامة وأفكاره الاعتقادية وتطبيقاته التشريعية والعملية والأخلاقية - لحل إشكالية الصراع بين واقع الشرق المتخلف علميًّا وواقع الغرب المتقدم.
- مخاطبة الغرب لإعادة شرح الإسلام، ونفض الغبار الذي لحق به وسوء الفهم الذي غلف تعامل الغرب الأوروبي معه.
- تناول أسباب التخلف ونقاط الضعف الداخلي للمسلمين لمعالجتها وإصلاحها.
- محاولة وضع نظرية تثبت صلاحية الإسلام للحياة المعاصرة بكل جوانبها، وبالرغم من كل التحديات التي تمثلها.
- الانتصار لما أسماه المذهب الرُّوحي وتفنيد أسس المادية والمذهب المادي.
- محاربة البدع والخرافات والسلوكيات الخاطئة والناجمة عن تفشي الأمية والجهل، ولاسيما بين الطبقات الأكثر فقرًا، من قبيل الممارسات الصوفية الشعبية، وكثير من عادات العوام وتقاليدهم وقيمهم.

ج- أهم الملامح ورؤوس الموضوعات لقضايا المشروع الفكري لمحمد فريد وجدي

جرى العرف بين الباحثين والنقاد ومؤرخي الأدب والفكر المعاصرين على استخدام عبارة «المشروع الفكري» للدلالة على مجموع الأفكار والمبادئ والقضايا التي تبناها وناقشها، واهتم بها المفكر أو الكاتب أو الباحث، خلال مسيرة حياته وعلى مدى المحطات المهمة وذات المغزى لمؤلفاته أو كتاباته عمومًا، وهو ما يشي في الغالب - أو على الأقل كافتراض يوضع للاختبار العلمي - بخط واحد أو نسق واحد، ولو في العموميات، ينتظم تلك الكتابات جميعها.

وبتطبيق ذلك على الأستاذ محمد فريد وجدي، لا نملك إلا أن نلحظ في البداية:

- قدرًا كبيرًا من التنوع من حيث الموضوع أو القضية.
- غزارة الإنتاج الأدبي والفكري تأليفًا وترجمة.
- اتساعًا للنطاق الزمني لذلك الإنتاج، حيث استمر على مدى قرابة ستين عامًا.
- تعددًا في أوعية الكتابة إذا جاز التعبير من حيث الشكل التأليفي، ما بين فكر وإبداع، وما بين أن تكون كتابة يحتشد لها ابتداء لطرح قضية ما، أو أن تكون ردود فعل يدلي فيها بدلوه

في سياق معركة فكرية أو سجال عام، وتعددًا في نوافذ النشر ما بين كتب وموسوعات ومعاجم ومقامات، أو مقالات منشورة في صحف ومجلات.

وللحيلولة دون تكرار ما سبق ذكره ومناقشة تفصيلاته في مواضع سابقة من بحثنا هذا، لا نعيد سرد المؤلفات والكتابات، ولكن نشير إلى أنها كانت جميعها صدى للقضايا الفكرية التي تصدى لها وتحمس لبيان وجهة نظره فيها، من قبيل الهجوم الكاسح الذي شنه على الفلسفة المادية لبيان تهافتها، وتفنيد حجج الدكتور طه حسين في كتابه عن الشعر الجاهلي، وكذلك معاضدته لمشروع ترجمة معاني القرآن الذي أعلنه ودعا إليه الشيخ محمد مصطفى المراغي، ناهيك عما سبق أن أشرنا إليه من تصدي وجدي لقضية المرأة ردًّا على قاسم أمين، كل ذلك بالطبع، علاوة على قضايا عديدة تتعلق بمغالطات المستشرقين وافتراءاتهم عن الإسلام، مثلما يتجلى في ردوده للعديد منهم، مثل: هانوتو، وكرومر، وغيرهما.

وسوف نتعرض لقضية المدنية في القسم الثاني من الدراسة، الذي يتعرض لكتاب «المدنية والإسلام».

القسم الثاني: كتاب «المدنية والإسلام».. دراسة وتحليل

أولاً: مصادر بحثية حول الكتاب

بعد أن استعرضنا في القسم السابق كل ما يتعلق بالأستاذ محمد فريد وجدي في الإطار العام لحياته وآثاره ومجالات ريادته ومشروعه الفكري بشكل عام، نتعرض هنا تحديدًا لكتابه موضع الدراسة «المدنية والإسلام»، ونبدأ بالإشارة إلى أن ثمة مصادر مهمة تناولت قيمته الفكرية، من أبرزها:

- تقريظ الشيخ محمد رشيد رضا للكتاب في «المنار»، ويعقوب صروف في «المقتطف»، وجرجي زيدان في «الهلال» وغيرهم، فيما يشير إلى أن الكتاب لقي حفاوة واهتمامًا على صفحات أكبر صحف ذلك العصر ومجلاته، وبأقلام كبار الكتاب، وبعد صدوره مباشرة.
- وما كتبه المستشرق تشارلز آدامز في كتابه «الإسلام والتجديد في مصر» عن وجدي وكتابه، وهو ما ترجم ونشر بالعربية في أواسط الثلاثينيات.
- وما كتبه مثلاً في العقود الأخيرة في تحليل الدور النهضوي لوجدي عمومًا، وتحليل طرحه الخاص بقضية المدنية في كتابه، باحث كبير كألبرت حوراني في كتابه الشهير والمشار إليه سابقًا، والذي ترجم بعنوان «الفكر العربي في عصر النهضة».

- وباحث كبير آخر وهو الدكتور فهمي جدعان في كتابه المهم «أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث».
- ثم ورقة بحثية حديثة ومهمة بعنوان «الإسلام والمدنية: تقدم وتراجع فكرة المدنية في مرحلتي الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر» للباحث الأستاذ زكي الميلاد، قدمها إلى مؤتمر اتجاهات التجديد والإصلاح في الفكر الإسلامي الحديث بمكتبة الإسكندرية (١٩- ٢١ يناير ٢٠٠٩)، وتعرض فيها بالذات للكتاب الحالي «المدنية والإسلام».
- وما كتبه مؤرخو حياة وجدي وأعماله، وأبرزهم بالطبع الدكتور طه الحاجري والدكتور رجب البيومي والأستاذ أنور الجندي، ضمن تقييمهم لأهم آثار وجدي.
- وما جاء فيما أورده باحثان باللغة الإنجليزية، هما Mansoor Moaddel و Kamran Talattof في كتاب من تحريرهما نشر في ٢٠٠٢ عما سمياه «سجالات التجديديين والأصوليين في الإسلام»، حيث خصصا فصلاً لنصوص مترجمة إلى الإنجليزية من كتاب الأستاذ وجدي عن المدنية والإسلام، وما تناوله منصور معدل وحده في بحث آخر خاص به عما أسماه التعددية الاستطرادية والتجديد الإسلامي.
- ثم شذرات أخرى هنا وهناك.

وباستثناء ما ذكرناه، لم نجد الأصداء التي كان يستحقها هذا الكتاب، ولعل من أسباب ذلك عدم صدور طبعات جديدة من الكتاب - حسب علمنا - منذ الثلاثينيات تقريبًا، وهو ما يشي بتعرض الكتاب لصمت مطبق على مدى أكثر من سبعين عامًا.

ومع ذلك، فمن الواجب علينا أن نقول إنه قبل أن يقدر لطبعتنا هذه أن ترى النور، بادرت هيئة قصور الثقافة بمصر مؤخرًا وقبل اكتمال كتابة بحثنا هذا، في حالة من حالات توارد الخواطر، بتبديد هذا الصمت، وأصدرت - أثناء إعداد هذا التقديم - طبعة جديدة من كتاب «المدنية والإسلام»، في سلسلة (ذاكرة الكتابة)، بمقدمة مختصرة بقلم الأستاذ حامد أنور، وهي مصورة من طبعة سنة ١٩٣٣م، والتي كانت فيما نعلم آخر طبعة للكتاب صدرت في حياة المؤلف التي انتهت سنة ١٩٥٤م.

ثانيًا: قصة الكتاب والدافع لتأليفه

حكى الأستاذ فريد وجدي نفسه قصة تأليف هذا الكتاب في فاتحة الطبعة الأولى الصادرة في ١٨٩٨م، وبدأها بعدة أفكار ذكر أنها كانت تجيش في نفسه قبل سنوات ودفعته لتأليف الكتاب. وخلاصتها أن العلاقة بين الشرق والغرب وصلت في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر إلى درجة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ من حيث تشابك مصالح الطرفين، مما يوجب أن يتعارف الفريقان تعارفًا

يمحو ما سبق من التناكر الذي كانت نتائجه دائمًا اضطرام نيران الشقاق بينهما؛ مما يدعو إلى التقاطع المنافي لمطالب المدنية المستقبلة.

وقال إنه لابد من تفهيم الأوروبيين حقيقة الدين الإسلامي وماهيته وإثبات أنه ضامن للإنسان نيل السعادتين، وكافل له راحة الحياتين. وأما وجه كون ذلك ضروريًّا لا مناص منه فهو «أن الغربيين أصبحوا بجدهم ونشاطهم أصحاب السلطان والنفوذ على معظم العالم الإسلامي، وما داموا جاهلين بحقيقة الإسلام ومعتقدين ما يهذي به بعض كتابهم ضده، فإنهم لا يستطيعون أن يروا في ديانة محكوميهم إلا عبئًا ثقيلاً على عقولهم، وحملاً مضنيًا لمداركهم، فلا يقرونهم عليه إلا احترامًا لعواطفهم فقط، راجين من العلوم العصرية والمعارف الطبيعية القيام بتهذيبه في المستقبل».

ويضيف أن للأوروبيين عذرًا في تصديق التهم ضد الإسلام والمسلمين ماداموا لا يرون أمام أعينهم من مظاهر الدين إلا البدع التي اخترعها صغار العقول وقبلها منهم العامة، وزادوا عليها أشكالاً من الأوهام والأضاليل تنفر منها الطباع البشرية، وتنافي أصول المدنية. ويقول: «كيف نرجو أن يفهم الأوروبيون حقيقة ديننا، وأنه الملاك الوحيد للسعادات كلها حالة كونهم لا يعرفون من دين الإسلام إلا ما يرونه أمام أعينهم كل يوم مثل الصياح في الطرقات خلف الطبول وتحت الرايات، ومثل اقتراف أشد المنكرات المنافية للأدب والعقل في الموالد التي تقام في كثير من نقط القطر المصري، ومثل الاجتماع إلى حلقات كبيرة

على مرأى ومسمع من ألوف المتفرجين والصياح الشديد بالذكر مع التمايل يمينًا ويسارًا إلى غير ذلك مما لو أردنا ذكره لطال بنا الكلام وخرجنا عن المقام، فهل والحالة هذه نستطيع أن ننكر على من يعيب ديننا أن يلصق به شائنات التهم؟».

فلابد من وجهة نظره من «تفهيم العالم أجمع أن الدين الإسلامي فضلاً عن كونه بريئًا من الأضاليل التي ينسبها إليه بعض الكتبة ومنزهًا عما يفعله العامة على مرأى من المتفرجين فإنه ناموس السعادة الحقيقية، وملاك المدنية الصادقة، حتى ينبعثوا إلى احترامه ومحبته كما يحترمه ويحبه بعض الفلاسفة الكبار الذين درسوه واعتقدوه: هذا الواجب يلقى على عاتق أبناء هذه الملة الذين أسعدهم الجد بتعلم اللغات الأجنبية».

ثم يقول الأستاذ وجدي: «هذه الأفكار كانت تجيش في صدري منذ أربع سنوات وأنا إذ ذاك في سن البدء في العمل للوطن، فلم أر أفضل لخدمته من هذه الوجهة؛ فثابرت من حينها بهمة لا تعرف الملل على درس ما يؤهلني إلى فهم حقيقة الإسلام حتى آنست من نفسي بعض القوة على القيام ببعض هذا الواجب الأقدس. فابتدأت أعمالي بتأليف كتاب باللغة الفرنساوية نفيت فيه عن الإسلام كل تهمة ألصقها به المفترون، وأثبت الأدلة الحسية وبالاستناد على البَدائِه العلمية أنه روح المدنية الحقيقية، وعين أمنية النفس البشرية، ونهاية ما ترمي إليه القوة العقلية، وأن كل رقي يحصل في العالم الإنساني ليس هو إلا تقربًا إلى الديانة المحمدية. ولم أكد أنتهي من تأليفه حتى بعثتني نفسي إلى

ترجمته إلى لغتنا العربية الشريفة؛ لكي أكون قد قمت ببعض الواجبين المطلوبين في آن واحد».

وأوضح وجدي أنه بكتابه هذا يسعى لإثبات أن المسلمين أضاؤوا للبشرية أنوار المدنية، وأسسوا أركان العدل والإنسانية في جميع أرجاء الكرة الأرضية، وسادوا أغلب ممالكها بأفضل أنواع السلطة الاعتدالية. وبالجملة صارت دولتهم دولة العالم بأسره، بينما كان غيرهم يهيم في وديان الجهالة، ويضرب في ليلاء الضلالة. وأنه من المستحيل أن يكون ذلك التطور الغريب الذي دخلت فيه أمة العرب في سنين قلائل، بعد أن كان قد مضى عليها بضعة آلاف عام وهي كما هي لم تترق عما كانت عليه قِيْد شبر، قد حدث كله بدون قواعد محكمة وأسس ممدينة.

فهو في كتابه كما نرى يسعى للبرهنة على أن في الإسلام نفسه من قواعد المدنية ما لو اتبعته البشرية لحققت التقدم الكامل والسعادة المطلقة.

ثالثًا: عرض للكتاب وأهم أطروحاته الفكرية

يبدأ الكتاب، في طبعته الصادرة عام (١٩٣٣م) - وهي الأخيرة حسب علمنا في حياة المؤلف - بعدة (فواتح) كما سماها المؤلف، وهي للطبعات الثلاث الأولى منه. ويتضح لنا سبب تلك التسمية تحديدًا، عوضًا عن أن يسميها

(مقدمات)، وهو تجنب الخلط بينها وبين ما كتبه في صلب الكتاب بعد هذه الفواتح بعنوان (مقدمات).

بعد هذه الفواتح، يبدأ الكتاب بعدة فصول قصيرة تحت عنوان (مقدمات)، يضعها تحت عناوين (الإنسان)، و(تكاليف الحياة)، و(الدين والعلم)، لكي تكون تمهيدًا لحديثه اللاحق عن الإسلام ثم عن المدنية.

ونلاحظ أن المؤلف لم يوزع محتويات كتابه على (فصول) تقليدية على عادة المؤلفين، فلا هو سمى فقرات كتابه «فصولاً»، ولا هو وضع لها ترقيمًا، ولا هو بدأ كل موضوع في صفحة مستقلة، ولا وضع للكتاب فهرسًا في بدايته أو نهايته.

في (مقدمات)، تحدث فريد وجدي عما أسماه فكرة عامة عن حالة الإنسان وتكاليف الحياة ونواميس الرقي والتأخر، وكذلك عن الخلاف الناشئ من زمن مديد بين العلم والدين حتى يكون القارئ قد حصل على فكرة جيدة لما سيذكره المؤلف بعد ذلك عن أن الإسلام هو روح المدنية الحقة، وأن لا مدنية إلا به أو ببعض نصوصه.

ويقول وجدي: «وليغفر لي القراء الكرام كثرة استشهادي بأقوال علماء أوروبا فإني لم أقصد بذلك أن أستدل بكلامهم على صدق الدين.. بل قصدي أن أبرهن على أن كل النواميس الممدينة التي سادت على أوروبا في القرون

الأخيرة فنقلتها من الظلمة إلى النور ليست بالنسبة لنواميس الإسلام إلا كشعاع من شمس أو قطرة من بحر»[١].

في فصل (الإنسان)، يدعو وجدي القارئ لأن يتأمل معه الطبيعة الغريبة للإنسان الذي يتفرد عن جميع الكائنات التي توجد من حوله، بخصائص معينة هي التي أهلته للسيطرة على الكون من حوله. ويستنكر أن يكون الإنسان هو ذلك الكائن الضعيف الذي تمكن بالرغم من ضعفه الظاهري بالبقاء وسط كل عوامل الهلاك والخطورة من مناخ قاس ووحوش مفترسة، ويستنتج أن بداخله معنى أكثر عمقًا للإنسانية وهو «بحر لا يدرك غوره مسبار العقول». ويتحدث عن المخترعات التي توصل إليها الإنسان، والتي لم يكن أحد يتوهم أن ذلك المخلوق الهش الضعيف قادر عليها. كما يضرب أمثلة للتفاوت بين شخصيات بني الإنسان، ما بين عالم وجاهل، ونشيط وخامل، وشجاع وجبان، وهكذا.

ثم يستعرض بعض التعريفات الخاصة بالتفرقة بين الإنسان والحيوان، ويرفض مقولة أرسطو بأن الفارق بين الإنسان والحيوان هو النطق، ولا يرى ما رآه فلاسفة العرب من أنه التفكر بالقوة، ولا ما أرجعه كاتب فرنسي إلى التدين، بل يرى أن الفارق هو قبول الإنسان للترقي العقلي والأخلاقي إلى ما لا نهاية عكس الحيوان.

(١) محمد فريد وجدي، المدنية والإسلام، الطبعة الحالية، ص ١٧و ١٨.

ويشير إلى أن الإنسان لا يقف وحده في هذا الكون، بل خلقه خالق حكيم كان من سنته أن يرسل أنبياء يوحي إليهم بالطريقة الملائمة لعصورهم، والتي لو انتهجها الإنسان لوصل إلى سعادته من أقرب الطرق، وكان أتباع كل نبي ينقلون النوع الإنساني من حالة إلى أرقى منها، وهكذا.

ثم يتحدث في فصل (تكاليف الحياة) عن عوامل ثلاثة سلطت على الإنسان، هي الطبيعة ونفس الإنسان وبنو نوعه. ولكنه يستدرك فيقول: إن الله تعالى منحه من المواهب ما يستطيع به أن يتغلب عليها، وأنه وضع في نفس الإنسان مع مداركه الطليقة من كل القيود موانع تصدها لتردعها عن الإفراط، ودوافع أخرى تردعه عن التفريط.

ويرى أن قوام أعمال الأفراد هي عدم الغفلة عن الحق، ومعرفة قواعد العدل، واحترام النوع الإنساني بكامله.

وفيما يتعلق بالدين والعلم، يلفت وجدي الأنظار إلى أن ما أسماه (المنابذة) بين رجال الدين ورجال العلم ليست بقريبة العهد، بل تعود إلى أزمان بعيدة جدًّا، ويشير إلى أن كثيرًا من فلاسفة الأمم حكم عليهم بالإعدام بالسم أو الحديد أو النيران لمحض كونهم قاموا ينيرون عقول مواطنيهم من الأوهام التي تحط بشأن العقل. ويستعرض نماذج من أقوال فلاسفة معاصرين للبرهنة على مناوأة علماء أوروبا للأديان الموجودة. وينعى على بعضهم تعميم حكمه السلبي على الأديان

جميعًا بما فيها الإسلام مع أنهم لم يدرسوا الإسلام؛ لأنه لو درس أي منهم الإسلام كما يقول وجدي: «ولو درسًا سطحيًّا لتحقق قبل كل شيء أنه ليس فيه أسس تناقض العلم كما يتهم به سائرها»[(١)].

وتحت عنوان (ما هو الإسلام؟)، يقول: «إنا نقول بتمام الحرية وكمال الاستقلال والعلم نصيرنا والعقل ظهيرنا، إن الإسلام هو سنام الكمال الأعلى الذي خُلق الإنسان وأُعد للرقي إليه... بل.. هو أمنية النفس البشرية... وأسمى نقطة لكمالها»[(٢)].

ونلحظ هنا أنه مع احتشاد المؤلف لاحقًا لسرد حججه العقلية ومقدماته المنطقية واستشهاداته النصوصية والتاريخية للبرهنة على صحة أطروحته الفكرية في الكتاب، فإنه في هذه الأجزاء الأولى من الكتاب يسترسل فيما يمكن تسميته «ثرثرة» لفظية بحتة يمتدح فيها الإسلام بطريقة بلاغية إنشائية دون أن يشرع من فوره في المناقشة العقلية أو المحاجة الفكرية أو الطرح العلمي البحت والمركز للقضية. وهذا يدعو، من ناحية، لشيء من الدهشة حيال الحقيقة التي ذكرها هو وأجمع عليها الباحثون من أن الكتاب في نصه العربي إنما هو ترجمة لأصل فرنسي كان يتوجه فيه لأجانب غير مسلمين؛ لأن هذا الأسلوب – لو أنه هو نفسه

(١) المرجع السابق، ص ٤٠.
(٢) المرجع السابق، ص ٤٦.

الذي كان قد انتهجه في الأصل الفرنسي – قد يناسب جمهورًا من المسلمين، ولكنه بالتأكيد ليس مناسبًا ببلاغياته وإنشائياته لمخاطبة العقل الأوروبي.

كما يشي ذلك في رأينا بأمر آخر وإن يكن شكليًّا، ويتعلق بطبيعة لغة المؤلف وأسلوبه اللغوي في تلك المرحلة المبكرة من حياته، والتي يظهر فيها جليًّا أثر قراءاته العميقة الواسعة في التراث العربي القديم وتمثله للغة ذلك التراث، حيث ينهمك في استطرادات لغوية وإنشائية على مدى صفحات متوالية تدور كلها حول فكرة بعينها، دون أن يضبطها بأسلوب محاججة علمي محدد، ودون أن ينتقل لفكرة جديدة إلا ببطء وبثرثرة لفظية، فمن ذلك على سبيل المثال قوله: «نعم الإسلام هو الغاية الكمالية التي مات دون نيلها الحكماء، وفني قبل اكتناهها العلماء. الإسلام هو القانون الأقوم والناموس الأعظم الذي منّ الله به على هذا النوع الضعيف ليقيم أَوَد حالتيه، ويغنم به سعادة حياتيه، ويجعله الركن الذي يعتمد عليه ويهرع إليه في الشدائد. مَنَّ به على هذا النوع خاتمة للأديان وتاجًا على هامة الزمان، وفي الحين الذي تم فيه نمو عقل الإنسان ليكون حجة من الله على عباده تنطق بالحق وتصدع بالعدل، وترينا طريق الهدى بالحجة؛ لكي لا يكون لإنسان بعد أن بلغ رشده تَعِلَّة في رفضه ولا قوة في دحضه»[١].

وعند هذه النقطة من الكتاب وقبيل أواخر هذا الفصل، يؤكد المؤلف أنه «لن يمكن صدم تيار الإسلام بأي وسيلة كانت؛ لأنه لا فرق بين صدمه وبين

(١) المرجع السابق، ص ٤٦، ٤٧.

صدم المدنية الإنسانية»، ثم يقول في ختامه «فلنشرع الآن بعون الله تعالى في إثبات أن كل ما نقرؤه من قواعد المدنية العصرية ليست بالنسبة إلى قواعد الديانة الإسلامية إلا كشعاع من شمس أو قطرة من بحر، وأسهل سبيل يوصلنا إلى هذا الغرض هو أن نتكلم على أسس المدنية الحالية، ثم نثبت أنها بعض أسس الديانة المحمدية بطريقة واضحة جلية»[(١)].

تحت عنوان (ما هو الدين؟)، يستعرض وجدي تطور فكرة (الدين) بصفة عامة في التاريخ البشري، ثم يتناول موقف مفكري أوروبا وعلمائها من الدين، وكيف أن كثيرًا منهم في عصر المؤلف عاد للاعتراف بالدين وأهميته. ويلخص أقوالهم في أربعة أمور:

١- الاعتقاد بأن الله غني عنا وعن أعمالنا، وأن ما نعمله من الخير هو لمنفعتنا الخاصة.
٢- أن الله رحيم بالإنسان ويود صلاحه.
٣- أن العبادة يجب أن تنطبق على النواميس الثابتة للحياة وتلائم الطبيعة البشرية.
٤- العبادة الجسمية وسائل لتطهير النفوس لا أغراض مطلوبة لذاتها.

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٨.

ثم يربط المؤلف بين خلاصة آراء علماء أوروبا هذه حول الدين وبين ما جاء به الدين الإسلامي، وكعادته يقول مجددًا: إنها ليست إلا شعاعًا من الديانة الإسلامية وقطرة من بحرها الزاخر. ثم يشرع في الاستشهاد بنصوص إسلامية للتدليل على صحة ما يذهب إليه، ويورد عددًا من الآيات والأحاديث.

ويقول: «هذه هي عقيدتنا في فهم الدين. وقد رأيت أنها مطابقة للعقل والعلم تمام الانطباق، ومتفقة مع النواميس الثابتة كمال الاتفاق، ولما كانت مطاعن علماء أوروبا على الأديان لم تتوجه إليها غالبًا إلا من هذه الوجهة الرئيسية التي ينبني عليها سائر قواعد الدين، فقد حق لنا أن ننادي بأعلى صوتنا: إن الإسلام أعلى وأسمى من أن يناله سهم من سهام ذلك التنديد الشديد الشائن، وأكبر وأجل من أن يلحقه طعن الطاعن»(١).

ثم يورد المؤلف فصلاً عنوانه «الناموس الأعظم للمدنية» يوضح فيه أن تاريخ الإنسان كله حافل بالحروب والفتن والمصائب الأسرية والمفاسد الأخلاقية، ولكنها جميعًا - كما يرى - نواميس «ثانوية» تابعة لناموس أصلي هو: كل نازلة مهمة ألمت بالعالم في عصر من عصور التاريخ جلبت معها فائدة عظمى(٢).

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٣، ٥٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٦.

ويتحدث عن ضرورة «الاجتماع» التي أحس بها الإنسان بعد مقومات حياته الشخصية مباشرة، وكيف أنه مضى دائمًا في صراع بين حريته الشخصية وبين احتياجه للاجتماع بغيره، والتنازل عن بعض من هذه الحرية.

ثم يفتتح المؤلف فصلاً بعنوان «جهاد الإنسان لنيل الحرية»، قال فيه إن الإسلام جاء في وقت كانت فيه الدنيا بأسرها خاضعة لدولتين عظيمتين: هما دولة الفرس ودولة الرومان، ويشير إلى أن الأولى (الفرس) كانت القلاقل الداخلية والخارجية تزعزع بنيانها وتقوض جدرانها، وينقل عن موسوعة (لاروس) كيف أن الثانية (الرومان) كانت نظمها إجمالاً هي عين الوحشية والقسوة في صورة قوانين، فقد كانت العظمة والفضيلة في روما هي عبارة عن إعمال السوط والسيف والحكم على أسرى الحروب بالتعذيب أو بالأسر، وعلى الأطفال والشيوخ بجر عربات النصر.

ويوضح المؤلف أنه يرمي من ذلك إلى أن يرى القارئ مبلغ المدنية في ذلك الوقت عند أعظم أمم الأرض؛ ليتحقق أن كل ما سيراه «من أساسات الإسلام الطاهرة ليس بالأمر المستعار من أية أمة من الأمم الأخرى، كما عسى أن يتوهمه بعض القاصرين»[1].

(١) المرجع السابق، ص ٦٢.

ثم يختتم بالقول: إن حرية العالم المتمدن التي نشاهدها الآن على ما بها من عظم وجلالة لم تتأيد دعائمها.. إلا بواسطة ثلاث حريات.. كانت بالنسبة لها كأعمدة ثلاثة، وهي: حرية النفس، حرية العقل، حرية العلم.

ويقارن في موضوع حرية النفس بين ما كان سائدًا حتى عصور قريبة في أوروبا من نظم واعتقادات ترى أن يُسام الناس جميعًا ذل الانقياد لمن بيدهم الأمر، الذين يفرضون أنفسهم باعتبارهم وحدهم أصحاب الامتيازات العقلية والسلطوية، وعلى الجميع أن يطيعوهم طاعة عمياء، وذلك خلافًا لما جاء به الإسلام من احترام للنفس الإنسانية في ذاتها، والمساواة الكاملة بين البشر، وأن التميز يكون فقط بمعايير خلقية وإيمانية لا علاقة لها باختلاف الجنس واللون وتفاوت الثروة مثلاً، ويسوق المؤلف النصوص الإسلامية الدالة على ذلك.

وفي موضوع حرية العقل، يقرر أن أكبر خصائص الإنسان شأنًا وأعظمها أثرًا هي قوته العقلية، وأن من يسميهم مذللي النوع الإنساني لم يتربصوا لشيء من مواهب الإنسان أكثر من تربصهم لهذه الموهبة الكبرى؛ لعلمهم أنها السلاح الحاد الذي لو جُرد من غمده لم يقف أمامه شيء، فحرموا الإنسانية من أعظم خصائصها حتى صرحوا بأن استعماله في فهم ما يقولون يفضي إلى الإلحاد، فوقع الناس في ظلمة من الجهالة أفضت بهم إلى حالة من الوحشية، وكان هذا حال الأمم بينما كانت فيه أصول المدنية الحقة، وحرية العقل يمليها الحكيم العليم على خاتم أنبيائه محمد ﷺ.

وبالنسبة لحرية العلم، لم يحصر الإسلام العلم في بلد من البلدان، ولا عند طائفة من بني الإنسان؛ بل أمرنا باصطياد شوارده، حيث كانت، فرُوي عن النبي – عليه الصلاة والسلام – أنه قال: «اطلُبوا العلمَ ولو بالصِّينِ»، و«الحكمةُ ضالَّةُ المؤمِنِ يأخذُها أنَّى وجدَهَا»، فليس للمسلم أن يرفض حكمة ما بحجة كونها صدرت ممن هو مناف له اعتقادًا أو مغاير له وجدانًا، بل يكفيه باعثًا لأخذها كونها حكمة، وكونها مما يرفع شأن الإنسان، ويزيل من جهالته.

وعن الواجبات الشخصية، يبين أن الإسلام راعى أن الإنسان جسم ورُوح، وأنه لابد من تلبية ما تتطلبه كلاهما من مقومات الوجود والرضا، وأن تربية النفوس وحفظها من الأمراض وطريقة جعلها صالحة لتأدية وظيفتها لا سبيل إليه إلا بأربعة أمور: تطهيرها من أدناس الأوهام، وتهذيبها بالمعلومات الصحيحة، وتعويدها على مكارم السجايا، ثم تصحيح اعتقادها. وأفرد لكل من هذه الأمور الأربعة فصلاً خاصًّا.

وعن مطالب الجسم، يتحدث المؤلف عن حفظ الصحة، والنظافة والصحة العقلية والبدنية، وكيف اهتم الإسلام بذلك كله، ثم الواجبات العائلية بإصلاح حال الأسرة ماديًّا وأدبيًّا، ويتحدث عن مقام العمل والجد في الإسلام.

ثم يتحدث المؤلف عن واجبات المسلمين، سواء فيما بينهم، أو مع الذميين (أي أهل الكتاب الذين هم في ذمة المسلمين)، أو مع المعاهدين، أو مع المحاربين،

وفي أثناء ذلك يستطرد في الحديث عن الرق، مؤكدًا أن الإسلام حصره في دائرة محكمة، ثم أعطى للأرقاء حقوقًا ما كان أحرار الأمم الأخرى يحلمون بها.

ويقول المؤلف، مبينًا فضل الإسلام في مجال السماحة الدينية: إن الإسلام دين عام لم يجعله الله خاتمة للأديان وهو مريد به التفريق بين الأهل والعشيرة ولا بين أبناء الوطن الواحد ولا بين النوع الإنساني بأكمله؛ بل إن الرجل ليستطيع أن يكون مسلمًا وهو في عائلة كل أفرادها مخالفون له في المعتقد والمذهب، ولا تحمله تلك المخالفة على عمل شيء ضدهم على الإطلاق؛ بل يلزمه الدين بعمل واجباته بالنسبة لهم والمدافعة عن حقوقهم.

ويدلل على أن الإسلام هو الذي زرع في العرب المدنية والحضارة، حيث لم يكن أحد يتصور أن يتحول أولئك العرب الأجلاف في الصحراء إلى بناة هذه الحضارة الهائلة، بعد أن تهذبت طباعهم وارتقت أخلاقهم بالإسلام.

ويقول إن خلاصة القول هو أن دواء المسلمين الوحيد هو أن يفهموا معنى الإسلام، ويدركوا أن غرضه الأول هو ترقية حالتي الإنسان المادية والأدبية معًا لارتباطهما ببعضهما ارتباطًا كليًّا؛ لأجل أن تستطيع النفس أن تعرج إلى ما أعد لها من مقاوم العلاء عروجًا سريعًا.

ويختتم المؤلف كتابه بملحق وضعه في نهاية الطبعة الخامسة من الكتاب (التي عدها المؤلف الرابعة) الصادرة في سنة ١٩٣٣، تحت عنوان «الأصول التي

دعا إليها الإسلام». فيقول: «رأينا أن نلحق بهذا الكتاب بحثًا كتبناه بعد وضعه بنحو عشر سنين لما فيه من بيان لأصول الإسلام تحت نور العلم العصري، وهو بحث له موضعه من هذا الكتاب»[١].

وهذه الأصول هي: التخليص بين الإنسان وخالقه (بمعنى عدم وجود واسطة)، وتقرير المساواة العامة، وتقرير مبدأ الشورى في الحكومة، وتعليق السعادة والشقاوة في الحياة الأخرى على الأعمال والصفات الذاتية، لا على الشفاعات والقربات، والاعتراف بحقوق العقل والعلم، والمؤاخاة بين الدين والمدنية، وتنبيه الإنسان إلى أن للوجود الإنساني سننًا لا تتبدل، ولفت الإنسان لنظام الطبيعة، وتوجيه نظره لأسرارها الخفية، والاعتراف بحقوق ميل الإنسان وعواطفه، وتوحيد العالم في دائرة المعاملات، والاعتراف بناموس الترقي، وتقرير أن الدين شرع لخير الناس ومصلحتهم لا لتسخيرهم وإذلالهم، وحرية البحث والنظر.

وتحت هذا البند، يقول إنه إذا كان المسلمون قد وقفوا من البحث عند حدود ما اجتهد فيه الأئمة الأربعة، وقنعوا بذلك، فليس ذلك لأن طبيعة الدين الإسلامي تستدعيه، ولكن لتقصير المسلمين في النظر وقصورهم عن لحاق شأو الأقدمين في العلم، وهو تقصير وقصور رأوا نتائجهما الوخيمة، وسيرونها ماداموا ملتاثين بهما.

(١) المرجع السابق، ص ١٦٩.

ويضيف: «مما يدل على أن وقوفهم عند هذا الحد تقصير أن أولئك الأئمة الأربعة لم يُحتموا على الناس الأخذ بمذاهبهم، ولم يدعوا أنهم بلغوا الغاية مما تمس الحاجات إليه في كل زمان ومكان؛ بل اعترفوا بأن ما جاؤوا به هو أقصى ما قدروا عليه، وحظروا على متبعيهم الأخذ بما قالوا إلا بعد الفكر في أدلتهم عليه، فقال الإمام الأعظم أبو حنيفة: حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي، وكان إذا أفتى يقول: هذا رأي أبي حنيفة، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بأحسن منه فهو أولى بالصواب»[١].

رابعًا: طبعات الكتاب

الذي يظهر لنا من مختلف المصادر، وبعد مقارنة متأنية للبيانات والمعلومات، على تنافر بعضها ظاهريًّا، هو أن الكتاب صدرت منه الطبعات الآتية حتى الآن، ودون أن ندخل في القائمة طبعتنا الجديدة هذه التي هي بين يدي القارئ:

١- طبعة ١٨٩٨م (الأولى على الإطلاق)، بالعنوان القديم «تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية»، المطبعة العثمانية.

٢- طبعة ١٩٠١م (الثانية من الكتاب والأولى بالعنوان الجديد «المدنية والإسلام») مطبعة هندية.

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٨.

٣- طبعة ١٩٠٤م (الثالثة)، (عدها الأستاذ وجدي طبعة «ثانية» وكانت على نفقته الخاصة).

٤- طبعة ١٩١٢م (الرابعة)، مطبعة هندية بالموسكي.

٥- طبعة ١٩٣٣م (الخامسة)، المطبعة الرحمانية.

٦- طبعة ٢٠٠٩ (السادسة)، وهي الأولى منذ وفاة المؤلف، صدرت عن هيئة قصور الثقافة، مصورة طبق الأصل عن طبعة ١٩٣٣م.

ولابد هنا من توضيح أمر ظل موضع لبس لدى الكثيرين، وهو أن تغيير عنوان الكتاب بدءًا من طبعة عام ١٩٠١م أدى إلى خلط في ترقيم الطبعات، فبينما تعد طبعة ١٩٠٤م مثلاً هي الثالثة في تاريخ الكتاب كنص، عدها الأستاذ فريد وجدي نفسه طبعة «ثانية» باعتبار العنوان الجديد، كما لو أن طبعة ١٨٩٨م لم تعد داخلة في الحساب؛ لأنها كانت تحمل عنوانًا مختلفًا! وهكذا، كثيرًا ما تصادف الباحثين أمور يستغلق فهمها لو لم تُعامل بكثير من البحث الدقيق المضني لجلاء وجه الحق.

ويلفت نظرنا أيضًا أن الكتاب كان يعاد طبعه في كل مرة بنفس نصه الأصلي القديم، مع إضافة «فواتح» فقط للطبعات الجديدة، إلا في الطبعة الخامسة حيث شفعها المؤلف بملحق جديد في نهاية الكتاب تحت عنوان (الأصول التي دعا إليها الإسلام)، قال إنها عبارة عن بحث كتبه بعد عشر سنوات من صدور

الكتاب للمرة الأولى، ثم رأى في هذه الطبعة أن يضمها للكتاب كملحق لأهميتها وصلتها بالموضوع، ويوضح أنها «أصول الإسلام تحت نور العلم العصري».

خامسًا: أصداء الكتاب وآراء النقاد فيه

قبل أن نذكر ردود فعل الكتاب والنقاد والصحف والمجلات، سواء عقب صدوره مباشرة أو لاحقًا، وسواء في حياة المؤلف أو بعد رحيله، نشير هنا أولاً إلى ردود الفعل العملية المباشرة التي لا مجال فيها لشبهة مجاملة، وهي المتعلقة برواج الكتاب في المكتبات والأسواق، ولدى القراء والناشرين والحكومات داخل مصر وخارجها على السواء، ولدرجة تقريره أيضًا ككتاب دراسي في بعض البلدان.

فقد نفدت طبعته الأولى وصدرت بعدها طبعات متعاقبة في سنوات معدودة، كما توضح قائمة طبعات الكتاب السابق إيرادها في بحثنا هذا، ولاسيما الطبعات الأولى سنوات ١٨٩٨م و١٩٠١ و١٩٠٤م، ثم تعدى الإعجاب بالكتاب من مصر والعالم العربي - كما يذكر فريد وجدي نفسه - إلى العالم التركي ثم إلى العالم الأوروبي، «فترجمه إلى اللغة التركية بعض رجال القضاء... وقررت نظارة معارف الدولة العلية تدريسه في المدرسة الإعدادية.. ببيروت.. وترجم إلى اللغة البوسنوية.. وتنشره جريدة (بهار) بتلك اللغة تباعًا في أعدادها... وأعادت

ترجمته إلى التركية مجلة (صراط مستقيم العثمانية) وترجم إلى اللغة الأوردية بالهند ثم الفارسية بفارس ثم التتارية بالقازان»[١].

ومن أوائل الذين احتفوا احتفاء خاصًّا بالكتاب بعد صدوره الشيخ محمد رشيد رضا، وكانت الصداقة التي تجمع بين الرجلين حينئذ جيدة بصفة عامة قبل أن تشوبها شوائب كبيرة لاحقًا، (وإن كان رضا يعتب على وجدي أنه غمطه حقه وحق المنار حين لم ينوه بجهودهما في نشر الوعي، مما نرصد فيه بذرة التنافر اللاحق بين الرجلين)، حيث خصص رضا مساحة جيدة بلغت قرابة الصفحتين في بابه الثابت «تقريظات الكتب» لكتاب الأستاذ وجدي، الذي كان لا يزال على عنوانه القديم «تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية».

قال الشيخ رضا: «من الأسف أن أكثر التصانيف الإسلامية في القرون الأخيرة، أو كلها، مأخوذة من كتب المتقدمين نسخًا يشبه المسخ، وأنه لم يكن يوجد عندنا كتاب في الدين إذا عرض على متمدني هذا العصر يأخذ من قلوبهم مأخذًا يستلفتهم إلى النظر في الدين بتمثيله سائقًا لهم إلى سعادة الرُّوح والجسد على الوجه الذي يناسب زمنهم وعمرانهم، حتى قام حكيم المسلمين في هذا العصر العلامة الشيخ محمد عبده وألف (رسالة التوحيد) الشهيرة. وأمامنا الآن كتاب (تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية) الذي نوهنا به في

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣ و١٤ و١٥، والقازان مدينة على نهر الفولجا وهي عاصمة تتاريا (المنجد في اللغة والأعلام ص ٤٣١).

العدد ٣٣ من السنة الأولى لجريدتنا عند الشروع في طبعه، وذكرنا أن مؤلفه صديقنا هو القاضي الشاب الذي فاق الشيوخ أناة وكمالاً وعملاً بعمله محمد فريد أفندي وجدي»[(١)].

ويقول رشيد رضا بعد تلخيص أهم موضوعات الكتاب: «وكفى هذا الكتاب شرفًا أننا جعلناه ثاني كتاب رسالة التوحيد التي لم يؤلَّف مثلها في الإسلام قط، ولعمري إن مؤلفه الفاضل جرى على آثار الأستاذ في الرسالة أسلوبًا وبحثًا، ولا يعيبه أنه لم يبلغ شأوه بلاغةً وتحقيقًا وتحريرًا؛ فالأستاذ حكيم الأمة في هذا العصر، وأبلغ كُتاب العربية أجمعين. ومن جملة ما تبع فيه رسالة التوحيد تشبيه النوع الإنساني كله بشخص منه، وبيان أن جميع الأديان والشرائع السابقة كانت مناسبة لأطوار النوع من الطفولية ومبادئ التمييز، وأن الإسلام هو الدين الذي منَّ الله به على الإنسان عند ابتداء دخوله في طور الرشد والعقل؛ ولهذا كان آخر الأديان، على أن في الكتاب من الفوائد الكثيرة ما ليس في الرسالة، كما أن فيها ما ليس فيه، فلا يُستغنَى بأحدهما عن الآخر. ومما يمتاز به الكتاب سهولة التناول؛ فيتسنى لجميع طبقات الناس فهمه»[(٢)].

(١) انظر: محمد رشيد رضا، مجلة المنار، العدد الصادر في ١٩ ذي الحجة ١٣١٦، الموافق ٢٩ إبريل ١٨٩٩م.
(٢) المرجع السابق، العدد نفسه.

وأخذ رشيد رضا على المؤلف عدم دقته في التعامل مع الأحاديث النبوية التي استشهد بها من حيث درجة الصحة، وأرجع ذلك إلى أن وجدي لم تتح له دراسة علوم الحديث ومناهج روايته، وهو ما نوافقه نحن عليه.

ويوضح الأستاذ أنور الجندي أن الكتاب لقي منذ ظهوره تقدير الباحثين، وينقل عن الدكتور يعقوب صروف (١٨٥٢-١٩٢٧م) في «المقتطف» قوله: «إنه محاولة للتوفيق بين الأصول الدينية والحقائق العلمية، وأن غرضه منه إثبات أن كل ما تقرؤه من قواعد المدنية العصرية ليس بالنسبة إلى قواعد الديانة الإسلامية إلا كشعاع من شمس، أو قطرة من بحر، وأسهل سبيل يوصلنا إلى هذا الغرض هو أن نتكلم عن أسس المدنية الحالية، ثم نثبت أنها بعض أسس الديانة المحمدية بطريقة واضحة.. فإذا قيل لماذا لا نرى هذه المدنية في ربوع الشرق، أجابك بقوله: إن سبب ذلك هو سوء فهمنا لمعنى الدين وحمله على غير المراد منه...»[(١)].

كما وصف الدكتور صروف الكاتب الشاب بالعالم المتبحر والكاتب الواسع الاطلاع، وأنه أجاد وأفاد وجاء بغاية ما ينيله الاجتهاد.. وقال إننا نمدح المؤلف على اجتهاده، ونعترف له بالقدرة على إثبات ما قصد إثباته»[(٢)].

(١) أنور الجندي، محمد فريد وجدي رائد التوفيق بين العلم والدين، مرجع سابق، ص ١٨.
(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

وقال جرجي زيدان (١٨٦١-١٩١٤م) في «الهلال»: «أعجبنا حسن أسلوبه، وتسلسل مقدماته في الوصول إلى النتيجة المطلوبة مع اعتدال خطته»[١].

أما المستشرق تشارلز آدامز، فقد اهتم بتناول فريد وجدي عمومًا، وكتابه «المدنية والإسلام» خصوصًا، في عدة صفحات من كتابه الشهير «الإسلام والتجديد في مصر»، والذي جاء معظمه إن لم يكن كله تقريبًا بمثابة دراسة وافية وتفصيلية عن الشيخ محمد عبده ومن ظهر معه من مصلحين ومفكرين، بعد فصل قصير وضعه عن جمال الدين الأفغاني.

بعد أن يلخص آدامز أهم أفكار كتاب وجدي، ويقتبس بعض الفقرات منه، يقول إن فريد وجدي يرمي بكتابه هذا إلى أمرين: «أولهما الدعوة إلى الإصلاح، والثاني الدفاع عن الإسلام الصحيح»[٢]. ثم يقول: إننا نستطيع أن نفهم رُوح هذا الكتاب من عبارة يكثر ورودها فيه، وهي قوله: فلا قاعدة دلت عليها التجارب، ولا نظرية تأسست بشهادة المشاعر يكون لها أثر في ترقية الإنسان وتحسين بناء العمران إلا وهي صدى صوت آية قرآنية أو حديث من الأحاديث النبوية[٣].

---

(١) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٢) تشارلز آدامز، الإسلام والتجديد في مصر، ترجمة عباس محمود، لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة، ١٩٣٥، ص ٢٣٧.

(٣) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

وقد دلل فريد وجدي - كما يلاحظ آدامز - «بهذه الطريقة نفسها على أن الرق في الإسلام كان من أسمى النظم الإنسانية... وأن معاملة الإسلام لِلْمِلَلِيِّين هي أعظم مثل على تسامح أي دين مع الأديان الأخرى»(١).

ومن جانبه، يضع الأستاذ أنور الجندي كتاب «المدنية والإسلام» في سياقه من مشروع وجدي الفكري، وبالذات لأنه جاء الثاني مباشرة بعد كتابه الأول، فيقول إنه بعد كتاب «الفلسفة الحقة في بدائع الأكوان»، لم يلبث فريد وجدي أن خطا خطوة أخرى في طريقه، فأصدر كتابه «تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية». ويمضي الأستاذ الجندي فيقول إن الكتاب يضع حجر الزاوية في اتجاه فريد وجدي وفي الكشف عن الخط الذي بدأ يعمقه، فكان بذلك من أوائل من تحدثوا عن سلامة المقومات الفكرية الإسلامية، وقدرتها على البقاء والاستمرار، ودورها في إنشاء الحضارة المعاصرة(٢).

ويهتم الجندي بتركيز فريد وجدي على مهمة «المتنور الشرقي» في هذه الظروف التي كانت تمر بالعالم الإسلامي، وهو ما ندب نفسه إليه، ورأى أن على عاتقه واجبين: تفهيم العالم أجمع أن الدين الإسلامي فضلاً عن كونه بريئًا من الأضاليل التي ينسبها إليه بعض الكتبة، ومنزهًا عما يعقله العامة فإنه ناموس السعادة الحقيقية وملاك المدنية الصادقة، ومن ناحية أخرى ضرورة أن يسعى

---

(١) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٢) أنور الجندي، محمد فريد وجدي رائد التوفيق بين العلم والدين، مرجع سابق، ص ١٦.

عقلاء هذه الأمة على محو البدع التي غص بها العالم الإسلامي، وصارت نقطة سوداء في جبين الشرق(١).

ومن جانبه يقول الدكتور طه الحاجري: إن الكتاب يمثل جهدًا كبيرًا واضحًا بذل فيه، سواء في الناحية الإسلامية أم الناحية الأوروبية، «فقد استطاع مؤلفه أن يتمثل الإسلام في رُوحه وقوانينه، وفي كثير من جزئياته، تمثلاً واضحًا»(٢).

ولكن، بعيدًا عن الكتابات التي لم تتجاوز كثيرًا منطقة التقريظ، وعرض مضمون الكتاب وأفكاره والثناء على اجتهاد المؤلف وتوظيف ثقافته لنصرة الإسلام... إلخ، تلفت نظرنا كتابات أخرى أحدث زمنًا ابتغت تحليلاً نقديًّا أعمق لمنهج فريد وجدي في إثبات فرضيته الخاصة بنسبة كل ما تبلغه المدنية الغربية أو الإنسانية عمومًا إلى الإسلام وما يبتغيه للبشر.

فعلى سبيل المثال، يرى ألبرت حوراني أن فريد وجدي من «المفكرين من ذوي النزعة الجدلية الذين حرصوا على الدفاع عن سمعة الإسلام أكثر مما حرصوا على اكتشاف حقيقته وتوضيحها، أعني بها تجربة الادعاء بأن الإسلام

(١) المرجع السابق، ص ١٧.
(٢) محمد طه الحاجري، محمد فريد وجدي، حياته وآثاره، مرجع سابق، ص ٤٤.

هو كل ما يوافق عليه العالم الحديث. وبأنه ينطوي ضمنًا على كل ما يظن العالم الحديث أنه من اكتشافه»[1].

ويضرب حوراني مثالاً على هذا النوع من الكتابات الجدلية بكتاب محمد فريد وجدي «المدنية والإسلام»، ويقول: إنه من عنوان الكتاب يظهر معناه، فالمؤلف وسائر الكتاب المنتمين إلى مدرسة محمد عبده اهتموا بأمرين خطيرين ومستقلين: الإسلام حقائقه وشرائعه الموحى بها من الله، والمدنية بقوانينها المكتشفة بفضل علم الاجتماع. لكن ما العمل عندما يظهر تناقض بين الاثنين؟ وقد أجاب محمد عبده على هذا التناقض بقوله: إن المدنية الحقيقية مطابقة للإسلام. أما في كتاب وجدي، فإننا نرى تغيرًا دقيقًا في اللهجة واختلافًا في نواحي التشديد يؤديان ضمنًا إلى القول بخلاف ذلك. أي إن الإسلام الحقيقي مطابق للمدنية. فوجدي يقر أوروبا على ادعائها بأنها اكتشفت قوانين التقدم والسعادة الاجتماعيين، لكنه يذهب إلى القول بأن هذه القوانين هي أيضًا قوانين الإسلام. لكن ما هو الإسلام؟ الإسلام، في نظره، هو، قبل كل شيء وجود علاقة مباشرة بين الإنسان وخالقه، بمعزل عن توسط الكهنة واستبدادهم! ولكن ليس هذا كل الإسلام: فهو أيضًا المساواة بين البشر، ومبدأ الشورى في الحكم، وحقوق العقل والعلم، ووجود نواميس طبيعية ثابتة للحياة الإنسانية، والتطلع الفكري إلى معرفة نظام الطبيعة، وحرية المناقشة والرأي، ووحدة الجنس البشري

(١) ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩، ترجمه إلى العربية كريم عزقول، دار النهار، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٧، ص ١٩٩.

العملية على أساس التساهل المتبادل، وحقوق الإنسان في ميوله ومشاعره، والاعتراف بخير الإنسان ومصلحته كغاية نهائية للدين وكمبدأ للتقدم(١).

ويقول حوراني إنه في مثل هذه المؤلفات «يذوب» الإسلام في الفكر الحديث، إذا جاز التعبير، ويرى أن هناك آخرين كانوا أمهر في تطبيق طريقة محمد عبده، مثل الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتاب وصفه حوراني بأنه «مفعم بروح محمد عبده»، وإن كان قد صدر بعد أربعين عامًا من وفاته، وهو «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية»(٢).

ومن جانبه، يوضح فهمي جدعان أن الهجمة الغربية على الإسلام، من حيث هو تمدن أو ديانة مضادة للتمدن، قد «شحنت» الجو الفكري الإسلامي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بحمى الجدل الإسلامي/ الغربي أو الإسلامي المسيحي(٣).

ويلقي فهمي جدعان أضواء نقدية بالغة الأهمية على قصور لا يمكن إنكاره في منهج وجدي الذي اتبعه في كتابه، وذلك في سياق عرض ناصع قام به جدعان لتطور قضية إشكالية المدنية بين الإسلام والغرب في كتابات مفكري عصر النهوض، ومن بينهم بالطبع فريد وجدي، ومن بين الآخرين ممن سبقوه أو

---

(١) المرجع السابق، ص ١٩٩، ٢٠٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٠.

(٣) فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام، مرجع سابق، ص ٤٠٥.

لحقوه، جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، وخير الدين التونسي، ورفاعة الطهطاوي، ورفيق العظم، وعلي يوسف، وعبد الرحمن الشهبندر... وغيرهم.

يقول جدعان، مشيرًا إلى قول مصطفى الغلاييني (١٨٨٥-١٩٤٤م) إن «الإسلام رُوح المدنية»، وإلى قول فريد وجدي إن «المدنية الحديثة» تقترب باستمرار من «رُوح الإسلام»، إن هذين الأخيرين ومن حذا حذوهما «قد فاتهم أن هذه المدنية الحديثة التي وحدوا بينها وبين الإسلام ليست إلا (المدنية الغربية) بالذات، لا المدنية إطلاقًا، وأنها بالتالي ليست (مدنية كاملة) لا يطالها النقد أو الرد والتعديل بل حتى الرفض جملة وتفصيلاً»[١].

ومع استعراض جدعان لأطروحات وجدي في كتابه وتلخيصها تلخيصًا وافيًا، معطيًا الرجل حقه في الاجتهاد والتنظير مع قدر من السبق الزمني غير المنكور في هذه القضية الخطيرة والشائكة والعسيرة التناول، يلاحظ أن الأستاذ وجدي يؤكد «أن كل رقي يحصل في العالم الإنساني ليس هو إلا تقربًا إلى الديانة المحمدية... بل إنه ليذهب إلى أبعد من هذا حين يرى أنه لا مدنية إلا به أو ببعض نصوصه... وليس بالأمر العسير، عند محمد فريد وجدي، إثبات هذه القضية»[٢].

(١) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(٢) المرجع السابق، ص ٤٠٦.

ويضيف جدعان: «فإذا كانت كل أصول المدنية الحديثة ماثلة في أحكام الديانة الإسلامية، وإذا كانت جهود التقدم تتجه كلها نحو تحقيق هذه الصورة المثلى لحياة الرُّوح والجسد التي سبق إليها الإسلام، فإنه يكون من الحق القول إن «كل ترق يحصل في العالم، وكل خطوة تخطوها العقول في سبيل الكمال ليس إلا تقربًا إلى الإسلام»[١].

ويهتم منصور معدّل Mansoor Moaddel في بحث له بطرح وجدي في كتابه «المدنية والإسلام» ونقد حوراني له، وبالذات مسألة «تذويب» الإسلام في الفكر الحديث. ويلفتنا إلى شيء آخر، هو الميل المشابه لدى البعض لإثبات سبق مفكري الإسلام لكل ما يظهر في الغرب من نظريات أو حقائق علمية، فيقول: «إن من المفسرين من ذهب إلى أن فكرة استدارة الأرض يمكن العثور عليها في أعمال (أبي حامد) الغزالي، وأن كاتبًا يدعى أمين شميل أوجد صلة بين نظرية التطور لدى داروين وبين نظرية التطور الاجتماعي عند ابن خلدون... كما أن رشيد رضا كان من أنصار فكرة أن الداروينية لا تتناقض مع القرآن»[٢].

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٠٧ و ٤٠٨.

(٢) انظر:

Mansoor Moaddel. Discursive Pluralism and Islamic Modernism in Egypt, In: Arab Studies Quarterly (ASQ), Winter 2002, footnote 86. The link is as follows: http/findarticles.com/p/articles/mi_m2501/is_1_24/ai_93458166/pg_13

ومن ناحية أخرى، اهتم «معدل» وباحث آخر يكتب مثله بالإنجليزية في الدوريات المتعلقة بالدراسات الإسلامية، والآخر هو قمران تالاتوف Kamran Talattof، بكتاب الأستاذ وجدي في كتاب قام الاثنان بتحريره، وأوردا فيه ترجمة إنجليزية لفصل (الدين والعلم) من كتاب «المدنية والإسلام»[١].

من جانبه، يرى زكي الميلاد – وهو ما نوافقه فيه كما سيلي – أن الملاحظ بصفة عامة على موقف محمد فريد وجدي من قضية المدنية أنه «محكوم بذهنية الرغبة»[٢]، ويشرح ذلك بالقول إنه موقف تتغلب فيه الرغبة على الواقع «بشكل يكاد يغيب فيه الواقع بقوانينه وموازينه الموضوعية والتاريخية، ويمكن وصفه بأنه موقف لازمني ولاتاريخي، بمعنى أنه موقف لا يعرف له زمن، وليست له حدود زمنية، ومن جهة كونه لاتاريخي، بمعنى أن حركة التاريخ تحكمها السنن والقوانين وليس الرغبات والتمنيات»[٣].

---

(١) انظر:

Religion and Science: Excerpt from Muhammad Farid Wajdi. *Al-Madaniyah wa al-Islam*. Egypt: Matba›at Hindiyah, 1901, pp.23-47, translated by Christine Dykgraaf and Kamran Talattof, In: Moaddel, Mansoor, Talattof, Kamran, Modernist and Fundamentalist Debates in Islam, A Reader, Palgrave Macmillan, New York, 2002

(٢) زكي الميلاد، الإسلام والمدنية، تقدم وتراجع فكرة المدنية في مرحلتي الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر، بحث في مؤتمر «اتجاهات التجديد والإصلاح في الفكر الإسلامي الحديث»، مكتبة الإسكندرية، ١٩ – ٢١ يناير ٢٠٠٩، ص ١٤.

(٣) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

سادسًا: رأينا في رؤية فريد وجدي للمدنية

الواقع أن الانتقادات الموجهة لمنهج وجدي في كتابه وطريقته للبرهنة على موافقة الإسلام للمدنية، وبالذات فيما يعكس رؤيته الخاصة للمدنية، والتي عبر عنها كل من ألبرت حوراني وفهمي جدعان وزكي الميلاد، تغرينا بمزيد من الوقوف لتوصيف ما قام به وجدي في كتابه، ووضع قضيته في الميزان بما لها وما عليها.

ونحن هنا مطالبون في رأينا بالفصل بين أمرين: الأول الجهد المشكور لفريد وجدي في التدليل على اشتمال الإسلام، من خلال نصوصه الرئيسية، على المبادئ الأساسية المطلوبة لقيام مدنية إنسانية راقية، ولا نعتقد أن ذلك الجانب من كتاب وجدي يلقى أي نوع من المعارضة أو التفنيد، وهو في رأينا أقوى ما في الكتاب ويعكس قيمته الحقيقية الباقية حتى الآن، والثاني يتمثل في حل الإشكالية الخاصة بكيف انحدر العالم الإسلامي إلى هاوية من التدهور العلمي والحضاري، بل والأخلاقي أيضًا، وهو مازال عنده الإسلام بكل نصوصه المضيئة ومبادئه المشرقة، والنصوص هي النصوص.

في ذلك الجانب الثاني، وهو في رأينا عين المشكلة والقضية، لا يفيدنا وجدي كثيرًا، ومعه مفكرون آخرون أيضًا، إلا بعموميات من قبيل أن ذلك التدهور حدث عندما تخلى المسلمون عن مبادئ دينهم، مع أنه كان منتظرًا منه

أن يضع أيدينا على تطورات محددة أدت إلى هذا التحول الخطير. وفي رأينا أن الجانب التطبيقي التاريخي غائب بدرجة كبيرة عن أمثال هذه الدراسات، فالأجدى في رأينا من إنفاق آلاف الصفحات جيلاً تلو جيل للتدليل النظري على عظمة الإسلام وجلال مثله وقيمه، والاكتفاء بالاستشهاد بالنصوص، وهو ما نسلم به، أن ننزل إلى ساحة التاريخ الإسلامي، فنرصد محطات التراجع عن قيم الإسلام وما أدت إليه من بدايات التدهور، بحيث يكون الترتيب العكسي للأحداث كفيلاً، ولو من الناحية النظرية، بالعودة تدريجيًّا إلى ذلك الجانب الإيجابي في حياة المسلمين، حيث التناغم بين النظرية والتطبيق العملي.

شيء آخر نرصده في منهج وجدي ولا نعتقد أننا نوافقه عليه، مع موافقتنا على جدوى الإسلام ذاته واشتماله على مقومات المدنية وبواعث النهضة، هو ما يمكن أن نعتبره ضربًا من «المثالية الغامضة» لدى الأستاذ وجدي.

وهذه المثالية الغامضة تعبر عنها عبارات له كررها في كتابه عشرات المرات، لدرجة أن جميع من تصدوا لكتابه بالعرض والنقد لم يجدوا سواها للاقتباس وتشخيص رؤيته، من قبيل أن كل ما تصل إليه أو يمكن أن تصل إليه مدنية الغرب من تقدم وازدهار سوف يكون بالضرورة في النهاية هو عين ما يقول به الإسلام.

والواقع أننا لا نعتقد أن هذا الأسلوب في المحاججة هو الأفضل في الإقناع حتى للمسلمين أنفسهم، ناهيك عن غير المسلمين، بل لا نرى أنه صحيح على الإطلاق. فلا يمكن أن نقول للغرب ونحن نقنعه أن لدينا نحن المسلمين أفضل مما لديه من مقومات المدنية وأصول التقدم: ابذل أنت كل ما في مقدورك من عمل وجد واجتهاد وسعي وأخذ بالأسباب، ثم اعلم بأن جميع ما سوف تصل إليه في النهاية إنما هو عين ما نصح به الإسلام، بل أكثر من هذا، أنه لن يكون بالقياس إلى الإسلام، سوى شعاع من شمس أو قطرة من بحر، كل هذا والمسلمون قاعدون لا يفعلون شيئا!

فالصحيح أن جميع ما ستصل إليه حضارة أوروبا سيكون ثمرة لعلوم أوروبا ونشاطها العقلي وحركتها في الحياة، ولا علاقة لذلك بالإسلام من قريب أو بعيد، من ناحية لأن مدنيتهم هذه لن تقتصر على الطيب؛ وإنما ستشمل الخبيث أيضًا؛ لأنه اجتهاد بشري، فقول فريد وجدي هنا سوف يحمل الإسلام عبء أخطائهم دون أن تكون أخطاء الإسلام، ومن ناحية أخرى لأنهم لم ينبعثوا في مسيرة نهضتهم هذه من مبادئ إسلامية خالصة لأنهم ليسوا مسلمين، حتى ولو تصادف أن اقتبسوا من الإسلام بعض مبادئه، وحتى لو تصادف اتفاق بعض مبادئهم وقيمهم مع بعض مبادئ وقيم الإسلام!

فهذه الفكرة الخيالية المثالية الغريبة من فريد وجدي «تصادر» كل مساعي البشر في الحضارة الغربية، بل الحضارات الأخرى أيضًا بالضرورة، لصالح

الإسلام مسبقًا، دون أن يفعل المنتمون للإسلام نفسه أي شيء؛ وإنما سيكونون في انتظار الثمرة لمشاركة الآخرين فيها دون وجه حق، بدعوى أن هذا الذي وصلتم إليه ليس سوى عين ما يأمر به ديننا!

وهذه الفكرة تذكرنا، مع الفارق طبعًا، ومن حيث فقط طريقة التفكير، بقصة «حي بن يقظان» المعروفة في تراثنا الإسلامي، والتي تناولها عدد من كبار الفلاسفة، أشهرهم ابن طفيل وابن سينا، وكذلك ما طرحه ابن النفيس في «الرسالة الكاملية في السيرة النبوية»(١) عمن أسماه «فاضل بن ناطق»، من حيث افتراض أو تخيل أنه لو أن إنسانًا نشأ بمفرده لظروف معينة فسوف يصل بالضرورة وبحكم الفطرة والعقل فقط، وبعيدًا تمامًا عن النقل أو الوحي أو مساعدة آخرين، إلى كل ما قال به الإسلام أو جاء به الوحي!

ولا ندري إذا كان عكوف فريد وجدي الشديد على قراءات فلسفية في تلك الفترة المبكرة من حياته ومسيرته التأليفية - مع مراعاة تكوينه الشخصي المثالي من حيث الأخلاق والمبادئ إذا جاز التعبير، ومع اقتناعه الشديد بالإسلام وحماسته له وتصديه للدفاع عنه، ومع مراعاة سنه الغض آنذاك - له علاقة بهذه الفكرة التي تبناها في كتابه، ولكن المؤكد أن ذلك الاتجاه الذي

(١) انظر: علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي (ابن النفيس)، الرسالة الكاملية في السيرة النبوية، تعليق وتحقيق عبد المنعم محمد عمر، مراجعة أحمد عبد المجيد هريدي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م).

انتهجه في كتابه نال من فكرته الرئيسية وانتقص منها وأضعفها بدلاً من أن يقويها ويدعمها، بحيث لم يتبق من محاججته سوى ذلك الجانب التنظيري المجيد والعظيم والمثير للثناء والإعجاب حقًّا من حيث حشد النصوص وبعض حوادث التاريخ لبيان حقيقة الإسلام كعقيدة وتميزه كشريعة. أما حل إشكالية لماذا تأخر المسلمون وعندهم كل هذه القيم وتقدم الأوروبيون دون أن يكونوا مسلمين؟ فلم يكن كتاب فريد وجدي في هذه النقطة من الإسهامات المؤثرة أو المقنعة لافتقاره للتطبيق التاريخي الكافي، ولاعتماده بدلاً من ذلك على تلك المقولة الافتراضية المثالية المشار إليها، واعتماده على البلاغيات الإنشائية أساسًا في المحاججة.

وصفوة القول أن فريد وجدي لم ينظر إلى المدنية على أنها مسعى بشري محض - حتى ولو استرشد واهتدى بمثل دينية وقيم أخلاقية - وأن هذا المسعى يتفاضل فيه البشر وتتفاوت فيه المجتمعات، وأنه شيء «تاريخي بالضرورة» و«إنساني بالضرورة»، وفيه «رُوح التجربة»، ويعكس اختلافات، وليس جوهرًا واحدًا بعينه، ولكنه بدلاً من ذلك نظر إليها - خالطًا في رأينا بينها وبين العقيدة الدينية الثابتة والموحى بها أو الأسس التي تقوم عليها المدنية وهي بالتأكيد غير المدنية ذاتها - على أنها «نموذج» أو «مثال» له صورة واحدة، تجاهد البشرية كلها دون كلل لبلوغه والوصول إليه، وأن الإسلام سبق في رسم معالم هذا المثال؛ ولذلك فكل ما سيصل إليه الآخرون، مع افتراض أنه سيكون حسنًا وجيدًا بالضرورة، سيكون هو نفسه عين ما ينادي به الإسلام!

إلا أنه من الإنصاف أن نذكر أن فريد وجدي طور رؤيته تلك إلى المدنية بمرور الزمن، وبحكم نضوج ثقافته ورؤاه إجمالاً، وعبر عن ذلك في كتابات أخرى لاحقة تناولت فكرة المدنية، ومن ذلك ما ذكره في «دائرة معارف القرن العشرين» من أن المدنية الغربية حافلة بأمراض جوهرية وعيوب، ولكن ذلك لا يعني قرب زوالها بالضرورة؛ لأن بها من عوامل المقاومة ما يمكنها من التغلب على هذه الأمراض...»[(١)]. كما أصبح يرى أن المدنية أمر لابد فيه من التفاعل بين حضارات مختلفة، وليس صورة مثالية بعينها يسعى الجميع لبلوغها، فقال: «إن الأولى بمسلمي الشرق السعي لتكميل المدنية الأوروبية؛ فإنها محصول جهود لا تحصى، لآبائهم منها حظ وفير، بل لا يزال لهم فيها آثار مطبوعة بطابعهم»[(٢)].

---

(١) انظر: فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام، مرجع سابق، ص ٤١٠، ناقلاً عن: محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن الرابع عشر (العشرين)، المجلد الثامن، الطبعة الثانية، (١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م)، ص ٥٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٤١٠.

المَدَنِيَّةُ والإسـلام

تأليف

محمد فريد وجدي

طُبع لأول مرة في عام (١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م) تحت عنوان «تطبيق الديانة الإسلامية على النواميس المدنية»، ثم أُعيدت طباعته عام (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م) تحت عنوان «المدنية والإسلام».

فاتحة
أنشئت للطبعة الأولى سنة ١٨٩٨[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف/ ٤٣]، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران/ ٨]، ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ . رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران/ ١٩٢-١٩٤]. وصلّ اللهم وسلم على سيدنا محمد الذي اجتبيته من بين خلقك لأن يكون مستودَعًا لأسرارك وناشرًا لتعاليمك وواسطة بينك وبين عبادك، يهديهم بنورك الأقدس إلى سعادتهم الدنيوية والأخروية. ربنا أسبغ عليه حلل تكريمك وتشريفك، وبلغه المقام المحمود الذي وعدته به، وألهمنا السير على هديه وهَدْي أصحابه، وهبنا

(١) ورد في نهاية الطبعة الأولى (طبعة المطبعة العثمانية) أنه طبع في (١٨ ذي القعدة ١٣١٦ هـ) أي (٢٩ مارس ١٨٩٩م). (هذا الهامش يشير إلى إضافة مراجعي مكتبة الإسكندرية للنص الأصلي للكتاب، وسوف يُستعمل الرمز (م) لاحقًا للإشارة إلى ذلك).

اللهم نورًا نفهم به ما أوحيت إليه من محكم كلامك وجليل خطابك؛ حتى نستوجب رضاءك ونستحق نعماءك، واهد اللهم مثل هذه الصلاة والسلام على آله وأصحابه وتابعيه إلى يوم الدين، إنك سميع الدعاء واسع العطاء، آمين.

أما بعد...؛

فإنه لا يخفى على كل شرقي الآن أن العلاقة بين الشرق والغرب قد وصلت خصوصًا في الجزء الأخير من هذا القرن إلى درجة لم يسبق لها مثيل في التاريخ، وأن مصالح الطرفين قد تشابكت تبعًا لذلك تشابكًا يوجب أن يتعارف الفريقان تعارفًا يمحو ما سبق من التناكر الذي كانت نتائجه دائمًا اضطرام نيران الشقاق بينهما، مما يدعو إلى التقاطع المنافي لمطالب المدنية المستقبلة. نعم إن الاتصال بين الشرق والغرب أصبح عظيمًا وسيأخذ في التزايد يومًا بعد يوم حتى تصير بلاد المشرق كلها عبارة عن معرض عام تعرض فيه أنواع البضائع والصناعات، ويحضره الناس من كافة الملل واللغات، ونحن هنا لا نريد أن نبحث فيما إذا كان في هذا الامتزاج الشديد مضرة لأحد الطرفين أو فيما إذا كان مفيدًا لكليهما، بل ذلك مما لا دخل فيه لكتابنا هذا، ولكنا نريد فقط أن نقوم بعمل خاص لا مناص منه على كل حال.

ما هو ذلك العمل؟ وما وجه كونه ضروريًا لا مناص منه؟ ذلك العمل هو تفهيم الأوروبيين حقيقة الدين الإسلامي وماهيته، وإثبات أنه ضامن للإنسان

نيل السعادتين وكافل له راحة الحياتين. وأما وجه كونه ضروريًّا لا مناص منه فهو أن الغربيين أصبحوا بجدهم ونشاطهم أصحاب السلطان والنفوذ على معظم العالم الإسلامي، وما داموا جاهلين بحقيقة الإسلام ومعتقدين ما يهذي به بعض كتابهم ضده، فإنهم لا يستطيعون أن يروا في ديانة محكوميهم إلا عبأً ثقيلاً على عقولهم وحملاً مضنيًا لمداركهم؛ فلا يقرونهم عليه إلا احترامًا لعواطفهم فقط، راجين من العلوم العصرية والمعارف الطبيعية القيام بتهذيبه في المستقبل.

نقول بتمام الحرية إن الأوروبيين معذورون في تصديق التهم ضد الإسلام والمسلمين، ولهم الحق في العمل ضدها ماداموا لا يرون أمام أعينهم من مظاهر الدين إلا البدع التي اخترعها صغار العقول، وقبلها منهم العامة، وزادوا عليها أشكالاً من الأوهام والأضاليل، تنفر منها الطباع البشرية وتنافي أصول المدنية. كيف نرجو أن يفهم الأوروبيون حقيقة ديننا وأنه المِلاكُ الوحيد للسعادات كلها حالة كونهم لا يعرفون من دين الإسلام إلا ما يرونه أمام أعينهم كل يوم مثل الصياح في الطرقات خلف الطبول وتحت الرايات، ومثل اقتراف أشد المنكرات المنافية للأدب والعقل في الموالد التي تقام في كثير من نقط القطر المصري، ومثل الاجتماع إلى حلقات كبيرة على مرأى ومسمع من ألوف المتفرجين والصياح الشديد بالذكر مع التمايل يمينًا ويسارًا، إلى غير ذلك مما لو أردنا ذكره لطال بنا الكلام وخرجنا عن المقام؟ فهل والحالة هذه نستطيع أن ننكر على من يعيب ديننا أو يلصق به شائنات التهم؟ أليسوا

معذورين في هذا الفهم السيئ مادام يحضر هذه المنكرات ويتفرج عليها عقلاء هذه الأمة بدون أن يجدوا في أنفسهم ميلاً إلى رأب هذا الصدع المتفاقم الذي لم يقتصر على جرّ عوامِّنا إلى المنكرات والآثام فقط، بل إلى الإخلال أيضًا بعقيدة التوحيد النقية، وهو الأمر الذي لو تأصلت جذوره في العقول البسيطة صَعُب جدًّا اقتلاعه منها؟

أما والعلم لو بحث باحث عن علل هذا الهبوط الهائل الذي وقعنا فيه بعد ذلك الصعود السريع ما وجدها إلا في ترك السنن واتباع البدع، ولو كان المجال أوسع من هذا لأرينا المُطَالِع أن البدعة الواحدة قد يتبعها جملة عوامل بشرية لا يراها إلا من ينظر للأشياء بمنظار العلم، وأن هذه العوامل متى رسخت قواعدها وثبتت دعائمها انبنى عليها داء من أدواء الأمم، تظهر أعراضه وآثاره لكل مشاهد، ولو كان هو نفسه كامنًا كمون الأرقم[١] في جحره، ولا يظهر إلا ريثما يؤانس ممن حوله العجز عن ملاشاته[٢].

لهذه الأسباب كلها صار الشرقي المتنوّر ملقى على عاتقه واجبان: **أولهما**: تفهيم العالم أجمع أن الدين الإسلامي فضلاً عن كونه بريئًا من الأضاليل التي ينسبها إليه بعض الكتبة ومنزهًا عما يفعله العامة على مرأى من المتفرجين، فإنه ناموس السعادة الحقيقية وملاك المدنية الصادقة، حتى ينبعثوا إلى احترامه ومحبته كما يحترمه ويحبه بعض الفلاسفة الكبار الذين

(١) الأرقم: حية خبيثة، مُرَقَّمة بسواد وبياض. (م).
(٢) ملاشاته: إفنائه وقتله. (م).

درسوه واعتقدوه. هذا الواجب يُلقى على عاتق أبناء هذه الملة الذين أسعدهم الجَدُّ[١] بتعلم اللغات الأجنبية.

ثانيهما: أن يسعى عقلاء هذه الأمة في محو البدع التي غُصَّ بها العالم الإسلامي، وصارت نقطة سوداء في جبين الشرق وموضوع استهزاء كل من عنده مُسْكَة من العقل[٢]: هذا الواجب أشد ضرورة من الواجب الأول وعليه يُبْتنى صلاح هذه الأمة وقوامها، فعسانا نلتفت إليه قبل أن يستفحل الداء ويعز الدواء، وإلا فالعاقبة وخيمة والعهدة عظيمة. قال عليه الصلاة والسلام: «لَتَأْمُرُنَّ بالمعروفِ ولَتَنْهَوُنَّ عن المنكرِ أو لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ عليكم فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيلِ المُظْلِمِ تَدَعُ الحليمَ حيرانَ».

هذه الأفكار كانت تجيش في صدري من منذ أربع سنوات وأنا إذ ذاك في سن البَدْء في العمل للوطن، فلم أر أفضل لخدمته من هذه الوجهة؛ فثابرت من حينها بهمة لا تعرف الملل على درس ما يؤهلني إلى فهم حقيقة الإسلام؛ حتى آنست من نفسي بعض القوّة على القيام ببعض هذا الواجب الأقدس، فابتدأت أعمالي بتأليف كتاب باللغة الفرنساوية نفيت فيه عن الإسلام كل تهمة ألصقها به المفترون، وأثبت بالأدلة الحسية وبالاستناد على البدائه العلمية أنه رُوح المدنية الحقيقية، وعين أمنية النفس البشرية، ونهاية ما ترمي إليه القوّة العقلية، وأن كل رقيّ يحصل في العالم الإنساني ليس هو إلا تقربًا إلى الديانة

(١) الجَدّ: الحظ. (م).
(٢) مُسْكَة من العقل: بقية من عقل. (م).

المحمدية. ولم أكد انتهي من تأليفه حتى بعثتني نفسي إلى ترجمته إلى لغتنا العربية الشريفة؛ لكي أكون قد قمت ببعض الواجبين المطلوبين في آن واحد.

على أني كلفت نفسي تجشم المصاعب في هذا العمل لا بقصد اتخاذ اشتغالاتي فيه تسلية لي على ما أضعت من وظيفة أو شهرة، كلا بل غرضي الوحيد من هذا العمل هو إقامة الحجج العلمية على أن دين الإسلام ليس بالدين الذي يتناساه ذووه أو يلوي الكَشْح عنه[١] متبوعه، وأنه ليس بالدين الذي تعارضه العلوم العصرية والحقائق الفلسفية، بل هي مما تزيده تثبيتًا وتمكينًا وتزيد متبعه إيمانًا ويقينًا، وأنه كان يجب أن يجد من طلاب العلوم الجديدة أنصارًا أولي قوة ومكانة، لا أن يرى منهم إعراضًا وابتعادًا يدلان الرائي على ما الإسلام بريء منه وبعيد بعد السماء عنه.

قد كفى المسلمين إعراضًا عن دوائهم وإغْضَاءً على دائهم[٢]، فلا يكونوا كالأبله الذي يحمل الدِّرياق[٣] الشافي في رُدْنِه[٤] فيغفل عنه، ثم يفغر فمه منتظرًا أن تمطر عليه سحائب الأوهام من سماء الأحلام غيثًا يطهره مما به ويشفيه من أَوْصَابه[٥]. أليس بعار على متنوري هذه الأمة أن تبقى حقائق دين الله مختبئة في مكاتبهم في مطاوي مجلداتها وهم مغرورون بزخارف أفكار

(١) يلوي الكَشْح عنه: يُعرض عنه، والكشح: ما بين السُّرَّة ووسط الظهر. (م).
(٢) إغْضَاءً على دائهم: سكوتًا وصبرًا عليه. (م).
(٣) الدرياق: هو الترياق، وهو دواء السموم. (م).
(٤) رُدْنِه: طرف كُمِّه، والمقصود: يملك دواءه. (م).
(٥) أَوْصَابه: أوجاعه. (م).

البشر مما يسمونه بالنظريات الفلسفية حالة كون النسبة بين هذه الأفكار كلها وبين ما لديهم من آيات الحكمة التي أسدلوا عليها أستار النسيان أكبر بما لا يقدر مما بين أفكار الصبيان وبين أفكار حكيم مارس الأيام وخَبُر الأنام وعاش مائتي عام؟ ألا تتوق نفس شرقي متنور إلى الوقوف على ذلك السر الأعظم والناموس الأقوم الذي ساد حينًا قصيرًا على سكان جزيرة العرب على ما كان بهم من شَظَفٍ[١] ووحشية فأخرجهم من ظلمات الجهالة والرذائل إلى أنوار المدنية والفضائل؟ ما فائدة العلوم إذا لم تحبب إلينا معاشر شبان المشرق أن نَكْتَنِه[٢] هذا السر العجيب والتطور الغريب الذي لو طبقناه على ما لدينا من المعارف المدرسية لا نستطيع أن ندركه ولو بوجه عام؟ هل فيما قرأناه من التاريخ ما يدلنا على إمكان تطور أمة بأسرها وانتقالها من حالة الوحشية إلى المدنية في مدة لا تتجاوز ربع القرن؟ اللهم لا.

ما هو ذلك التطور المدهش الذي دخلت فيه الأمة العربية في مدة ثلاث وعشرين سنة؟ هل هو أمر عادي يستطيع الإنسان أن يدرك سره ويكتنه أمره بجولة فكرة أو إلقاء نظرة؟

كانت الأمة العربية قبل الإسلام كما يعلمها كل إنسان منقسمة إلى قبائل عديدة وفصائل شتى، كلها متوارثة الأحقاد والضغائن، متأصلة

(١) شَظَف: شدة وضيق. (م).
(٢) نكتنه: نبلغ حقيقته وجوهره. (م).

الإِحَن[1] والدفائن، واقعة فيما بينها في حروب دموية وغارات جاهلية، لا وحدة تلم شَعَثهم[2] ولا جامعة توحد كلمتهم، وكانوا واقعين من جهة التدين في أخس أنواع الوثنية، ومن جهة العادات في أشدها بعدًا عن الحياة المدنية، فلا قانون يصلح من حالهم، ولا قاعدة يبنى عليها ضمان استقبالهم. وبالجملة كانوا بمكان من الاختلال والفاقة وسوء التربية تخطاهم فيه كل الملوك الفاتحين مثل بُخْتُنَصَّر وقيروش والإسكندر وغيرهم. فماذا كان من أمرهم بعد بعثة سيد الأنام ﷺ بنحو بضع وعشرين سنة؟ كان من أمرهم أن توحدت كلمتهم واتحدت وجهتهم وَوُجِدَ فيهم قانون يضمن تهذيبهم ويكفل رقيهم، وتركوا جميعهم عادات آبائهم التي توارثوها وألفوها حتى كادوا أن يعبدوها، وخرجوا من ظلمات الوثنية إلى أنوار العقيدة التوحيدية، وقاموا من وسط وِهادِهم ونِجَادهم[3] يحملون للخافقين[4] أنوار المدنية، ويؤسسون أركان العدل والإنسانية في جميع أرجاء الكرة الأرضية، وسادوا أغلب ممالكها بأفضل أنواع السلطة الاعتدالية. وبالجملة صارت دولتهم دولة العالم بأسره، بينما كان غيرهم يهيم في وديان الجهالة ويضرب في ليلاء الضلالة.

هذا هو التطور الغريب الذي دخلت فيه أمة العرب في سنين قلائل بعد أن كان قد مضى عليها بضعة آلاف عام وهي كما هي لم تترقَّ عما كانت عليه قِيْدَ شبر. هل بعد هذا يصح أن يتصور عاقل أن هذا الرقي السريع كله

(١) الإحن: الأحقاد والضغائن، مفردها: إحْنة. (م).
(٢) شَعَثهم: تفرقهم. (م).
(٣) وهادهم ونجادهم: أماكنهم المنخفضة والمرتفعة. (م).
(٤) للخافقين: للمشرق والمغرب. (م).

حصل بدون قواعد محكمة وأسس مُمَدْيَنَة؟ وهل بعد هذا يصح أن يتصور عاقل أن تلك القواعد والأسس تشابه ما لفظه أمثال أرسطو وليكورج وسولون من الحِكم البسيطة والقواعد التي لو أصلحت اليوم شيئًا أفسدت في الغد أشياء كثيرة؟ كلا. اللهم إن المسلمين عن أسرار دينهم لمحجوبون، وعن بدائعه للاهون؛ فهبهم اللهم ميلاً إلى ترييض نفوسهم في حقائق دينك السرمدي وقانونك الأبدي، وهب اللهم بصائرهم قوة تمتعهم من دينهم بما متعت به آباءهم الأقدمين، إنك رحيم بالمؤمنين.

وهبني اللهم من الثبات والجَلَد في هذا الموقف الحرج ما يسد خَلَّة عجزي وقصوري عن الخوض في مثل هذا العُباب[1] العظيم حتى أؤدي لأبناء وطني خدمة هي أمسّ بحياتهم من كل ما عداها، وأصلح لرقيِّهم من كل قاعدة سواها، واجعل اللهم عملي هذا خالصًا لوجهك الكريم، نافعًا لأمة نبيك الفخيم، إنك واسع عظيم. آمين.

---

(١) العُباب: الموج العالي الصاخب. (م).

فاتحة الطبعة الثانية
التي نشرت سنة ١٩٠٤

أما بعد...؛

فهذه الطبعة الثانية لكتابنا (تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية) الذي سلكنا في تأليفه مسلك التحليل العلمي والاستقراء الفلسفي على قدر ما سمحت لنا وسائلنا وقوانا أمام هذا الموضوع الذي تصغر أمامه أكبر العزائم، وتضؤل حِياله أقوى المدارك، وإنَّا لنحمد الله على أن أَوْلانا جزاء جهادنا فيه نفحة من مراحمه، ظهرت آثارها في قبول الأمة له بالحفاوة، وتلقيها له بالتحبيذ والإطراء، وقد تعدى الإعجاب به من العالم العربي، إلى العالم التركي، ثم إلى العالم الأوربي؛ فترجمه للغة التركية بعض رجال القضاء، ولكنه لم يستطع طبعه لبعض الموانع التي لا تلبث أن تزول إن شاء الله، وقررت نِظارة معارف الدولة العَلية تدريسه في المدرسة الإعدادية الكلية ببيروت، وألقت عهدة ذلك إلى رجل من رجال المعارف السوريين المشهورين بالفطنة والدراية، ولم نعهد حصول مثل هذه المَزِيَّة لكتاب عصري عربي فيما نعلم.

أما سريان هذا الأثر إلى العالم الأوربي، فقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللغة البوسنوية بواسطة أحد العلماء المدرسين في مدارسها، وتنشره جريدة (بهار) بتلك اللغة تباعًا في أعدادها من هذه السنة، وعَدَا عن[1] هذا؛ فقد سرى صيت هذا الكتاب شرقًا وغربًا، وطاف أكثر ممالك الإسلام، ولم ينته بعد من جولته كما يتبين لنا من توالي طلبه، وهو اليوم أسرع انتشارًا مما كان عليه من قبل، مما يدل على المستقبل الكبير الذي أُتِيَهُ هذا الكتاب، وهذا كله أثر من آثار تلك الرحمة الإلهية التي كافأت عجزنا وقوّت ضعفنا ونفعت به إخواننا، زادنا الله وإياهم شعورًا بالحق، وطلبًا للصدق، وجمعنا على كلمته العليا، وصلى الله على رسوله نبي الرحمة، محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) عَدَا عن: تجاوز. (م).

فاتحة الطبعة الثالثة

ليس لدينا ما نزيده على ما قدمناه في الطبعتين الأولين، إلا أن هذا الكتاب أعادت ترجمته إلى التركية مجلة (صراط مستقيم العثمانية) وتُرجم إلى اللغة الأوردية بالهند، ثم إلى الفارسية بفارس، ثم إلى التتارية بالقازان. وقد لقي هذا المُؤَلَّف في كل قطر حَلّه عناية وإقبالاً.

وقد رأينا أن نعيد طبعه للمرة الثالثة، وفي ذلك دليل محسوس على ما صادفه هذا الكتاب من الناطقين بالضاد، ثم شرعنا في طبعه للمرة الرابعة، والله نسأل أن يوفقنا لمراضيه، ويهدينا المحابِّه، إنه ولي الكفاية.

مقدمات

قد رأينا أن نمهد الكلام على الإسلام بمقدمات ضرورية جدًّا، تنشئ للمُطالع فكرة عامة على حالة الإنسان وتكاليف الحياة ونواميس[1] الرقي والتأخر الذي تتجاذبه، وطبيعة النظامات التي تنازعت السلطة على الإنسان من قديم الزمان إلى الآن، والخلاف الناشئ من زمان مديد بين العلم والدين وغير ذلك، حتى لا يكون مطالع كتابنا محتاجًا في فهم ما نرمي إليه إلى بحث ولا تنقير، وليستطيع أن يرى بعينه بطريقة حسية أن الإسلام رُوح المدنية الحقة، وأن لا مدنية إلا به أو ببعض نصوصه.

هذا وليغفر لي القراء الكرام كثرة استشهادي بأقوال علماء أوروبا؛ فإني لم أقصد بذلك أن أستدل بكلامهم على صدق الدين، كلا، فإن الإسلام أجلُّ من ذلك وأعلا، بل قصدي أن أبرهن على أن كل النواميس الممدينة التي سادت على أوروبا في القرون الأخيرة فنقلتها من الظلمة إلى النور ليست

(١) نواميس: قوانين. (م).

بالنسبة لنواميس الإسلام إلا كشعاع من شمس أو قطرة من بحر، فأقول والله المستعان:

الإنســان

ما هو الإنسان؟ هل هو ذلك الجسم المادي الذي يتناوبه التحليل والتركيب، فينمو ويقوى، ثم لمّا يدركه الضعف والهَرَم يموت ويدفن فيستحيل إلى تراب تدوسه الأقدام؟ إن كان كذلك فليس هو إلا حيوانًا بسيطًا يَفْضُلُهُ الأسد بقوته، والفيل بِعِظَم جثته، والقرد بِعَدْوِه وسرعة حركته، ولما كان له من الأهمية في هذا الوجود ما يدلنا عليه ماضيه وحاضره، أما وأبيك لو كان الظاهر عنوان الباطن في كل شيء لكان شأن الإنسان في هذه الطبيعة الكثيرة العوامل شأن الريشة الخفيفة بين تيارات الأعاصير الشديدة، يدفعه تيار ويرده آخر، حتى ينتهي وجوده على أسوأ ما ينتهي إليه وجود الضعيف مع مُغَالِبيه الأقوياء. كلا إن في الأمر لسرًّا مكنونًا ورمزًا مصونًا، كم في العلم به من فائدة تهدينا في الاستقبال، وفي الجري عليها ضمانة لحسن المآل!

ادرس الإنسان من مبدئه ثم انظر إليه في وقتنا الحاضر ترَ عجبًا يذهب بالعقول، وسرًّا تعجز عن اكْتِنَاهِه[١] الفحول: ترى آيات تدهش الأفكار وتستوقف الأنظار. ترى ماذا؟ ترى كائنًا عاري الجسم لين البشرة رقيق الحاشية ضعيف

---

(١) اكتناهه: معرفة حقيقته. (م).

الساعد عديم السلاح أُلْقِيَ به في هيجاء[١] هذه الحياة وحيدًا فريدًا، وقُذِفَ به في تيار هذا الوجود طريدًا شريدًا، يرى بعينيه الجبال الشُّمَّ فَيَفْرَق[٢] من خيالها، والغابات الفيحاء فيذهل من تقلب ظلالها، والقبة الزرقاء بنجومها الزهراء فتهيبه سَعَتها ورفعتها، ويسمع زئير الضياغم في الغابات فيكاد يصعق منه فرقًا أو يَتَمَيَّز[٣] رهبًا، وهو بين تلك الدهشة والوحشة يخزه الحر بلفحه، والبرد بنفحه، ويؤلمه الجوع بحدته، والعطش بشدته. كان هذا حال الإنسان في مبدأ أمره، فماذا ترى مِنْ حاله الآن؟ ترى أن هذا الكائن الضعيف قد قاوم كل عوارض الطبيعة المسلطة عليه بِجَلَد وثبات مدهشين، وصارعها على قوتها وبطشها مصارعة البطل المغوار بقوى ليس في زَنْده مستقرها، وَجَلَد ليس في جسمه مركزه، حتى تغلب عليها وهو لم يكتف بذلك، بل أسرها أسرًا واستخدمها لأمانيه وآماله كما يستخدم الملك المنصور أُسَراء الحروب. ترى ذلك الكائن على ما به من لين وضعف قد أظهر من ذلك اللين صلابة واجهت الجبال الشُّم فنسفتها نسفًا، وَعَدَتْ على الصخور فسحقتها سحقًا، وتوجهت للحديد المتين فأذابته إذابة، وأبدى من ذلك الضعف قوة اقتادت القَسَاوِر[٤] صاغرة بين يديه؛ فتراها تخضع إليه وتلعب عند قدميه لتقر عينيه!

(١) هيجاء: حرب. (م).
(٢) فَيَفْرَق: فيفزع. (م).
(٣) يَتَمَيَّز: يتقطع. (م).
(٤) القسَاور: الأسود، جمع القسورة. (م).

هل بعد هذا التدبر العلمي يقال إن الإنسان هو ذلك الجسم المادي الضعيف؟ كلا بل لابد أن يكون ذلك الجسم الطيني غلافًا لسرٍّ مكنون إن غاب جوهره فقد دل عليه أثره. ذلك السر هو معنى الإنسانية، وواهب الميزة للإنسان على غيره من أصناف الحيوان، نعم هذه بَديهة لا تحتاج إلى إثبات، ولكن ما هي تلك المعاني الغريبة التي بسُكْناها في ذلك الجسم المادي جعلته ملكًا لجميع الكائنات الأرضية، وسلطانًا يتصرف فيها تصرف المالك الشرعي في ملكه؟

لو كانت تلك المعاني الإنسانية مما تقع تحت سلطة المشاعر وتدخل ضمن دائرة المحسوسات لسهل على الباحث درسها درسًا مدققًا، أو لو كانت هي من طبيعة معنى الحيوانية محدودة الغايات والانفعالات لكان المُعَاني لاكتناه أسرارها لا يكلف نفسه من المشاق ما يربو على ما يبذله الباحثون عن طباع النمل أو الميكروبات، ولكن كان أمرها بخلاف ذلك على خط مستقيم، فانظر إلى الإنسان نظرة ممعن تره جامعًا للمتناقضات جمعًا يصعب معه تحديد خِصِّيصة من خصائصه بوجه التحقيق، شاملاً للمتعاكسات شمولاً تضيق عن حصر آثاره قاعدة كل تدقيق، كأنَّ هذه المعاني الإنسانية بحر لا يدرك غورَه مِسْبَار العقول[1]، ولا تنتهي إلى سواحله خطرات الأفكار البعيدة المرامي.

إذا نظرت إلى الإنسان من جهة أوصافه المكتسبة فيه فلا تستطيع أن تنتهي إلى رابط يربطها ولا ناموس يضمها، فبينما ترى رجلاً قد عرف قدر الاعتدال،

---

(١) مسبار العقول: آلة العقول ومقياسها. (م).

وأدرك سر الكمال، فقاس أمياله على مقياس الروية والتدبر، ووزن أعماله بقسطاس العدل والتوسط، ترى عن يمينه رجلاً ثانيًا سِئم الدنيا سآمة لم ير معها مطمعًا في لذة، ولا مطمحًا في ثروة، وكُرِّه إليه العمران كراهة حَبَّبَتْ إليه سُكْنى قُذُفات الجبال[١] وحيدًا فقيرًا لا يملك فتيلاً ولا نقيرًا، وأخذ يناجي ربه أن يزيده كراهة في دنياه، وأن يكافئه على ذلك برضاه، ثم ترى عن يسار ذلك المعتدل رجلاً ثالثًا سحرت الدنيا لُبَّه سحرًا أعماه عن رؤية الفارق بين المحاسن والمقابح؛ فأطلق لنفسه عِنان الطيش، وافتكها من قيود العادات والتقاليد، وأخذ يميل مع الشهوات حيث تميل، ويتقلب مع اللهو حيث يتقلب، وبينما ترى رجلاً قد نزل عن رتبة الحيوانات جهلاً وغباوة حتى كاد يساوي الصخر جمودًا وخمودًا، ترى بإزائه عالمًا غزير المادة واسع الاطلاع، منهومًا بكشف الأستار عن وجوه الأسرار، لا يرى اللذة إلا نظرية يؤسسها أو ظاهرة طبيعية يدركها، وبينما ترى شخصًا استحوذ عليه حب الحياة حتى أورده موارد الجبن المخجل، يظن الخيال طالبًا يطلبه أو عفريتًا يرعبه، ترى تجاهه شجاعًا يطربه وقع البيضِ[٢] على الخُوذ[٣] ودويُّ المدافع في جدران الحصون، ويروقه نظر دماء الأقران تسيل على الأرض كالأُرْجوان[٤]: قل لي بعيشك هل يمكن لمن نظر إلى حالة الإنسان من حيث

(١) قُذُفات الجبال: أعالي رؤوس الجبال. (م).
(٢) البيْض: السيوف. (م).
(٣) الخُوذ: جمع خوذة. (م).
(٤) الأُرْجوان: صبغ أحمر شديد الحُمرة. (م).

قبوله لسائر الأوصاف الممكنة أن يدعي حصرها في قاعدة أو ضمها في رابطة واحدة؟

ليس لأميال الإنسان حد فيقف عنده، بل كلما وصل إلى غاية تاق إلى أبعد منها، ووجد من نفسه المُكْنة[١] على بلوغها، والقدرة على إدراكها، حتى إذا نالها كان فرحه بحوزها باعثًا له على الاستزادة منها، ومصغرًا في عينه ما كان فيه من قبل.

مضى زمن اتُّهم فيه مكتشف أمريكا ومخترع التلغراف والآلة البخارية بالجنون؛ لظَنِّ الناس استحالة ما كانوا يهمسون به في الآذان همسًا، وجاء زمن يقول فيه علماؤه إنه سيأتي وقت يكون الفرق فيه بيننا وبين أبنائه كالفرق بيننا نحن وبين أخس الحيوانات.

هل وقف الطِمَاح بالإنسان عند هذا الحد المدهش؟ كلا، إن الطمع الفكري بلغ عند الإنسان مبلغًا نظر به إلى حالة العلم الآن فلم يرقه شيء فيه، وصغَّر له الطموح عِظَمَ ما نال عقب تلك الجهالة الأولى؛ فنطق بلسان أحد علماء أمريكا قائلاً: إننا نمتاز عن أسلافنا في العلم بكوننا علمنا أننا جهلاء، أما هم فكانوا يعتقدون أنهم يعلمون شيئًا! ليت شعري ما هذه المعاني الإنسانية التي تشعر بعظمتها وجلالة قدرها لدرجة لا تعد ما هي فيه الآن إلا جهالة ظلماء؟ فهي

(١) المُكْنة: القدرة والاستطاعة. (م).

تأنف أن تغتبط بما وصلت إليه من سائر الأسرار، وترى أن أمامها غاية لا تحدها الأوهام ولا تصل إليه مرامي الأفكار.

أما نحن فلا يسعنا بعد هذا الإمعان إلا أن نحكم عن بينة بأن الفارق بين الإنسان والحيوان ليس هو النطق كما قال أرسطو، ولا هو التفكر بالقوة كما مال إليه فلاسفة العرب، ولا هو التدين كما ذهب إليه المسيو كاتر فاج، بل هو قبول الإنسان للترقي العقلي والأخلاقي إلى مالا نهاية له، ووقوف الحيوان في درجة لا يتعداها؛ فتكون نسبة الحيوان إلى الإنسان كنسبة الإدراك المحصور إلى غير المحصور، وشتان ما بين طرفي هذه النسبة.

إن كان لابد من الاستشهاد بقول عالم أوروبي في مثل هذه البدائه، فإليك ما قاله العلامة (لاروس) في دائرة معارفه الكبيرة بعد أن تكلم على رقي الإنسان ما نصه: «إن من التهور الشائن وضع حد لرقي الإنسان»، وقال المسيو (رينان) المشهور في كتابه تاريخ الأديان: «أمعنت النظر في حال الإنسان فوجدته وقتًا من الأوقات يبذل وسعه ويستنفد قواه لكي يتوصل إلى إدراك السبب الذي لا نهاية لحدود سلطانه، ولكي يعلو على هذا العالم المادي. أفليس هذا دليلاً محسوسًا على أنه بسمو مَحْتِدِه[١] وبحسن حظه ممتاز عن هذه الأشياء المادية المحدودة؟ لاشك أن مشاهدة هذا الجهد من النفس لكي ترقى إلى السموات العلا تبعث

(١) مَحْتِدِه: أصله. (م).

في المشاهد الميل إلى احترام النوع الإنساني الذي يجدر به هو نفسه أن يفتخر بعظمته افتخارًا». انتهى.

ولكن كما قضى الله للنوع الإنساني أن يكون أهلاً لاعتلاء درجات كل ما يُتصور من الفضائل، كذلك حكم عليه بأن يكون قابلاً للنزول إلى أخس دركات الرذائل، وفي درس تاريخ الإنسان أكبر عبرة لمن يريد أن يتفكر.

خُلق الإنسان على تمام الجهل بالكون الذي قذف به فيه، بخلاف الحيوان فإن الخالق جل شأنه وهبه من الإلهام أكبر مرشد له لنيل ما يكفل له حياته، ويحفظ لنوعه بقاءه، فتراه لا ينساق إلى الإفراط ولا التفريط لدرجة تُودي به[١]، ونشأ مطبوعًا على الأعمال التي تهيئ له راحة حياته من بناء مسكن وإعداد محل لائق لوضع صغاره فيه إلى غير ذلك من الأمور التي يندهش منها الإنسان إذا عُني بدرس علم الحيوان، أما الإنسان فقد جُرِّد من كل هذه الخصائص بالمرة، وعُوِّض عنها مزية الحرية في التصرف بالقوة الفكرية تصرفًا غير محجور.

وجد الإنسان - وهو شاعر على ما به من ضعف وعجز - بأنه مليك كل الكائنات الأرضية وزهرة هذه العوالم الكونية، فلم يُثنه ضعفه وفاقته عن التطلع للنقطة الرفيعة التي أُعدّت له، والتي يرى مثالها في وجدانه يتلألأ آنًا ثم يختفي آنًا، لينشأ له بين الرجاء واليأس باعث قوي على إعمال مواهبه وإجهادها، والجري

(١) تودي به: تهلكه. (م).

وراء تلك المنصة العلياء التي تحس بها نفسه إحساسًا سريًّا بدون علم بماهياتها ولا كيفيتها. اختلف أفراد النوع الإنساني على حسب الأمزجة والأمكنة والأزمنة في ماهية أمنية النفس البشرية، وهمّ كلّ منهم على قدر ما خولته المُكْنة وأمكنته الفرصة بالبحث عن تلك الرغيبة(١) الرُّوحية، فظنها بعضهم في الملاذ البدنية والشهوات البهيمية، فدأبوا على اختراع أنواع الزينة ومهيآت الطرب؛ فنشأت من ذلك الصنائع الجميلة على اختلاف أنواعها وتباين أصنافها مع ما استلزمته في أثناء البحث عليها من قواعد الصنائع النافعة والأعمال المفيدة، وزعمها بعضهم في علو الكلمة وبعد الصيت؛ فَجَدّ في تدويخ البلاد وتذليل العباد، فنشأت من ذلك الحروب والغارات مع ما استلزمته من معارف ومعلومات، ومن صعود لبعض الأمم وهبوط للبعض الآخر مما له ارتباط قوي بتدرج الشعوب في مدارج التقدم والحضارة، وَحَسَبها غيرهم في ترويض النفوس وتهذيب الطباع وحرث القوة الفكرية واستثمارها؛ فنشأت من ذلك علوم الأخلاق والأبحاث العلمية والعملية والمسائل الفلسفية، مما كان له أثر عجيب في تنمية المادة العقلية وتوسيع نطاق القوة الفكرية. وعلى هذا النسق من اختلاف المشارب والوجهات في البحث عن السعادة النفسية المتمناة، تم للإنسان من الرقي ما بلغه الآن. وسيستمر هذا الانفعال النفسي وراء هذه السعادة المرجوة حتى يتم الإبداع الذي أراده الله أن يتم على يد هذا النوع الإنساني.

---

(١) الرغيبة: العَطِيَّة المرغوب فيها. (م).

في أثناء هذا التدافع المدهش كان الخالق الحكيم – جَلَّ شأنه – يرسل رجالاً هم الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – فيوحي إليهم الطريقة الملائمة لعصورهم، والتي لو انتهجها الإنسان لوصل إلى سعادته من أقرب الطرق الموصلة إليها، فكان يتبعهم من الناس من قَدَّر الله أن يكون على أيديهم نقل النوع الإنساني من حالة إلى حالة أرقى منها، فيستمرون عاملين بما أخذوه من نبي زمانهم بُرهة قصيرة، ثم يعودون إلى تدافعهم الأول بعد أن يحرفوا نصوص كتبهم تحريفًا يجعلها غير صالحة لقيادتهم وضبط أهوائهم، ولا يزالون كذلك حتى تهيئهم نواميس الحياة إلى صعود درجة أخرى من سلم المدنية والترقي، فيرسل الله تعالى إليهم رسولاً من أنفسهم يكون في مقدمتهم عند اعتلائهم تلك الدرجة الجديدة، وهكذا كان شأن الأمم كافة من التجالد والتدافع حتى تم نمو العقل الإنساني، وصار مقتدرًا على تمييز الغث من السمين، فأرسل الله سيد الأنام وخاتم الأنبياء محمدًا ﷺ بالشريعة الخالدة والدين الأبدي. ولا يَهُولَنَّكَ[(١)] ما ترى من آثار التجالد الفكري والتضارب العقلي بين سكان هذه الكرة، ولا تستنتجنّ من ذلك قرب ظهور نبي آخر؛ فإن كلَّ ما تراه حاصلاً أمامك من هذه الجَلَبة[(٢)] والصياح والتجاذب ليس هو إلا إعدادًا لأبناء القرون الحاضرة والمستقبلة إلى فهم حقيقة الإسلام وإدراك أسراره، نعم ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت / ٥٣].

(١) يَهُولنّك: يفزعك. (م).
(٢) الجَلَبَة: الصوت الصاخب. (م).

الحياة وما أدراك ما الحياة: حرب عوان وأهوال تشيب لها الولدان وتخضع لها الرؤوس ذوات التيجان، يتساوى فيها المليك والمملوك، والسَّريُّ والصعلوك، والجهَّال والعلماء، والأغبياء والحكماء، بل هي مورد تتزاحم حوله النفوس ولا تفوز بِحُسْوَة[١] منه إلا بعد أن تصادم العظائم، وتتجشم[٢] الدواهي الدواهم، وهي حسوة ممزوجة بالأكدار، مشوبة بالأوضَار[٣]، يَغُصُّ بها حاسيها غصة تُعجز الطب والأطباء، وتتعاصى على كل دواء.

تكاليف الحياة

حياة الإنسان وما أدراك ما حياة الإنسان: مدة قصيرة الأمد، كثيرة الهم والكمد، يكون الإنسان فيها هدفًا لسهام الحوادث، وعرضة لنبال الكوارث، لا تغني عنه الجُنن[٤] الواقية، ولا الدروع المضاعفة، ولا الحصون الشامخة، ولا البروج الشاهقة، سهام ونبال تلازمه من يوم ميلاده مُلازَمَة العَرَض للجوهر؛ فيشب الإنسان ويشيب، وهي لا تَفْتُر عن وخزه ولا تقصر عن طعنه، حتى يود الإنسان أن لو كان من بعض الحيوان ولم يُمْن لعلو مكانته بما تشيب لهوله نواصي الأجيال، ولا تستطيع أن تحتمله شوامخ الجبال، كلا. ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾[الأحزاب / ٧٢].

---

(١) بحُسْوَة: ببقية منه. (م).
(٢) تتجشم: تتحمل عن كره ومشقة. (م).
(٣) الأوضَار: الأقذار. (م).
(٤) الجُنَن: السترات الواقية، جمع جُنَّة. (م).

لست أيها الإنسان ملكًا فتكون بمعزل عن دواعي الشهوات ومنغصاتها، ولست حيوانًا فيضعف فيك الشعور بتأثيرات الحياة وويلاتها، بل قضى خالقك – جلَّ شأنه – أن تكون بين هاتين الرتبتين في منزلة إن حفظت لنفسك فيها حق حرمتها خدمتك الأملاك ورفعتك على الأفلاك، ولو قصَّرت في واجب نفسك وخضعت لسلطان البشرية فيك لنزلت إلى منزلة من الضِّعة يعافها أخس الحيوانات ويأنف مما أنت فيه من السوآت، هذا حظك قد خطَّه بارئ النَّسَم من القدم، وأودع فيك من الاستعداد والقابلية ما يسمو بك إلى المحل الذي يليق بك من الكمال والرفعة، وأسكن فؤادك عقلاً يضيء عليك حَوالِكَ الأحوال(١)، ويفكك عنك أغلال الأهوال، لو أحسنت استشارته وأجريت إشارته، ولم يخلق ما تراه أمامك من المصاعب والمصائب لتعذيبك على غير جدوى، أو لكي يسمع عويلك من البلوى، بل تذْكِرة تقيمك مِنْ عثرة، وتحميك من كبوة، وتَزَعُك(٢) من هلكة: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم/ ٤١] نعم ليس ما تراه أمام عينيك من الأهوال أو ما يعترض أمانيك من تقلبات الأحوال عقبات أمام سعادتك أو موانع دون أمنيتك. فلا تكن كالطفل العاصي يزعه أبوه عن البطالة فيظنه قاسيًا عليه غير حانٍ إليه. كلا: «اللهُ أَرْأَفُ بِعِبادِهِ مِنْ هذا العُصفورِ عَلى فَرْخِهِ» حديث شريف.

---

(١) حوالك الأحوال: شدائد الأحوال وأسودها. (م).
(٢) تَزَعُك: تكفك وتردك. (م).

سبق أن بينا في مقالنا السابق أن الإنسان مستعد لأن يرقى أَوْج[١] الملكوت الأعلى، ومستأهل لأن يتسنم هذه الرتب القصوى مما لا يحده وصف الواصفين أو تخيلات الشعراء المداحين. فإذا تقرر لديك ذلك فما هي الوسائل التي يجب أن ترفعك من معهد هذا الطين الميت إلى مَحْتِد ذلك النور الحي؟ أتريد أن تنزل إليك ملائكة من السماء فيقودونك بيدك إلى ما أُعِدَّ لك من مقاوم الشرف ومنازل الرفعة؟ إن قلت: نعم، فما الفائدة إذن من إيداع الخالق فيك هذه المنح العُلوية العظمى مما لو التفت إليه قليلاً ولو قدر التفاتك إلى نقش الدينار ورسمه لعلمت أن في فؤادك كنزًا لو أنفدت عمرك في تدبر ذخائره لما وصلت إلى عشر عشيرها؟ كنز يصغر إليك شأن الذهب الإبريز، والجوهر العزيز، ويبعثك قسرًا عنك لالتماس الرتبة التي تليق بعظمتك من هذا الوجود ويريك أن سفاسف الأمور ودنايا الأعمال ليس مما يجوز لمثلك أن يعيرها فكرًا أو يمر بها مرًّا: «ما وَسِعَتْني أرضِي ولا سَمَائِي ولكِنْ وَسِعَني قَلبُ عبدِي المؤمنِ اللَّيِّن الوادِع[٢]». حديث قدسي.

إِيهْ[٣] أيها الإنسان! إنك عن نفسك لمحجوب ومن أشرف مزاياك لمسلوب، ليس مثلك من يهتز لخرافات الشعراء فيذم معهم الزمان والمكان، ويتباكى على ما سيكون وما قد كان، ليس مثلك من يستميت لكِسْرة، أو يقتل صديقه لأجل

(١) أَوْج: قمة. (م).
(٢) الوادِع: الساكن. (م).
(٣) إيهْ: كلمة تقال للنهي والزجر بمعنى حسبك. (م).

إبرة، أو يبيع رداءه في سبيل الخمرة! ما هذه الغفلة! ما هذه السكرة! بل ما هذا الموت! أضعت أيامك في تخيل المصائب والخشية من النوائب، وصرفت همك في أوهام يستنكفها الحيوان ويمجها العرفان؟ هل يليق بمن يحصر الكون بكواكبه والعالم بعجائبه في فكره وهو جالس مع صاحبه، أن يتدنى إلى درجة من الاستكانة والمهانة يضيع بها تلك المواهب العظمى والمنح الكبرى لخزية يفعلها أو غيبة يَتَلَمَّظ[١] بها، حتى إذا تجلت له نتائج تهامله، وابتدأت أن توقظه من سباته ارتعدت فرائصه[٢] رعبًا، وارتجت مفاصله رَهَبًا وأخذ ينادي وامصيبتاه، ثم يأخذ يبكي بكاء الثكلى ويذرف الدموع الحرّى، مغمضًا عينه عن النظر، وبصيرته عن تبين العبر، فيضيع بجهله مزية ما يرفعه إلى مَحْتِده الأعلى ومركزه الأسمى؟ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج/ ١١].

إن الذي تسميه مصائب أيها الإنسان ليس هو إلا يدُ الجبار الأعلى، تستلفتك إلى الغاية التي خلقت لأجلها، وتبعثك من جَدَث[٣] الجمود الذي أوقعك فيه تماديك في الغي المزري مع ما انطويت عليه من الغرائز الشريفة والنحائز[٤] المُنيفة[٥]، نعم إن الذي خلقك من الطين الأصم وأراد أن يعلو بك إلى

(١) يَتَلَمَّظ بها: يحرك بها شفتيه. (م).
(٢) ارتعدت فرائصه: فزع وخاف. (م).
(٣) جَدَث: قبر. (م).
(٤) النَّحائز: الطبائع، مفردها النَّحِيزة. (م).
(٥) المُنيفة: العالية القدر. (م).

أعلى مراكز الكمال، سلط عليك عوامل ثلاثة، لو تبصرت في مصاعبها وتدبرت في أسبابها ومسبباتها لرأيت أن طريق السعادة التي تنشدها وتموت بحسرة دونها هو بين يديك وأمام عينيك، وما عليك إلا أن تجري على سننها القويم وصراطها المستقيم؛ لتصل إلى غرضك العظيم ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان/ ٣].

ما هي تلك العوامل الثلاثة المهمة؟ هي الطبيعة ونفس الإنسان وبنو نوعه، أما الطبيعة فهي مَحْتِد جسم الإنسان، بها ترتبط سعادته المادية، ومنها ينبوع راحته الحسية، قُذف الإنسان من يوم خُلق إلى هذا العالم المادي، فتلقاه بنواميسه الكثيرة وعوارضه الشديدة، وهو كما وصفه العلامة (لينيه) عاري الجسم وبدون سلاح، فوخزته الشمس بحرارتها، والأرض برطوبتها، والسماء بأمطارها، والصحاري بسمومها وأعاصيرها، والوحوش بأنيابها وأظفارها، فصار الإنسان بين هذه العوامل هدفًا لسهام لا مِجَنَّ يقيه منها، ولا وسيلة تبعده عنها، فلو كان كغيره من الحيوانات محدود القوى الإدراكية لما أمكنه أن يعيش طرفة عين، ولكن الله جَلَّ جَلَالُهُ قد قذف به إلى هذه الأهوال بعد أن منحه من المواهب ما يستطيع بها أن يتغلب على الطبيعة ويأسرها، فلم تَفُلّ عزيمته(١)، ولم تثبط همته، بل قاتلها بسلاح فكره الجديد، وابتكر من الصنائع الأولية ما يحميه منها وقتًا ما، ولم يزل يجد ويجتهد في تحسين تلك الطرق الواقية حتى ارتقى شأنه شيئًا فشيئًا؛ فصار يتمكن من بناء البُيوتات بعد سُكْنى المغارات، ويحرث الأرض

---

(١) تَفُلّ عزيمته: تكسرها. (م).

ليستخرج خيراتها بعد أن كان يتغذى بجذور الأشجار وأوراقها وهكذا، ولكن الطبيعة لم تغفل عنه طرفة عين بتقدير العزيز العليم كي لا تَرْكَد همته وتسكن حركته، فصار كلما أتقن عملاً عَدَتْ الطبيعة عليه فيلتجئ إلى تحسينه، ولم يزل ذلك التدافع بيننا وبين الطبيعة إلى اليوم.

كان من نتائج هذه الحرب العوان[١] ارتقاء الإنسان ماديًّا للدرجة التي نرى بها بلندن وباريس من عجائب الصناعات وغرائب المكتشفات مما لو حدث به الشرقي لرمى مُحَدِّثه بالجنون لعدم تصوره ما يقول، هذا الارتقاء يستلزم بالطبع ارتقاء أدبيًّا عظيمًا لأنه لا يتأتى إلا بإعمال القوة العقلية وإجهادها، وهذه القوة هي كما لا يخفى مَحْتِد كل الفضائل البشرية.

فانظر بأبيك إلى ما كان يسميه آباؤنا مصائب وجوائح[٢]، كيف بعث الإنسان إلى الارتقاء وحسن الحال، وجذبه رغم أنفه من طور البهيمية إلى طور الإنسانية! هل بعد هذا يصح أن نذم تلك المصائب ونتبرم منها بعد علمنا بأنها السائق الوحيد للفكرة الإنسانية إلى البحث عن أسباب السعادة والرفاهية؟ أما يجب علينا بعد هذا أن لا نجعل جزعنا من المصائب الطبيعية غشاء كثيفًا بيننا وبين استنباط الطرق إلى تخفيف وطأتها واستئصالها مرة واحدة؟ فإذا كان في مُكنة الفكرة البشرية أن تخترع آلة تجتذب بها الصواعق صاغرة وتلقي بها إلى

(١) الحرب العوان: الشديدة التي قُوتل فيها مرة بعد أخرى. (م).
(٢) جوائح: مصائب تحل بالإنسان في ماله فتجتاحه كله، مفردها جائحة. (م).

أسفل سافلين، فكيف لا يكون في مُكنتها أن تبتكر طريقة بسيطة تخفف من ويلات دودة القطن التي يقف فلاحنا أمامها صاغرًا يضرب صدره ويمزق نفسه؟ رزقت الأمم الأوروبية حسن التبصر في جوائح الطبيعة، فتراهم يتربصون لأحداثها بالمرصاد، فكلما ألمّ بهم حادث هبوا يبحثون عن طريقة لإزالته أو تقليل خطارته، ولا ينامون عن مشروعهم حتى يحققوه، علمًا منهم بأن في الفكرة الإنسانية من الأساليب ما يضمن حياة مستقبلهم كما ضمن حياة ماضيهم، هذا هو سبب من أسباب رقيهم المدهش الذي قاموا يسيطرون به على الشرق سيطرة الرفيع على الوضيع، فما لنا عن التذكرة معرضون؟

أما العامل النفساني على الرقي الإنساني فهو من أقوى العوامل وأكثرها تأثيرًا ولا يمتاز عن سابقه إلا في كونه معنويًّا، يشعر كل إنسان في نفسه بأن وجدانه ميدان فسيح لشهوات تتوزعه وأميال تتنازعه وآمال تتقاسمه، مما لا يستطيع إماتته ولا إبطال تأثيره عليه، مهما بذل من المجهودات في ذلك السبيل، ليست تلك الشهوات مما تنصاع لقوانين المحسوسات حتى يُستطاع وزنها بقسطاس الاعتدال، ولا هاتيك الأميال مما تقبل التحديد حتى يرى الإنسان بعينه النقطة التي هو مسوق إليها قسرًا، ولا تلك الآمال مما تخضع لأحكام القنوع حتى يتسنى له أن يوقفها عند نقطة مخصوصة، بل قضى الحكيم المختار أن تنطلق هذه

العوامل المعنوية من كل قيد، وأن تتجاوز كل حد، وأن تشذ عن كل رابطة، حتى صارت بما أودعت من رُوح الحركة والتأثير كأنها تيارات متعاكسة تتصادم في فؤاد الإنسان تصادمًا يهوله مرآه ويرعبه منظره، ولو كان هو نفسه مَحْتِدها ومستقرها.

انظر إلى ذلك الرجل الرث الهيئة الخَلِق السربال(١)، الجالس في ظل تلك الدوحة، أتظن أن سكونه الظاهري دليل على سكونه الباطني، أو أن حالته من الفاقة نَهْنَهت(٢) وجدانه عن تلك المطامح السرية والمَعَامع(٣) الضميرية؟ كلا، إن حاله ذلك لم يقلل فيه تلك الانفعالات النفسية عما هي عليه عند أكبر ملك جالس على أسمى أريكة لأمة متمدنة.

وُجِدَ هذا الإنسان الضعيف على سطح هذه الكرة الأرضية، وهو كما هو، شيء غير محدود في جسم محدود أو بحر لا نهاية لسواحله في فؤاد لا يزيد عن الكف مقاسًا، فلم يستطع أن يطمئن إلى شيء من الأشياء المحدودة، أو يركن إلى كائن من الكائنات المشهودة، إلا ريثما يتحقق أن ذلك الشيء ليس مما يصلح أن يكون سفينة له، يقطع على ظهرها عُباب ذلك البحر الزاخر، الذي يسمع دويّ أمواجه داخل فؤاده، نعم بذل الإنسان وسعه من القدم في التحسس على مالا تأنس نفسه إلا به، فأَمَّ كل طريق، وقاوم كل تيار، وسلك كل سهل، واقتحم

(١) الخَلِق السربال: البالي الثياب. (م).
(٢) نَهْنَهت: زجرت ومنعت. (م).
(٣) المَعَامع: المعارك. (م).

كل حَزْن[١]، ونزل كل غور، وصعد كل نجد، وتوقّل[٢] كل رَعْن[٣]، وهو بين هذه الهمم الشديدة يصادف مانعًا فيرده أو عقبة فتصده، فيزيد خبرة بماهية السائق له والمسوق إليه فيصلح من خطئه، ويقلل من غلطه، فيترفع قليلاً عما كان عليه في سابق بحثه، فتقابله الجوائح وتصادمه البَوائق[٤]؛ فيعلم أن غرضه أسمى من ذلك، وهكذا حصل حتى تم له أن ينتقل من دور التسفل في البحث إلى دور الاستعلاء فيه. فصار الآن كلما طالبته النفس برغيبتها ألقى بنظره إلى السماء بعد أن كان في السابق يلقي به إلى الأرض.

هذا العامل النفسي له فضل عظيم في حفظ الإنسان من الخضوع لمؤثرات البهيمية فيه؛ فلم يقع في الوحشية التي لو اتصف بها لكان كائنًا يُتبرأ منه ويُؤنف أن يُنتسب إلى نوعه، وهذا العامل نفسه هو الباعث إلى تأليف علوم الأخلاق، والبحث عن الإلهيات والنفسيات، والمحرض على الجد في علوم الحكمة مما كان ولم يزل له أثر عظيم في تحسين حالة النوع الإنساني.

أما العامل النوعي فهو نتيجة العامل السابق، ولم نسمه عاملاً قائمًا بذاته إلا لما أنتجه من الانقلابات الشديدة في النوع البشري وفي الفرد الواحد.

---

(١) الحَزْن: الوعر الصعب. (م).
(٢) توقّل: صعد. (م).
(٣) رَعْن: عال مرتفع. (م).
(٤) البوائق: الدواهي، مفردها: بائقة. (م).

قلنا أكثر من مرة إن الإنسان ممتاز عن سائر الكائنات بانطلاق أمياله وشهواته عن القيود، ومجاوز انفعالاته لكل ما يتصور من الحدود، بخلاف الحيوانات فإنها مطبوعة على الانصياع لنواميس ثابتة وقواعد عامة لا تتعداها، ولن تستطيع ذلك. إذا علمت هذا، فقل لي بعيشك ما كان يستحيل إليه حال الإنسان مع انطلاق خصائصه عن القيود لو لم يصادف في حياته أمورًا تجبره رغم أنفه إلى تحديد نقطة الاعتدال فيها وإيقاف أمياله عند تُخوم(١) التوسط في سائر مراميها؟ أما ترى معنا أنه كان يتلاشى وجوده أو يبقى ولكن مجذوبًا مع تيار واحد يحسب أنه سيوصله إلى غاية يقف عندها ويتملى بسعادته فيها، فيخونه الحسبان، فيظل مقذوفًا إلى حيث يلاقي حتفه على أسوأ حالة؟

إذا اعتقد رجل أن السعادة في الغنى وأنواعه غير محدودة في وجدانه ونهاياته، غير مرتسمة في جنانه، فماذا يكون حاله في هذا السبيل المميت للعواطف البشرية إذا لم يصادف أمامه مانعًا يصده ليقف قليلاً فيرجع إلى نفسه رجعة يفهم بها أنه لو عاش ألف عام دائبًا على سلوك سبيل الثروة لما وصل إلى غاية مما يُؤَمِّله وأنه لو صار قارون زمانه مالاً فلن يكون أسعد أهله حالاً.

نعم إن الذي خلق الإنسان وأطلق مداركه من كل قيد خلق بإزائها موانع تصدها لتزعها عن الإفراط، كما وضع وراءه دوافع تصيح به لتردعه عن التفريط، فأما تلك البواعث الدافعة له إلى الأمام فقد درسناها في الفصلين السابقين،

(١) تخوم: حدود. (م).

وأما الموانع التي تعترضه لتجبره إلى الاعتدال في مطلبه فأهمها مقاومة بني نوعه ومزاحمتهم له في كل رغائبه، هذه المزاحمة تنقسم إلى قسمين عظيمين: أولهما: مزاحمة أفراد المجتمع التي يعد الرجل فردًا منها، والثانية: مزاحمة الجمعيات بعضها لبعض في التسابق إلى ما يقيم كيانها من أمور هذه الحياة. هذان القسمان من التزاحم المعبَّر عنهما بتنازع البقاء هما السببان الرئيسيان اللذان علما الإنسان رغم أنفه ثلاثة أمور عظيمة جدًّا، هي نظام حياة الأمم وَمِسَاكُها:

أولها: عدم الغفلة عن الحق لأن الإهمال فيه على حسب قوانين الحياة مسقط له إسقاطًا كليًّا. **ثانيها**: معرفة قواعد العدل؛ لأن الإنسان بالجور يجر إليه أضغان أمثاله؛ فتسوء حالته ويحرم من سائر حقوقه. **ثالثها**: احترام النوع الإنساني بأكمله. هذه الثلاثة أمور كما هي قوام أعمال الأفراد هي أيضًا نظام الأمم العظيمة المتمتعة بنعمة الاستقلال، فإن الأمة المستقلة إذا أهملت مجاراة جاراتها سبقتها إلى مطالبها وحرمتها من مقومات حياتها، ولا يعد هذا ظلمًا منهن؛ بل تعتبر هي الظالمة الأثيمة بإهمالها استعمال خصائصها المودعة فيها، ومن يتأمل في حالة الجمعيات البشرية المختلفة ير العجب العجاب من آيات المسابقة. هذا من حيثية الأمر الأول، وأما الأمر الثاني وهو العدل، فإن من أقل خصائصه في الجمعية حدوث الاطمئنان المتبادل على الحق والعرض وعدم الرهبة من العدوان عليهما جريًا مع الأهواء، ولا يخفى ما ينبني على هذا الاطمئنان المتبادل من التماسك بين سائر الأفراد والتضافر فيما بينهم على السعي إلى تحقيق غرضهم

المشترك وهو سعادة المجتمع، ومن يُرد برهانًا محسوسًا على حسن نتائج العدل فليتدبر في أحوال الجمعيات الحاضرة والغابرة ليُغني عن كثير من التطويل.

وأما عاطفة احترام سائر أفراد النوع الإنساني، فإنها ما انبثت في أمة حية إلا وقللت من حدة الأسلحة الموجهة إليها بتأثير تنازع البقاء، وكسرت من نِصَال مجاوريها الطامعين فيها، وأبطلت من عُرامِهم[١] وشِرَّتهم[٢] لدرجة تطمئن بها على نفسها أكثر من اطمئنانها لقوتها وعظمتها.

لنرجع إلى ما كنا بصدده فنقول: إن هذه الثلاثة العوامل الرئيسية (الطبيعة ونفس الإنسان وبنو نوعه) مع النواميس الكثيرة الثانوية التي تستلزمها، هي بواعث الرقي الإنساني، قدَّرها الخالق جل شأنه تقديرًا لأجل أن ترفع الإنسان رغمًا عنه من درجة الوحشة إلى درجة المدنية أو السعادة الإنسانية، وهي عينها بحث الباحثين وغرض العلماء المحققين من منذ آلاف من السنين إلى هذا الحين.

(١) عُرامهم: شراستهم وأذاهم. (م).
(٢) شِرَّتهم: حدتهم. (م).

الدين والعلم

إن المُنابذة بين رجال الدين ورجال العلم ليست بقريبة العهد، فإن التاريخ يدلنا على أنه من منذ أزمان بعيدة جدًّا كانت المشاحنات والمشاغب قائمة بين الطرفين في أغلب الأمم. إلا أن العصور المتقدمة كانت تمتاز عن عصرنا الحاضر في قساوة تلك المشاكل وصرامتها، فإن كثيرًا من فلاسفة الأمم حُكم عليها بالإعدام بالسم أو الحديد أو النيران، لمحض كونهم قاموا ينيرون عقول مواطنيهم من الأوهام التي تَحطُّ بشأن العقل وتطفئ من نوره، أما في عصرنا الحاضر فإن العلم على ما قاله المسيو (برتلو) – أحد نظار خارجية فرنسا وأكبر علمائها الكيماويين – قد نال حريته المطلقة، وصار لا يخشى سيطرة الدين عليه، لقد صدق المسيو (برتلو) فإنا نتلو مؤلفات القوم العلمية فلا نرى إلا طعنًا على الأديان وتنديدًا بها يدلنا على أن القوم قد مَرَقوا[١] منها مروق السهم من الرمية، ولم يكفهم ذلك، بل أخذوا ينذرونها بالانمحاء العاجل لعدم انطباقها على النواميس المُرَقِّية للإنسانية ولا على القواعد العلمية.

ألف المسيو (بنجامن كونستان) كتابًا سماه (الدين وينبوعه وأشكاله وترقيه) بحث فيه عن العلل التي أنهكت جسم الجمعيات البشرية من جراء الاعتقادات الباطلة، ثم حكم بأن مداواة هذه العلل لا تتأتى إلا بحرية الضمير

---

(١) مَرَقوا: خرجوا. (م).

وحرية الاعتقاد والحرية الشخصية، وبالاختصار كل الحريات الضرورية، ثم قال: «بهذه الطريقة تتنقى الأديان عن أدرانها، ولكنا لا نخال أن ذلك يتحقق مطلقًا لاعتقادنا أنها لن تترك شيئًا من أسسها. ولكن بما أن هذه الأسس تناقض العلم وتعارضه فيكون من المقرر الثابت انمحاء الديانات وزوالها»، نحن نعجب للغاية من كون مثل هذا العالم المشهور يحكم على جميع الديانات بدون استثناء بالانمحاء والزوال حال كونه لم يدرسها كلها طبعًا، لأنه لو درس الإسلام الأول ولو درسًا سطحيًّا لتحقق قبل كل شيء أنه ليس فيه أسس تناقض العلم كما يتهم به سائرها، ولكنا في هذه المقالة سنقتصر على إيراد أشد المطاعن على الأديان وجهات الضعف فيها نقلاً عن أشهر علماء أوربا؛ ليقف قارئنا على اتجاه الأفكار الأوربية العلمية وليتحقق بعد أن نورد عليه أسس الإسلام أنه هو حقيقة أمنية النفوس وحَظِيَّة الأرواح[١].

قلنا إن المسيو (كونستان) قد أنذر جميع الأديان بالزوال، والآن نقول إنه علل ذلك تعليلاً فلسفيًّا فقال: «إن كل قاعدة مهما كانت نافعة في الحال فلابد أن تكون محتوية على جرثومة تعارض الرقي في الاستقبال؛ لأن تلك القاعدة تأخذ بطول المكث شكلاً عديم الحراك، يأبى على العقل البشري اتباعه في مكتشفاته التي ترقيه كل يوم وتطهره، إذا حصل ذلك ينفصل في الحال الإحساس الديني

(١) حَظِيَّة الأرواح: أكثر ما تسعد به الأرواح، وتتعلق به. (م).

عن تلك القاعدة المتحجرة ويطلب سواها من القواعد التي لا تجرحه، ولا تحرجه ولا يزال يضطرب حتى يصادفها».

درس القوم الإنسان درسًا مدققًا واهتدوا إلى الطريق الذي يجب أن يسلكه لكي يصل إلى سعادته، وعلموا أنه لن يستطيع أن يؤدي الوظيفة المهمة التي أعدته لها العناية الإلهية إلا باستعمال جميع خصائصه ومواهبه الممنوحة له، وعدم قتل عاطفة من عواطفه، ثم نظروا نظرة إلى الماضي فرأوا أن الذي أخر العالم الإنساني عن الوصول إلى ما هُيِّئ له من مقاوم الرفعة هو الانصياع إلى أوامر رجال، ادعوا أنهم قادة الأديان ورؤساؤها فَأَنْحَوا عليهم(١) طعنًا وتنديدًا ورموا تعاليمهم بتهمة تأخير الإنسان وإهباطه، ومن ذلك ما قاله (فويرباش) متهكمًا: «إن الفضيلة الدينية وعلى الخصوص الفضيلة العليا – أي فضيلة الأولياء – هي أن تنبذ الحياة المدنية والسياسية، وأن تطرح سائر الأعمال والأشياء الدنيوية كأنها لهو باطل لأجل أن تستطيع بدون ترويح لنفسك وبقلب منكسر أن تذبل في انتظار الجنة، وأن تقتل جميع عواطفك وأميالك الطبيعية وتميت نفسك وتذللها».

رأى علماء أوربا – والدليل الحسي بين أيديهم – أن رقي الإنسان منوط برقي العلم ونموه، وأن نمو العلم ورقيه مرتبط بانطلاق العقل من قيوده وتحرره من أصفاده وعدم سيطرة شيء من الأشياء على الأبحاث العلمية؛ حتى لا يتأتى

---

(١) فَأَنْحَوا عليهم: انهالوا عليهم. (م).

من تلك السيطرة ما حصل من نتائج المنابذة بين رجال الأديان ورجال العلوم في الأزمنة الماضية، قال المسيو (بلوك): «إن رقي القوة الفكرية وحسن الحكم على الأشياء يتعلق بنمو العلم، وقد تحصلنا على هذه النتيجة بترقية معلوماتنا التي هدمت أركان كثير من ضلالاتنا السابقة من جهة، ومن جهة أخرى باستعمالنا لحسن النظر والتدقيق في الأشياء».

لاعتقاد العلماء الأوروبيين بأن حرية العقل والعلم هي مناط كل السعادات المادية والمعنوية، تراهم لا يستطيعون أن يكتبوا تاريخ الضغط عليهما إلا بمزيد الانفعال والتغيظ من الماضي، متشفين من الذين يؤمِّلون أن يعيدوا الكرَّة. ولنترجم قطعة صغيرة من أقوال (لاروس) المشهور ليرى القارئ مقدار التحمس الذي يتذكر به علماء الغرب ضغط الزمان السابق، قال: «إن قلنا إن الإحسان يقتضي اعتقاد الأشياء المعقولة، يقولون: كلا كلا. ثم يسعون في تذليل هذا العقل الإنساني الذي يدعي لنفسه حق التمييز بين الخير والشر وبين العدل والظلم، حتى إذا أعموا عين العقل وغشُّوا باصرة البصيرة لدرجة بها ترى الكرامات كأنها أمور معتادة، وتظن الأبيض أسود، وتعد الرذيلة فضيلة، يعود الدين فيقول أطيعوا. نطيع من؟ هل نطيع العقل؟ هل الواجبات الطبيعية؟ هل الإحساسات القلبية؟ هل النواميس الحقيقية المفيدة للإنسانية، والتي تنتج من تلك القواعد نفسها؟ كلا. ولكن أطع وأنت أعمى إلى الذي يحكم باسم الله

حتى ولو أمرك بقتل مليكك أو أبيك أو بعمل مقتلة عامة، فإنه ليس لك لا رُوح ولا ضمير، إنما أنت ميت في الله».

إلى هذا الحد وأكثر وصلت مُنَاوَأَة[١] علماء أوربا للأديان الموجودة، ولكن هل نستنتج من هذه المناوأة أنهم تركوا التدين بالمرة، وزعموا أنهم استغنوا بعلمهم عن الإِخْبات[٢] والخضوع لخالقهم وخالق كل شيء، كلا. إنهم ليقرون مع أصحاب الأديان ويزيدون عليهم في استدلالهم بالأبحاث العلمية أن الإحساس الديني هو غريزة النفس البشرية لا تقل في الوضوح والتأثير عن الإحساس بضرورة الغذاء. قال (جييزلر) الفيلسوف الألماني في كتابه تاريخ الاعتقادات: «الدين مخلد مثل خلود الإحساس الذي ينتجه. ولكن علوم الدين هي مثل سائر العلوم الأخرى يجب أن تكون قابلة للرقي على قدر الرقي العقلي، وذلك مثل العلاقة الموجودة دائمًا بين الحقوق وعلم التشريع، فالحقوق لا تتغير ولكن علم التشريع يجب أن يتغير ويتهذب على الدوام».

وقال المسيو (آرنست رينان) في كتابه المسمى تاريخ الأديان: «من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها. ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة. ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى، بل سيبقى أبد الآباد حجة ناطقة على

(١) مُنَاوَأَة: معارضة ومعاداة. (م).
(٢) الإخبات: الخشوع والإنكسار. (م).

بطلان المذهب المادي الذي يود أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة للحياة الطينية».

ملخص الأمر أن علماء أوربا الذين يُركن إليهم مجمعون على أنه من المحال أن تزول من النفس غزيرة التدين كما يستحيل أن تزول منها غريزة الحب أو البغض، ولكنهم قرروا مع ذلك - وكتبهم شاهدة عليهم - أن لا دين من الأديان الموجودة يصلح لأن يكون الدين العام للجمعية البشرية المستقبلة ولا الحاضرة. لماذا؟ قالوا لعدم انطباق أساساتها على قواعد العلم ولمعاكسة نصوصها لبدائه العقل ولتقييدها الأمور تقييدًا ينافي ما عليه المدارك البشرية من الحرية والانطلاق، ولذلك قال أحد فلاسفة أوربا إن الدين كان يبقى غير قابل للزوال والتلاشي إذا كانت قواعده مطلقة عن الحدود وأصوله مجردة عن القيود، كما هو استعداد الإنسان للكمال المطلق وأهليته للرقي الذي لا يحده وصف الواصف، وتقولون إنه لو كان دين من الأديان الحاضرة يستطيع أن يؤلف بين العاطفة الدينية المغروسة في جِبِلَّة الإنسان وبين مطالب الحياة وواجباتها ويسير بالجمعية البشرية إلى حيث هدتنا إليه الأبحاث العلمية من السعادة المرجوة، للزم الاعتراف بضرورته اعترافًا قطعيًّا. قال (لاروس) بعد أن ندد بنظامات الأديان ما يأتي: «ليست هي الديانة التي تحث الرجل على أداء واجباته، بل هو الفكر العام وقوة الطباع والعواطف التي تنشأ في داخلية العائلات تحت ظل ذلك الفكر العام الذي هو نفسه يزيد تهذبًا ولطفًا كلما تقدمت المدنية والمعلومات.

فإن عرّفت الديانة بأنها مجموع أفكار صالحة لربط جميع أفراد البشر إلى جمعية واحدة متمتعة بالفوائد المادية كما هي متنورة في القوة العقلية، فقد حق لك إذن أن تقول إن الدين ضروري للنوع الإنساني». انتهى.

هذا ومن الأدلة الحسية على أن العقل البشري مهما ترقى وتقدم فلا يستطيع أن يعيش بلا دين، هو أن طائفة كبيرة من علماء أوروبا قامت بتأليف ديانة سمتها الديانة الطبيعية، ولم يُدخلوا إليها من القواعد والأصول إلا ما دل على حقيته البرهان وقام بالدلالة عليه الحس والعِيان، وسيأتي في الكلام على أسس الإسلام على أهم قواعد ذلك الدين الجديد ليرى المسلمون بأعينهم أن دينهم لم يترك مجالاً لجائل ولا مقالاً لقائل ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[آل عمران/ ٨٣].

ما هو الإسلام ؟

أي بليغ يتصدى للكلام على الإسلام ولا يشكو من العجز التام والقصور البين عن القيام بتوفية هذا المقام السامي حقه من التبيين؟ وأي حكيم يتعرض لتفصيل بدائع هذا الدين الحنيف ولا يعد نفسه من القاصرين المقصرين ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان/٢٧].

أي مادة غزيرة وقريحة سامية وعالمية شاملة يجب أن يتصف بها الإنسان لأجل أن يمكنه فهم وتفهيم هذه النواميس الأزلية الأبدية التي تدور عليها الأدوار وتمر به القرون والأَعْصَار، وهي هي كما كانت نواميس يزيدها القِدم شبابًا، ويلبسها الزمان من الجدة جلبابًا، وتودعها الأجيال للأجيال، ولا يدركها إلا الذين أنار الله بصائرهم بنور العرفان، وأطلع في سماء أفكارهم شموس البيان: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت/ ٤٣].

إنا نقول بتمام الحرية وكمال الاستقلال والعلم نصيرنا والعقل ظهيرنا، إن الإسلام هو سِنام الكمال الأعلى الذي خُلق الإنسان وأُعد للرقي إليه، والذي لأجله وضعت فيه غريزته الدأب والبحث عليه، بل الإسلام هو أمنية النفس البشرية التي فُطرت لتنشدها وتتحسسها كأعظم غاية لها وأسمى نقطة لكمالها، فهي لا تفتأ تتطور في كل الأطوار وتدور مع كل الأدوار بحثًا عن تلك الضالة العزيزة المنال، والتي في وجودها راحة لها من البلبال، ومقنع لها من كل الآمال والأميال.

نعم الإسلام هو الغاية الكمالية التي مات دون نيلها الحكماء، وفني قبل اكتناهها العلماء، الإسلام هو القانون الأقوم والناموس الأعظم الذي مَنَّ الله به على هذا النوع الضعيف ليقيم أَوَدَ[١] حالتيه، ويغنم به سعادة حَيَاتَيْه، ويجعله

(١) أَوَد: اعوجاج. (م).

الركن الذي يعتمد عليه ويهرع في الشدائد إليه، مَنَّ به على هذا النوع خاتمة للأديان، وتاجًا على هامة الزمان، وفي الحين الذي تم فيه نمو عقل الإنسان ليكون حجة من الله على عباده تنطق بالحق وتصدع بالعدل وترينا طريق الهدى بالحجة لكي لا يكون للإنسان بعد أن بلغ رشده تَعِلَّة[1] في رفضه ولا قوة في دحضه.

الإسلام دين خدمته العلوم الطبيعية على غير علم من ذويها، حتى صارت نصوصه في هذا القرن أوضح من الضياء، وأسهل جولانًا في العقل من الشعاع في الماء، فلا قاعدة دلت عليها التجارب، ولا نظرية تأسست بشهادة المشاعر يكون لها أثر في ترقية الإنسان وتحسين بناء العمران إلا وهي صدى صوت آية قرآنية أو حديث من الأحاديث النبوية، حتى يُخيل للرائي أن كل جد ونشاط يحصل من علماء الكرة الأرضية في سبيل رفعة شأن الإنسانية لا يُقصد به إلا إقامة الحجج التجريبية على صحة قواعد الديانة الإسلامية ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت/ ٥٣].

بناء على ما قدمنا فلن يمكن صدم تيار الإسلام بأي وسيلة كانت، لأنه لا فرق بين صدمه وبين صدم المدنية الإنسانية والترقيات النفسية وبين محو النصوص العلمية العملية ورد الناس إلى الحالة الأولية. وهذا أمر لن يقدر عليه مجموع الإنس

(١) تَعِلَّة: حجة يتعلل بها. (م).

والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة/ ٣٢].

فلنشرع الآن بعون الله تعالى في إثبات أن كل ما نقرأه من قواعد المدنية العصرية ليست بالنسبة إلى قواعد الديانة الإسلامية إلا كشعاع من شمس أو قطرة من بحر، وأسهل سبيل يوصلنا إلى هذا الغرض هو أن نتكلم على أسس المدنية الحالية، ثم نثبت أنها بعض أسس الديانة المحمدية بطريقة واضحة جلية، فنقول:

ما هو الدين؟

إن لفظة دين قديمة جدًّا كَقِدم مسمَّاها، وشائعة بين كل الطوائف البشرية سواء حاضرها وباديها، وَحْشيُّها ومتمدنها، ولكنهم لم يدركوا معناها على الوجه الحقيقي الذي جاءت به الشرائع الإلهية، والذي ينطبق على رحمة الخالق وعنايته، ومن يتدبر التاريخ ير الشعوب المختلفة قد تطوّرت أطوارًا كثيرة في فهم معنى هذه الكلمة على حسب تطوّر العقل البشري في فهم المعقولات.

كان الأقدمون لا يعرفون الدين إلا أنه مجموع احتفالات عمومية، تُضحّى فيها الحيوانات أو أسرى الحروب إرضاء لمعبوداتهم وتسكينًا لغضبهم، ثم لما ترقت

المدارك الإنسانية ونمت فيها الغريزة العقلية بِطُروّ[١]. العلوم والفنون أخذ معنى الدين ينجلي شيئًا فشيئًا وَيقرُب رويدًا رويدًا من المعنى المراد لله والذي جاءت الأديان تأمر الناس بفهمه كذلك.

نحن هنا قبل أن نتكلم على ماهية الدين بالمعنى المراد للإسلام يجب علينا أوّلاً أن نتكلم على ما يفهمه علماء أوروبا من هذه اللفظة بعد أن فحصوا العلوم فحصًا وأوسعوا الكون بحثًا عن نواميسه وتنقيرًا عن قوانينه؛ لنجعل هذا من بعض الأدلة الحسية على نظريتنا من أن كل خطوة يخطوها العالم في سبيل فهم الحقائق هي تقرّبٌ ظاهر إلى الإسلام، فنقول: إن علماء أوروبا بعد أن دخلوا في كل دور يمكن أن يدخله الإنسان المعرض لكل أصناف الفتن العلمية – ومن يطالع تاريخ العلم من أول سقراط للآن ير العجب – عادوا الآن حيث الهدوّ شامل وبدر العلوم كامل، فاعترفوا عن بينة بأن لهذا الكون خالقًا قادرًا حكيمًا متصفًا بكل صفات الكمال ومنزهًا عن أقل ما يُشْعِر بالنقص، وأنه – جلَّ سلطانه – وضع الكون على نظام مخصوص يستطيع من ينظر إليه بروية أن يستنتج منه تلك الصفات العُليا استنتاجًا محسوسًا، وأن يتعلم منها أمورًا يغني الجري عليها مع قلتها وسهولة فهمها عن ألوف القواعد والتعاليم التي كانت تلقى على الناس فيحنون رؤوسهم خضوعًا لها، ولكن على غير فهم لحكمتها ونتائجها. ثم رأوا بالاستقراء لنظام الكون ونواميسه أن الخالق – جلَّ

(١) بِطُروّ: ببروز. (م).

شأنه – يتعالى علوًّا كبيرًا عن الاحتياج لكائن من صنع يده، بل هو غني بذاته عن كل ما عداه، ثم قالوا إن غناه هذا لم يمنعه عن الاهتمام بمخلوقاته اهتمامًا يدل على عظيم رحمته وسعة رأفته، وأقل نظرة في الوجود تدل على صدق هذه النظرية دلالة حسية:

انظر إلى أصناف النباتات والحيوانات من أدناها إلى أعلاها تر آثار هذه المرحمة الكبرى تتجلى للإنسان تجليًا يبعثه رغم أنفه إلى محبة ذلك الخالق العظيم؛ فإنه – جلَّ سلطانه – لم يترك كائنًا من الكائنات إلا ووهب له ما يقيم له أَوَد حياته، ويحفظ بقاءه، وما يدفع عنه البوائق والجوائح إلا ما يستلزمه نظام الكون، ويكون في حصوله أثر مرحمة أسمى ورأفة أعلى بمجموع هذا الوجود، ثم إن إلهًا هذا شأنه لا يحمِّل الإنسان من العبادة إلا ما فيه حكمة بالغة وفائدة عظمى لذات الشخص وبني نوعه وسائر أجزاء الطبيعة؛ لأن مجرد التدبر في جميع أنواع الكائنات يدلنا دلالة واضحة على أن خالقها لم يخلقها وهو مريد إفسادها وملاشاتها، بل خلقها وأراد إصلاحها وبقاءها؛ ومما يدل على ذلك إيداعه فيها القابلية للترقي والتدرج لدرجة حُدِّدت في سابق علمه. ولما كان الإنسان لا يفترق في النسبة إلى الله عن سائر الكائنات الأخرى، بل يزيد عليها في كونه نهاية الإبداع وغاية الاختراع، فيكون بالأولى خاضعًا لناموس الرقي والتدرج، وقابلاً له أكثر من سواه.

هذا هو الواقع، فإن من يتأمل في مبلغ الرقي الذي حصله الإنسان من أول نشأته إلى الآن يتحقق أن الخالق ﷻ وهبه من الخصائص ما يستمر به ترقيه وتدرجه إلى نقطة لم يصل إليها الفكر البشري للآن، ثم قالوا وبما أن أفعال الله مجردة عن العبث والتناقض فيجب أن تكون تلك العبادة المرغوبة لله تعالى موافقة للنواميس الثابتة السائدة في الكون كله، وملائمة للأميال والإحساسات المغروسة في جِبِلَّة النوع الإنساني، فاستنادًا على هذه البدائه العلمية التي لا يصح الامتراء فيها بنى طائفة عظيمة من علماء أوروبا ديانتهم الطبيعية، وإليك ما قاله في هذا الموضوع أحد نصرائها وهو الفيلسوف الشهير (جول سيمون) قال: «إنّا نؤدي في أثناء هذه الحياة الواجب الذي رسمه الله تعالى لنا تحت رعايته وعنايته، وعندما ينتهي بقاؤنا فهو إما أن يثيبنا وإما أن يعاقبنا» ثم ذكر الأسباب التي تقتضي الإثابة والعقوبة فقال: «أما الأمر الذي يقتضي المثوبة الحسنة فهو طاعة الإنسان لقانونه الخاص وعمله للخير، أما قانون الإنسان الخاص فهو حفظ ذاته وترقية خصائصه المودعة فيه، ثم هي محبة وخدمة إخوانه، ومحبة وعبادة خالق ذاته، ولكن ما هي الطريقة التي يعبد بها الإنسان ربه؟ إن أداء الواجب وعمل الخير هو عين العبادة والحب والعمل والإخلاص هي نفس العبادة ونفس الصلاة، والإخلاص للوطن هو عين خدمة الله تعالى. هذه هي الديانة الطبيعية، وهذه هي العبادة الطبيعية، كل أصول مذهبنا هذا واضحة لا رموز فيها، أما أصوله فهي الاعتقاد بوجود إله قادر على كل شيء ولا يغيره شيء، خَلَق العوالم وحكمها بقوانين ونواميس عامة، ووجود حياة أخرى تؤدي لنا كل وعود

هذه الحياة وتكافئ المظالم بالجزاء الأوفى، هذا هو اعتقادنا. فأما صلاتنا فهي أن يكون قلبنا مملوءًا بمحبة الله تعالى ومحبة الإنسان، وأن تكون لنا إرادة ثابتة في أداء الواجب وخدمة إرادة الله تعالى بعمل الخير والبر» اهـ.

وهنا نستدرك فنقول إن أصحاب هذه الديانة لا يكرهون العبادة الجسمية مطلقًا كما يؤخذ ذلك من كلام (جول سيمون) في غير هذا الموضع، إلا أنهم فقط لا يحتفلون بعبادة جسمية لا يكون من نتيجتها فائدة أدبية تذكر، فهم يريدون أن تكون معتبرة وسائل لإحياء القلوب وتطهيرها من أدناسها لا أغراضًا قائمة بنفسها مجردة عن كل غاية. قال (كانت) الفيلسوف الطائر الصيت: «العبادة الخارجية لا تكون رديئة إلا إذا اعتبرت أغراضًا لا وسائل، وهي يمكن أن تكون نافعة مفيدة إذا لم تعتبر إلا وسيلة لإيقاظ وتقوية العواطف الفاضلة في النفس البشرية».

أما نحن فنلخص من كل هذه الأقاويل أربعة أمور مهمة هي مذهب علماء أوروبا في الدين وهي: أولاً: الاعتقاد بأن الله غني عنا وعن أعمالنا، وأن ما نعمله من الخير لا نتيجة له إلا منفعتنا الخاصة. ثانيًا: إن الله تعالى رحيم بالإنسان ويود صلاحه ولا يكلفه بالعبادة إلا لفائدة نفسه. ثالثًا: إن العبادة يجب أن تنطبق على النواميس الثابتة للحياة وتلائم الطبيعة البشرية لا أن تعارضها وتسعى في ملاشاتها. رابعًا: العبادة الجسمية يجب أن تعتبر وسائل لتطهير النفوس وتهذيبها لا أغراضًا مطلوبة لذاتها.

نقول إن هذه الأربعة الأمور التي لم يبلغها العقل البشري إلا بعد أن شابت ناصية الكرة الأرضية، وجعلت علماء القرن التاسع عشر يتيهون بها عجبًا ويميلون طربًا ليست هي إلا شعاعًا من الديانة الإسلامية وقطرة من بحرها الزاخر، ونحن لأجل زيادة الإقناع نأتي هنا على النصوص الشريفة التي تنطبق على هذه الأمور الأربعة مرتبة على حسبها فنقول: أولاً: قال تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت/ ٦] ثانيًا: قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة/ ١٨٥] وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة/ ٦] ثالثًا: قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة/ ٢٨٦] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء/ ٦٦] وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء/ ٢٨] رابعًا: قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ لم تَنْهَهُ صلاتُه عن الفَحْشَاءِ والمنكَرِ لم يَزْدَدْ مِن اللهِ إلا بُعْدًا» وقال عليه الصلاة والسلام: «كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إلا الجوعُ والعَطَشُ».

هذه هي عقيدتنا في فهم الدين. وقد رأيت أنها مطابقة للعقل والعلم تمام الانطباق ومتفقة مع النواميس الثابتة كمال الاتفاق، ولما كانت مطاعن علماء أوروبا على الأديان لم تتوجه إليها غالبًا إلا من هذه الوجهة الرئيسية

التي ينبني عليها سائر قواعد الدين، فقد حُقّ لنا أن ننادي بأعلى صوتنا: إن الإسلام أعلى وأسمى من أن يناله سهم من سهام ذلك التنديد الشائن، وأكبر وأجل من أن يلحقه طعن الطاعن.

هذه الأربعة القواعد يعتبرها علماء الديانة الطبيعية أركانًا تنبني عليها كل قاعدة قانونية يكون في العمل بها تقدم الإنسان إلى النقطة الكمالية التي أُعِدّ هذا النوع لبلوغها. ولما كان العلم هو المنوط إجماعًا بتحسس تلك القواعد المرقية للإنسانية، فهم يعتبرون كل قاعدة يُتَوَصَّلُ إليها من هذا القبيل كأنها قاعدة دينية في الجري على سنتها رضاء الخالق والقيام بطاعته.

أما المرويات القديمة - الأساطير التي مضى عليها ألوف من السنين مع ما استلزمتها من قواعد الدين - فقد صَدَفُوا عنها[١] وهجروها هجرًا كليًّا. قال (كانت): «الديانة الحقيقية الوحيدة لا تحتوي إلا على قوانين - أعني قواعد قابلة للتطبيق - نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة، وتكون مجردة عن الأساطير والتعاليم الكهنوتية» كأن (كانت) يريد أن يذكر المسلمين بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة/ ١٣٤].

---

(١) صَدَفوا عنها: أعرضوا عنها وابتعدوا. (م).

الناموس الأعظم للمدنية

إن من يتدبر في تفاصيل تاريخ الأمم من يوم تكوِّنها إلى الآن لا يرى فيها إلا أهوالاً تُشيب الولدان وتُرْعد فرائص الإنسان! يرى حروبًا دموية، وفتنًا اجتماعية، ومصائب أُسْرية، ومفاسد أخلاقية! يرى الأطماع والشهوات البهيمية لابسة لباس النفاق والوحشية، تسفك الدماء، وتيتم الأبناء، وتهدم كل بناء! يرى رجالاً رفعتهم الصدف الوقتية إلى مقاوم الشرف الوهمية، جعلوا ممن دونهم عبيدًا يمتصون دماءهم، ويبتزون ثراءهم لإطفاء جمرة شِرَّتهم وإشباع بطن نهمتهم! اللهم إلا بعض مستثنيات من السعادة كانت تشرق في بعض الأمم ثم تختفي ليحل محلها الشقاء والكمد.

هكذا ترى تاريخ الإنسان كله مملوءًا بالإحن والمحن، مفعمًا بالكدر والحزن مما يكرّه إليك بني نوعك ويحبب إليك اتهام نفسك، ولكنك لو علوت قليلاً عن مثار هذه القلاقل والزلازل، ونظرت إلى النوع البشري من وجهة أخرى، لرأيت بعينك أن هناك ناموسًا ثابتًا يبعث الإنسان من خلال هذه المضانك الاجتماعية والارتباكات العمومية إلى التقدم نحو الأمام رغمًا عما يساوره في جميع جهاته من هذه النوائب المصمية، ثم لو علوت عن مركزك هذا إلى أسمى منه لتحققت أن تلك الارتباكات كلها هي نواميس ثانوية تابعة لذلك الناموس الذي شاهدته أولاً، وأن تلك الارتباكات والمضانك هي أفاعيلها وآثارها تنفعل في العالم لكي يربح في بعضه ارتجاجًا يفصل عنه خبث الأخلاق البهيمية وَدَرَن

النزعات الوهمية، هذا أمر لا مُشَاحَّة فيه خصوصًا في عصرنا الحاضر، ويمكنك أن تهتدي إليه بقليل من الاستقراء فإنك لو فحصت كل نازلة مهمة ألمت بالعالم في عصر من عصور التاريخ لرأيت أنها جلبت معها فائدة عظمى لو وزنت مع المصيبة التي سبقتها لرجحت عليها رجحانًا يقلل من تأثرك من تلك المصيبة، بل يرضيك عنها رغمًا.

نحن في هذا الكتاب الوجيز لا نستطيع أن ندرس وقائع النواميس الاجتماعية التي بتأثير أفاعيلها على النوع الإنساني خرج من ظلم الجهالة والوحشية إلى باحة النور والمدنية، كلا، فهذه أمور تعوزنا لكثير من البحث والتدقيق يخرجنا عن نيتنا الأولى من جعل كتابنا هذا صغير الحجم شاملاً لأطراف موضوعنا، ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نلم بسر هذا التدافع الاجتماعي إلمامًا يسهل علينا بحثنا وينير لنا المسائل الاجتماعية الكبرى بطريقة ترينا الحقائق مجسمة أمام أعيننا لتكون حجة التطبيق أكثر إقناعًا، فنقول:

إن أول ضرورة شعر بها الإنسان بعد مقومات حياته الشخصية هي ضرورة الاجتماع على طائفة من بني نوعه، فكنت تراه من جهة ذاته على تمام الحرية لا يقيده شيء من الأشياء، ومن جهة أخرى ضعيفًا عاجزًا لدرجة تلزمه أن يضحي بعضًا من هذه الحرية في سبيل إقامة أَوَدَ حياته هربًا من فناء عاجل، لهذا أجمع علماء العمران على أن الإنسان مطبوع على الاجتماع رغم أنفه؛ لأنه من مقومات حياته التي لا يمكنه أن يستغني عنها كما لا يمكنه أن يستغني عن المأوى والملجأ.

بين هذه الحرية المطلقة التي يشعر بها الإنسان في نفسه، وبين احتياجه لأن ينضم إلى جمعية من بني نوعه، قامت كل الفتن التي يحدثنا بها التاريخ وترويها لنا السير، كما بُني عليها كل ما شاهدته وتشاهده من التفاعل في أجزاء النوع البشري جريًا وراء الغاية المتمناة، وعلى هذا فحوادث التاريخ كله في الأمم جمعاء مبنية على تحديد قواعد الحرية المعتدلة التي تليق بمقام النوع الإنساني، وعلى تحديد السلطة التي تستلزمها حالة الاجتماع، ولم يزل النوع الإنساني للآن هدفًا للتدافع الهائل بين أجزائه طلبًا للاهتداء إلى الحد الفاصل بين هاتين القاعدتين، إلا أن هذين القرنين الأخيرين يمتازان عن سابقيهما بشدة القرب من ذلك الحد المعتدل بفضل الدماء الغزيرة التي سمح بها محبو الحرية في أوروبا في القرن الفارط[١]، مما لم يسبق له مثيل في عصر من العصور السابقة، قال علماء العمران: وهذه الحرية التي نالتها الأمم الأوروبية في هذا القرن الأخير هي سبب كل الرقي الذي نرى آثاره الآن على ربوع أوروبا.

ما هي تلك الحرية التي جاهدت أوروبا لنيلها جهاد الأبطال، وبذلت لتحقيقها كل مرتخص وغال؟ هل هي بعيدة عنا بعد السماء من الأرض أو بعد اجتهاد أوروبا من خمول الشرق؟ كلا، هي بين أيدينا، ولكنا غافلون عنها كغفلة الغني الأبله عما بين يديه من الكنوز التي لو صادفت مالِكًا كُفُؤًا لساد بها على غيره، ولأطلق الألسنة بالثناء على خيره، نعم هي بين أيدينا ولو شئنا لعملنا بها

(١) الفارط: الماضي. (م).

وجرينا على سنتها ونحن آمنون مطمئنون لا نتكلف في سبيل تأييدها بذل المهج ولا اقتحام الرَّهَج[1]، بل هي من محفوظاتنا عن ظهر قلب ولا نتكلف إلا فهمها على حقيقتها ببذل قليل من التدبر، لو فعلنا ذلك حصلنا الغرب في قليل من الزمن، فلا يسعه وقت ذلك إلا أن يندهش من سرعة رقينا كما اندهشت دولتا الرومان والفرس من سرعة انقلاب حالة العرب من الوحشية إلى المدنية العليا في بضع وعشرين سنة.

ما هي تلك الحرية التي يقول عنها المسيو (د. فيو): «الحرية هي أفضل سعادات الدنيا» والتي يقول عنها (باشيا): «الحرية هي أصل كل الرقي الإنساني» والتي يترنم بحسنها (فيكتور هوجو) ويقول: «يمكن أن يقال إن الحرية هي الهواء الذي يجب أن تستنشقه النفس الإنسانية» هل هذه الحرية هي الانفراط الكلي من كل قيد والانخلاع المطلق من كل رابط، كلا، فتلك حرية الحيوانات التي لا نحسدهم عليها، بل الحرية التي يتوق إليها فلاسفة الأمم هي الحرية المعتدلة التي تسمح للإنسان باستعمال جميع خصائصه بدون أن يخشى مسيطرًا عليه إلا إذا تعدى حدوده المحددة له بواسطة الشريعة العادلة، وكان تعديه ذلك مضرًّا ببعض أعضاء الجمعية التي هو فرد منها.

---

(١) الرَّهج: الغبار. (م).

هذه هي الحرية التي يتلمسها عقلاء الأمم من يوم أن تَسَنَّموا[١] هامة هذه الكرة الأرضية وها هم لم يزالوا للآن في جهادهم الأول، ولو كانت أشكاله تغيرت عما كانت عليه أيام كانت القَنَا[٢] والقواضب[٣] هي صاحبة القول الفصل والكلمة العليا، ونحن هنا قبل أن نتكلم عليها لأجل أن نطبقها على قواعد الديانة الإسلامية، يجب علينا أن نتكلم قليلاً عن جهاد النوع الإنساني وراءها من منذ بدء الخليقة لنستطيع أن نقف على تفاصيل المسألة من أولها إلى آخرها، ولنستدل على القواعد الأساسية التي قامت عليها حرية الأمم المتمدينة فنقول:

جهاد الإنسان لنيل الحرية

الإنسان حر بطبعه ولا يحتاج إلى مرشد يرشده إلى الحرية لأنها من العواطف الشديدة التأثير عليه، اللهم إلا إذا توصل إلى تعكير وجدانه بالخزعبلات المطفئة لنور البصيرة كما حصل في كثير من الأمم، ولكن لما كانت الحرية المطلقة أي حرية الحيوانات تبطل عمل كثير من الخصائص المودعة في الإنسان، والتي لا تتم إلا بالاجتماع، رضخ الإنسان لأن يضحي قليلاً من تلك الحرية في سبيل ممارسته تلك الخصائص، من هنا نشأت السلطة مع ما استلزمته من المقتضيات التي

(١) تسنّموا: اعتلوا. (م).
(٢) القَنَا: الرماح. (م).
(٣) القواضب: السيوف والأقواس. (م).

أخرجت تلك السلطة عن حدودها في كثير من الأحوال، ذلك أنه لما كان من ضمن أميال الإنسان المودعة في جِبِلَّته حب التسلط والعلو على سواه وجدت بعض النفوس مساغًا إلى تحقيق أمانيها من التسلط المطلق ومجازًا إلى متابعة هواها من التعالي الإفراطي على الغير، وتذرعت لذلك بكل الذرائع الممكنة.

ولما كانت وسائط التسلط لا تنجح إلا إذا واجهت الإنسان من أشد عواطفه تسلطًا عليه، وجد محبو القهر والجبروت أن أنجع تلك الطرق هي التأثير على الإنسان من طريق الدين، وكان الجري على هذه الطريقة سببًا في تحريف أكثر الأديان وإخراجها عن نصوصها الأصلية، طمعًا في امتلاك أَزِمَّة القلوب[١] والسيطرة على العقول، فكانوا يتربصون لكل حركة يأخذها العقل طلبًا للتخلص من أَوْهَاقه[٢] القاتلة فيبتكرون له من أنواع التخرصات الدينية ما يقف أمامه ولو حينًا من الزمان دَهِشًا مذعورًا، حتى إذا صده ما يراه أمامه وأخذ يتحرك يَمْنة أو يَسْرة أتوا إليه في الحال بما يثبط من تلك الحركة أو يمنعها من الانتشار. وهكذا دام الحال قرونًا كثيرة جدًّا في خلالها كانت كلمة أولئك المسيطرين هي الكلمة العليا، وأمرهم هو الأمر النافذ، حتى طرأ على العالم من تأثير نواميس الرقي ما يفكهم نوعًا ما من رِبقة[٣] ذلك الاستعباد المطلق لرجال الدين فنشأت سلطتان: سلطة دينية وأخرى سياسية، فحصل بينهما من التدافع والتجالد مالا تكفي

---

(١) امتلاك أَزِمَّة القلوب: السيطرة عليها والتحكم فيها، وأزمة جمع زمام، وهو الحبل الذي يُشد به. (م).
(٢) أوهاقه: قيوده. (م).
(٣) رِبقة: قيد. (م).

المجلدات لتبيين أهواله حتى توصلت بعض الشعوب المرتقية في هذين القرنين إلى التخلص من نِيْر السلطة الدينية[١] كما افْتَكَّت نفسها[٢] أيضًا من غلو السلطة السياسية ففرحت تلك الشعوب بما حصلته من الحرية بعد ما شابت ناصية الغبراء[٣] وسترت مشيبها بالدماء، فأخذ علماؤها يؤلفون الأسفار الضِخام ترنمًا بتلك النعم الجزيلة، وطفقوا يشنون غارة شعواء على كل الأديان بما لا نستطيع إثباته هنا، وتغالوا فأنذروا سائرها بالزوال، ولم يعلموا أن كل ما نالوه بعد التي واللَّتَيَّا[٤] ليس هو إلا تقربًا إلى الإسلام الذي أشرق نوره على العالم يوم كانت أوروبا في ظلم الجهالة الحالكة.

جاء الإسلام في وقت كانت فيه الدنيا بأسرها خاضعة لدولتين عظيمتين هما: دولة الفرس ودولة الرومان. أما الأولى فكانت القلاقل الداخلية والخارجية آخذة في زعزعة بنيانها وتقويض جدرانها، وأما الثانية فكانت لم تزل على جانب عظيم من عظمتها الأولى، وكانت لم تبرح تزلزل الأمم بسطوتها وتدوّخ البلاد بقوتها، وكان فيها شطر عظيم من مدنيتها السابقة أي مدينتها التي يقول عنها (لاروس) في دائرة معارفه ما يأتي: «ماذا كانت نظامات الرومان على وجه الإجمال؟ كانت عين الوحشية والقسوة مرتبة في صور قوانين. أما من جهة فضائل روما مثل الشجاعة والمكر والتبصر والنظام والإخلاص المطلق للجمعية

(١) نير السلطة الدينية: قيودها وسطوتها. (م).
(٢) افتكت نفسها: خلصتها. (م).
(٣) الغبراء: الأرض. (م).
(٤) التي واللَّتَيَّا: الدواهي والمصائب. (م)

فهي بعينها فضائل قطَّاع الطرق واللصوص، أما وطنيتها فكانت مكتسية لباس الوحشية، فكان لا يرى فيها إلا شَرَهًا مفرطًا للمال وحقدًا على الأجنبي وضياعًا لإحساس الشفقة الإنسانية، أما العظمة في روما والفضيلة فيها فكانت عبارة عن إعمال السوط والسيف في العالم، والحكم على أسرى الحروب بالتعذيب أو بالأسر، وعلى الأطفال والشيوخ بجرّ عربات النصر».

نحن لم ننقل هذه المقولة في هذه المناسبة إلا لنُري القارئ مبلغ المدنية في ذلك الوقت عند أعظم أمم الأرض ليتحقق أن كل ما سيراه من أساسات الإسلام الطاهرة ليس بالأمر المستعار من أية أمة من الأمم الأخرى، كما عسى أن يتوهمه بعض القاصرين، ولن نكتفي بهذا، بل سنثبت ذلك من أقوال أساطين علماء أوروبا أنفسهم.

قلنا إن الأمم المتمدينة نالت من الحرية في هذا العصر ما بنت عليه كل رقيها العقلي والخلقي، مما حدا بأكثر علمائها أن يدّعوا أن تلك الحرية منافية لنصوص الديانات كافة كما أسلفنا ذلك، وبنوا على فكرتهم هذه وجوب زوالها كلها في مستقبل قريب وحلول العلم محلها في قيادة الإنسان إلى سعادته، أما نحن فسنبرهن بالأدلة الحسية على أن الإسلام فضلاً عن كونه لا يعارض تلك الحرية التي رفعت الغرب من وَهْدَته[١] فإنه يحتوي على قسط منها لا تقارن به حريات العالم على أنواعها إلا كما يُقارن الخيال بالحقيقة.

---

(١) وَهْدَته: هُوَّته. (م).

إن حرية العالم المتمدن التي نشاهدها الآن على ما بها من عظم وجلالة لم تتأيد دعائمها ولم تثبت وطائدها إلا بواسطة ثلاث حريات بسيطة أخرى، كانت بالنسبة لها كأعمدة ثلاثة بالنسبة لبناء فاخر، أما هذه الثلاث حريات الأولية فهي: أولاً: حرية النفس. ثانيًا: حرية العقل. ثالثًا: حرية العلم. ولنتكلم على كل منها بوجه الإجمال مع إثبات أنها بعض قواعد الإسلام فنقول:

١- حرية النفس

إن أكبر وسيلة تذرع بها مذللو النوع الإنساني للسيطرة والقهر هي حرمانهم النفوس البشرية من حقوقها الطبيعية وتجريدها من أهم خصائصها الفطرية، وجعل تلك الحقوق والخصائص تحت تصرفهم الخاص، يوجهونها إلى حيث شاء هواهم ووافق كبرياءهم، فكانت كلمة (اعتقد وأنت أعمى) كما قال (لاروس) هي القاعدة المتبعة والناموس السائد على كل فرد من أفراد الأمم، وكانوا إذا آنسوا من أحد من الناس بارقة التحرك إلى التَّفَصِّي[1] من وثاقه الثقيلة أسرعوا بالحكم عليه بالمروق من الجمعية القدسية، وجعلوه طُعمة للنيران، أو أذاقوه من العذاب ما يقشعر له جلد الحيوان.

انتحلوا لأنفسهم حق الوصاية على النوع البشري، وكلفوا أنفسهم تربية صغاره، فنقشوا في مخيلاتهم من التعاليم والقواعد ما يجعلهم إذا شبوا آلات صماء

(١) التفصي: التحرر والتخلص. (م).

في أيديهم، يستعملونها كيف شاءوا وفي أي غرض أرادوا، غرسوا في أذهانهم أن السعادة والشقاوة الأبديتين معقودتان بإرادتهم ومرتبطتان بمشيئتهم ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون/٧١] فنشأ الناس طبقًا للقالب الذي صبهم فيه قادتهم، وكانوا كلما تحركت ضمائرهم وتململت أنفسهم ناداهم مما انطبع في سرائرهم من تلك التعاليم منادٍ يقول لهم: «كلا إنه لا أنفس لكم ولا ضمائر، ما عليكم إلا أن تطيعوا طاعة عمياء!».

من هنا ماتت الحرية النفسية ومات ما يُبنى عليها من حرية المدارك المربية لأنواع المَلَكات؛ فلم يسع الطبيعة البشرية إلا أن أقامت الحجة عليها، فَنَغَلت(١) النيات، ودَوِيَتْ الصدور(٢)، وتشعبت الهواجس في النفوس، وافْعَوْعَمَتْ(٣) الأفئدة بالأضغان والإحن، ووقعت الجمعيات في حيص بيص، وكان الناس فيها كقطع الخشب في المِرْجَل(٤) تغلي على تَنُّور(٥) يُصعدها ويُنزلها غليان الصدور واضطرابات الأمور، فنشأت الثورات الدموية بفظائعها التي لا تنطبق على إحساس ولا تدخل تحت قياس، حتى كان ما كان مما يعلمه كل إنسان لديه قليل من علم العمران.

في أثناء تلك الظُّلَم الحالكة وقيل تلك القلاقل المزعجة، كان خالق الإنسان موجهًا عنايته السامية إلى تربية الأمة العربية في وسط الشِّعاب والصخور على

(١) نَغَلت: ساءت. (م).
(٢) دَوِيَتْ الصدور: انطوت على الحقد. (م).
(٣) افعوعمت: امتلأت. (م).
(٤) المِرْجَل: القِدْر. (م).
(٥) تَنُّور: فُرن. (م)

مقتضى قواعد الحكمة العظمى التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ ليجعل منها أمة تقيم الحجة على لسان الجبار الأعلى، وتؤدب الطاغين بيد القهار الأقوى، حتى إذا ثابت الأمم إلى السكون بعد أن تنال من المدنية ما قُدّر لها في العلم المصون، وتاقت إلى فهم ما يدعيه المسلمون من أن دينهم هو الكنز المكنون والسر الذي قامت به السموات والأرضون، وجدوا أن كل ما وصلوا إليه بعد بذل المهج واقتحام الرَّهج ليس إلا صورة منعكسة من تلك التعاليم الإلهية! ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت/ ٥٣].

فهلم ننظر الآن فيما يقوله الإسلام في حرية النفس؛ لتثبت لقادة الحكمة ونُصَراء النوع الإنساني أن كل النظريات التي يفتخر بها علماء هذا القرن ما هي إلا صدى الصوت الذي رن بين شعاب مكة والمدينة قبل زُهاء[١] أربعة عشر قرنًا فنقول: جاء الإسلام واضعًا لأساس المساواة بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات/ ١٣] وقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ اللهَ قد أَذْهَبَ بالإسلامِ نَخْوَةَ الجَاهِليّةِ وتَفَاخُرَهُم بآبائِهِمْ؛ لأنَّ النَّاسَ من آدمَ، وآدمُ من ترابٍ، وأَكْرَمهم عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُم».

فانمحى بذلك كل فضل يمكن أن يُدّعى بأصالة المَحْتِد أو بوفرة الغنى أو بالانتساب إلى قبيلة إلى غير ذلك من دواعي الامتياز وبواعث الانحياز، وجعل التمايز بالمزايا والأعمال بالفخفخة والأقوال فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ

(١) زُهاء: ما يقارب. (م).

أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات/ ١٣] وقرر أن التقوى ليست من الأمور التي يمكن للإنسان أن يحكم عليها بمجرد النظر إلى أفعال الرجل في الطاعات واجتهاده في أصناف العبادات، فربما ذهب ذلك كله هباء منثورًا لعقيدة رسخت في فؤاد فاعلها لا يطلع عليها غير الله تعالى. قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات/ ١١]. وقال النبي - عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الرَّجُلَ ليَعْمَلُ بعمَلِ أَهْلِ الجنَّة حتَّى لا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إلا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَليهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا. وإنَّ الرجلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهلِ النَّارِ حتَّى لا يكونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إلا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَليهِ الكِتابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجنَّةِ فَيَدْخُلُها».

قرر الإسلام أن قبول الأعمال الصالحة هو من خصائص الله تعالى، فليس للعبد أن يحكم على تقوى يراها في غيره بالقبول أو الرد، بل يجب عليه أن يدع الحكم فيها للخالق - جل شأنه - حتى ولو بلغت تلك التقوى بصاحبها إلى درجة أعلته عن سائر أصناف الخلق. قال عليه الصلاة والسلام: «دَعُوا المحدثِينَ مِنْ أُمَّتي (أي الذين تُحَدِّثُهم الملائكة) لا تَحْكُمُوا لهم بِجَنَّةٍ ولا بِنَارٍ حتى يكونَ اللهُ هو الذي يَقْضي بينهم يومَ القيامَةِ» وقال عليه الصلاة والسلام: «ويل للمُتَأَلِّينَ[(١)] من أُمَّتي الذين يقولونَ هذا للجنَّةِ وهذا للنَّارِ».

(١) للمُتَأَلِّينَ: للمقسمين بحكم الله، كأن يقول أحدهم: والله ليدخلنَّ فلان الجنة أو ليدخلنَّ النار. والحديث ورد بصيغة «ويل للمُتَأَلِّين من أمتي، الذين يقولون: فلان في الجنة، فلان في النار» (م).

لم يعين الإسلام طائفة من المسلمين لأمر خاص بامتيازات خاصة تعلو بهم أمام القانون الإلهي عن مرتبة أقل المسلمين مكانة وجاهًا، بل فتح للكل باب الفضل الربّاني، وقرَّر أن ذلك الباب مفتوح للكافة على السواء، يلجه من أراد الولوج بدون احتياج ولا عوز لمرشد غير كتاب الله وسنة رسوله، ولم يكتف بذلك بل حذر كافة متبعيه من الوقوع في أَشْراك[١] من يدَّعون الإشقاء والإسعاد أو ينتحلون لأنفسهم حقًّا ليس لسائر الأفراد. قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قَالَ أَنَا عَالِمٌ فَهوَ جاهلٌ» وقال عليه الصلاة والسلام: «أَخْوَفُ مَا أَخافُ عَلى أمَّتي رَجُلٌ يَتَأَوَّلُ القرآنَ، يَضَعُه في غيرِ مَوَاضِعِهِ، وَرَجُلٌ يَدَّعي أَنَّه أحقُّ بهذا الأمرِ مِنْ غَيْرِهِ».

أكد الإسلام لمتبعيه أنه لن يغني عن المرء يوم الحساب غير عمله، ولن ينجيه من غائلة[٢] العذاب غير مكتسبات نفسه، فلا يجديه الانتساب إلى عظيم أو الاعتزاء إلى أب كريم، قال الله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ [النجم/٣٩-٤٠] وقال جل شأنه: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون/ ١٠١] وقال خاتم النبيين ﷺ: «يا عباسُ ويا صفيةُ عَمَّي النبيِّ، ويا فاطمةُ بنتُ مُحمَّدٍ، إني لستُ أُغني عَنْكُم مِن اللهِ شيئًا، إنَّ لي عَمَلي ولَكُم عَمَلكم». لهذا وردت الأوامر الإلهية موجَّهة إلى سائر الأفراد على السواء، ومُكَلَّفة أصغر عضو من أعضاء الجمعية الإنسانية بما كلِّفت به أكبر كبير فيها. قال عليه الصلاة والسلام: «كُلُّكُم رَاعٍ وَكُلُّ رَاعٍ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

(١) أَشْراك: فخاخ، جمع: شَرَك. (م).
(٢) غائلة: داهية، ومصيبة. (م).

هذه القواعد رفعت نفوس المسلمين عن ذلة الأسر لنفس بشرية أخرى، وسمت بها عن التقيد بإشارة غيرها لعلمها بأنها هي التي ستدان وحدها عما جنت، وتُسأل عما كسبت، وأنه لن تُغني عنها نفس مثلها مهما علت وسمت.

بمثل هذه الأساسات تتأسس روابط المؤاخاة وتتأكد عرى المساواة، ولا يكون السواد الأعظم من الناس مقودين إلى طائفة قليلة منهم، يُسيِّرونهم كيف يشاؤون ويوجهونهم إلى حيث يريدون، نعم بمثل هذه القواعد تسود المساواة، أتدري ما نتائج المساواة؟ المساواة هي مبدأ أوليّ لمعرفة الحقوق والواجبات، وأعظم مؤيد للعدالة والحرية بين سائر الأفراد، المساواة هي الفاروق الأكبر بين العدالة الحقة وبين العدالة الوهمية التي تنخر عظام الأمم وتمتص دم حياتها، قال نابليون: «المساواة هي ينبوع كل عدالة سواء كانت بين الشعوب أو بين الأفراد» وقال الفيلسوف (كوندرسيه): «المساواة الطبيعية لبني الإنسان هي القاعدة الأولى لمعرفتهم بحقوقهم، وهي أساس كل الأخلاق الحميدة».

ونحن لا نود أن نختم مقالنا هذا حتى نثبت أن المساواة التي تتمتع بها الشعوب المتمدينة الآن ليست بقديمة العهد، بل هي نبت الثورات الدموية التي حصلت في أواخر القرن الماضي، قال الفيلسوف (فرنك): «إن المساواة المدنية التي تأسست منذ نصف قرن عند بعض أمم أوروبا آخذة في الانتشار عند الأمم الأخرى تدريجًا» ونحن أما يحق لنا أن نتلو قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف/ ٤٣]؟!

٢- حرية العقل

إن أكبر خصائص الإنسان شأنًا وأعظمها أثرًا هي قوته العقلية، قلنا إن الإنسان لم يخلق كما خلق الحيوان مطبوعًا على عمل ما يقيم أَوَدَ حياته، بل خُلق مجردًا عن كل علم بما يستلزمه أمر بقائه، إلا أنه منح في مقابل تلك الجهالة القوة العقلية التي تكبر وتنمو بزيادة المعلومات فتغني الإنسان عن كل سوق طبيعي، وترفعه تدريجًا من الوحشية المظلمة إلى المدنية النيرة، ولكن منيت هذه الخصيصة الكبرى مثل سائر الخصائص العظيمة الأخرى لحكمة يعلمها الله تعالى بمن يسيطر عليها ويمنعها حينًا ما من تأدية وظيفتها على حسب قانونها المرسوم لها من القدم.

لم يتربص مذللو النوع الإنساني لمواهب الإنسان أكثر من تربصهم لهذه الموهبة الكبرى؛ لعلمهم أنها السلاح الحاد الذي لو جُرِّد من غمده لم تقف أمامه جيوش الأوهام ولا ظلمات الأحلام؛ فشددوا النكير عليها تشديدًا حرم الإنسانية من أعظم خصائصها، حتى صرحوا بأن استعماله في فهم ما يقولون يُفضي إلى الإلحاد؛ فوقع الناس في ظلمة من الجهالة أفضت بهم إلى حالة من الوحشية يحدثنا التاريخ بها وهو خَجِل من نفسه ناقم على أمسه، كان هذا حال الأمم في الحين الذي كانت فيه أصول المدنية الحقة وحرية العقل يمليها الحكيم العليم على خاتم أنبيائه محمد ﷺ، فبينما كان المسيطرون على الأمم يصيحون

في وجوه رعاياهم قائلين: «اطفئوا نور العقل، اطمسوا عين البصيرة، فإن الدين ينافي العقل» كان رسول الحق يقول لمتبعيه وأصحابه: «الدِّينُ هُو العَقْلُ ولا دينَ لمنْ لا عقلَ له» وبينما كان أولئك القادة الغالون يقولون لمقهوريهم: «تواصوا أيها الناس بترك العقل جانبًا فإنه يغضب ربكم عليكم ويجلب سخطه إليكم» كان صاحب المدنية الحقة ﷺ يقول لأصحابه: «يا أيُّها النَّاسُ اعقلوا عن ربِّكم وَتَوَاصَوا بالعَقْلِ تَعْرِفُوا مَا أُمِرْتُم بِهِ وَمَا نُهِيتُم عَنْه، واعْلَمُوا أنَّهُ يُنْجِدُكُم عِنْدَ رَبِّكُم» إلى آخر الحديث.

بهذه القواعد الإلهية نال العقل حريته، وتخلص من وثاق كان يئن منه ويتعثر في أصفاده، وصار هو المرشد الحقيقي للإنسان، وهي الوظيفة التي خلقه لأجلها الملك الديان، كما صار هو المميز الأكبر لأفراد النوع الإنساني في الأفضلية بعد أن كان المميز فيها العبادة الظاهرية والتقوى العضلية. قال عليه الصلاة والسلام: «لا يُعْجِبَنَّكُم إِسْلامُ رَجُلٍ حتَّى تَنْظُروا مَاذا عَقَدَه عَقْلُه».

ماذا تفيد الإنسان عبادته الظاهرية وأفعاله العضوية بينما يكون هو بضعف عقله عرضة لكل أنواع الإفراط والتفريط، يضع الأمور في غير مواضعها، ويزن الأشياء بغير ميزانها، فإن كلف بأداء وظيفة أساء استعمالها وأخل أعمالها لظنه الظلم عدلاً والعدل ظلمًا؟ ألسنا نرى كثيرًا ممن يدعون الصلاح والتقوى صاروا جَوائح أممهم وبوائق[1] وطنهم بمحض ضعف عقولهم؟ أثنى قوم على رجل عند

(١) بوائق: شرور ومصائب. (م).

النبي ﷺ حتى بالغوا فقال: «كَيْفَ عَقْلُ الرَّجُلِ؟» فَقَالوا: نُخْبِرُكَ عَنْ اجْتِهَادِهِ فِي العِبَادَةِ وَأَصْنَافِ الخَيْرِ وَتَسْأَلنا عَنْ عَقْلِه فقال: «إِنَّ الأَحْمَقَ يُصِيْبُ بِجَهْلِهِ أَكْثَرَ مِنْ فُجُورِ الفَاجِرِ. وإِنَّما يَرْتَفِعُ العِبَادُ غَدًا فِي الدَّرجَاتِ الزُّلْفَى[1] مِنْ رَبِّهم عَلى قَدْرِ عُقولِهِم».

هذا هو مقدار تشريف الديانة الإسلامية للقوة العقلية، ولكن أتدري ماذا كانت نتيجة تحرير هذه القوة الجليلة عند الشعوب المتمدينة بعد ما نالوها ببيع الأنفس رخيصة في سبيلها؟ كانت نتيجته تمتعهم بكل ما تراه من عظمة مدنيتهم وشدة صولتهم وقوة شوكتهم، كانت نتيجته اهتداءهم إلى طرق السعادة الدنيوية ومناهج الرفاهة المادية مما نراه ونسمع به عنهم. قال (لاروس): «إذا بحثنا بدون حيف ولا وهم عن سبب الرقي الذي حصل في العالم المادي والفكري والخلقي من منذ طفولية الجمعيات البشرية إلى أيامنا هذه فلا نراه إلا تخلص العقل من الضغط عليه» ونحن لا نود أن نقفل باب هذا المبحث حتى نثبت للقارئ أن تحرير هذه القوة العقلية ليس ببعيد العهد عنا، وأنه لم يحصل إلا بعد جهد جهيد وجلاد شديد. قال (لاروس): «مِنْ منذ زمن الإصلاح الديني لغاية الثورة الفرنسية استمرت المجالدات بحظوظ مختلفة بين محرري العقل وبين الضاغطين عليه من القدم. ولأجل الإعراض الكلي عن أساطير الماضي ورسم خطة جديدة للمستقبل أخذت الثورة الفرنسية في ترميم ما تهدَّم من

(١) الزُّلفى: القُربَى. (م).

أركان الجمعية، وصار تعليم النشأة الجديدة من أهم اشتغالاتها» أما نحن فنقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف/٤٣].

٣- حرية العلم

نسبة العلم إلى القوة العقلية كنسبة الغذاء إلى الهيئة الجسمية. فكما أن الجسم ينمو ويزيد بتمثيله أنواع المواد الأرضية، كذلك القوة العقلية تكبر وترتقي بتمثيل النظريات العلمية والمعلومات الخارجية، لهذه العلة أخذ مذللو النوع الإنساني في التَّشْنير على العلم(١) والتنديد به وبمحبيه، وحكموا أنه الرجس الذي لا يصح أن يُحام حوله أو يُقصد حوضه. قال لاروس في دائرة معارفه: «أما هم فيعتبرون أن العلم هو الشجرة الملعونة التي تقتل بأثمارها بني آدم» نعم إنهم تصدوا للعلم تصديًا منع الناس عن ذكر اسمه والعروج على رسمه. وأخذوا يحرّفون فلسفة الأقدمين لتنطبق على أوهامهم وتتوافق مع أحلامهم، حتى لم يبق منها إلا هيكل مشوه يَفْرَقُ العقل من رؤيته ويأنف من روايته.

زعموا أن لديهم العلم الذي لا جهل معه والكنز الذي لا يفتقر من جمعه؛ فحكموا أن كل ما أتى من الخارج منه يكون خارجًا عن نطاق التحقيق ولا يقول به إلا زنديق، فيسرعون بالحكم عليه بأقصى ما يتصوره العقل من العقوبة

(١) التشنير على العلم: رميه بالعيوب والنقائص. (م).

الجسمية مما يُرَوِّع الجَسور ويَزعُ الصبور؛ فأماتوا بهذه الطريقة عددًا عظيمًا من الحكماء بتهمة أنهم يسعون في زيادة مواد العلم، ومن يطالع تاريخ العلم ير العبر.

بهذه الوسائل الجبروتية سكنت عاطفة العلم ولم تفعل إلا أن أقامت الحجة بلسان النواميس الحيوية، وكانت تلك الحجة الناطقة هي سيادة الجهالة والأضاليل، ورواج أسوق الأوهام والأباطيل، حتى تغلبت الأميال البهيمية على العواطف الإنسانية، وعدا الأقوياء على الضعفاء، فسلبوهم كل مزايا الحياة وحقوق الطبيعة، ودام الهرج والمرج سائدين على أحوال الإنسانية حتى بلغ السيل الزُّبى، ولم يبق في القوس مَنْزَع، فجاء دور الثورات الداخلية والمُقَاتَلات الدموية طلبًا لتحرير العلم من رِبْقَته الجهنمية، وكان ما كان مما يعلمه من ألمَّ بتاريخ ذلك الزمان.

هكذا كان حال الأمم قاطبة، بينما كانت الحقائق الإلهية تنزل من السموات العلى على سيد الملا ﷺ وتملي عليه أصول المدنية الحقيقية والعلم المطلق من قيود العبودية. جاءت الديانة الإسلامية فاكَّةً أَصْفَاد[1] العلم، حالَّةً أغلال المعارف، مقررة أنه من الظلم الشائن والاعتساف المهين تقييد العلم بقيد أو تحديده بحد، فقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قَال إنَّ للعِلْم غَايَةً فقد بَخَسَهُ حَقَّهُ وَوَضَعَهُ في غيرِ مَنْزِلَتِهِ التي وَضَعَهُ اللهُ بِها حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء/٨٥]».

---

(١) أَصْفَاد: قيود وأغلال. (م).

صرح الإسلام عن لسان الحكيم العليم في قرآنه القويم بأن فهم حكمة الخالق في كلامه المنزل على صفوة أنبيائه لا يتأتى إلا بإنارة الفكر بأنوار العلوم وتقويم النظر ببدائه المعقولات، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت/ ٤٣] ولم يكتف بهذا بل أنذر المتكاسلين عن طلب العلم بسوء المنقلب وبالطبع على قلوبهم بِرَيْن[1] يؤديهم إلى سوء العذاب، فقال تعالى: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ . كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم/ ٥٨-٥٩].

بمثل هذه الآيات البينات فتح الإسلام للعقول أبواب العلوم الصادقة والمعارف الحقة، وأراهم أن طلبها والسعي في اكتسابها هو من أعظم ما يُعبد به الخالق – جلَّ شأنه – فقال عليه الصلاة والسلام: «أَفْضَلُ العِبَادَةِ طَلَبُ العِلْمِ» وقال عليه الصلاة والسلام: «نَظَرُ الرَّجُلِ في العِلْمِ سَاعَةً خَيْرٌ لَهُ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً».

لم يحصر الإسلام العلم في بلد من البلدان ولا عند طائفة من بني الإنسان، بل أمرنا باصطياد شوارده حيث كانت وأنى وجدت، فقال عليه الصلاة والسلام: «اطْلب العِلمَ وَلو بالصِّيْنِ»، وقال عليه الصلاة والسلام: «الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المؤمِنِ يَأْخُذُهَا أَنَّى وَجَدَهَا» فليس للمسلم أن يرفض حكمة ما بحجة كونها صدرت ممن هو مناف له اعتقادًا أو مغاير له وجدانًا، بل يكفيه باعثًا لأخذها

(١) رَيْن: دنس. (م).

كونها حكمة وكونها مما يرفع شأن الإنسان ويزيل من جهالته. قال عليه الصلاة والسلام: «خُذ الحِكْمَةَ ولا يَضُرُّكَ مِنْ أَيِّ وِعَاءٍ خَرَجَتْ».

اتل آي القرآن الحكيم بتدبر ورَوِيّة، تر آيات صوادع تزع الإنسان عن الغفلة عن العلم، وتردعه عن الإغضاء عن نواطق الحكم، تر الجبار الأعلى ينادي عباده بلسان الرحمة قائلاً لهم: ﴿ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[يونس/ ١٠١] ويبكّت المقصرين في النظر ليعتبر أهل الفكر بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [يوسف/ ١٠٥] وينذر الذين يعمون أعينهم عن تدبر بدائع الأكوان الباعثة لمزايا العرفان بقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾[الإسراء/ ٧٢] ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا. قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه/ ١٢٥-١٢٦].

هذا هو شأن حرية العلم في الإسلام، فهل وصل الأوّلون والآخرون إلى إعلاء شأنه وإكبار مقامه إلى أكثر مما رأيت في هذه الآيات التي تبعث الجماد فضلاً عن الإنسان؟ وهل هذه الحرية العلمية بعيدة العهد عن أبناء هذا العصر؟ كلا. قال المسيو (برتلو) أحد نُظّار خارجية فرنسا السابقين وأكبر علمائها الكيماويين: «إن العلم لم يتوصل إلى نيل حريته إلا من منذ مائتين وخمسين عامًا» ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ [الأعراف/ ٤٣].

الواجبات الشخصية والعائلية والاجتماعية

قد أتممنا الكلام بوجه الإيجاز على الثلاثة الأنواع من الحرية التي انبنى عليها كل الرقي الذي حصل في العالم المتمدين، وأقمنا الأدلة الحسية على أن كل تلك القواعد الأساسية المدينة ليست إلا شعاعًا من أنوار الديانة الإسلامية، ولكن هناك قواعد ثانوية أخرى هي نتائج تلك القواعد الرئيسية يجب علينا أن نتكلم عنها بوجه الإيجاز حتى نُرِيَ لكل من عنده مِسْكَة من العقل تفسير قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام / ٣٨]، فنقول والله المستعان:

الواجبات الشخصية

كل إنسان يشعر بأنه مكون من جوهرين متميزين عن بعضهما، هما: الجسم والروح، وأنهما متحدان مع بعضهما على تغاير طبيعتهما اتحادًا غريبًا بطريقة بها يتأثر أحدهما إذا تأثر الآخر، ولو كان نوعا التأثرين والمؤثرين متباينين جدًّا، وبناء على هذه النظرية اهتدى النوع الإنساني إلى أن مناط السعادة المتمناة

هي حفظ هذين الجوهرين من أن يعتريهما ما يُخلُّ بوظائفهما، فصار الاعتناء بكليهما ضَربة لازِبٍ[١].

قال لوك: «السعادة التي يمكن للإنسان أن يتمتع بها في هذه الدنيا تستلزم أمرين اثنين: عقلاً صحيحًا وجسمًا سليمًا. هاتان النعمتان هما مُسْتَقَرُّ كل النعم الأخرى، ويمكن أن يقال إن من توفرتا عنده لم يبق في نفسه حاجة لغيرهما، ومن حُرم من إحداهما فلا يتصور أن يكون أسعد ممن يملكهما معًا مهما كان متمتعًا بمزايا أخرى؛ لأنهما السبب الأول للسعادة والشقاء، فالذي لا يكون مالكًا لعقل سليم لا يهتدي عمره لطريق السعادة البين. والذي لا يكون جسمه صحيحًا لا يستطيع أن يخطو في ذلك الطريق خطوات مهمة».

إذا تقرر هذا نقول إن الإنسان متنازع بين نوعين من المطالب، وهما: مطالب رُوحية تستلزمها سعادته النفسية، ومطالب مادية تستوجبها سعادته الجسمية. أما المطالب النفسية فهي: مجموع قواعد لا يُقصد بها إلا الحصول على صحة النفس البشرية، وجعلها صالحة لتأدية وظائفها التي خلقت لها كما، أن المطالب الجسمية هي: مجموعة قواعد لا يُراد بها إلا صحة الجثمان وتمكينه من تأدية وظيفته المطلوبة منه في الحياة الدنيا. نقول إن إدراك أن السعادة الإنسانية المتمناة هي إصلاح حالة النفس والجسم معًا وحفظ النسبة بين مطالبهما صارت الآن من البدائه التي لا يُمْترى فيها عند علماء العالم أجمع، وقد سبقهم الإسلام إلى

(١) ضربة لازب: لازمًا ثابتًا. (م).

تقريرها أيام كان الناس يبحثون عن السعادة في سكنى الجبال، وبالزهادة الكلية أو بالإفراط في الملاذ البدنية، واطِّراح[1] كل مزية فكرية، ولنتكلم على ذلك ببعض تفصيل فنقول:

إن من يتدبر بعين البصيرة في أحوال الخلق ير العجب العجاب في تباين فِطَرهم وتخالف استعدادهم، فيرى هذا معتدلاً وذاك مُفْرطًا وذلك مفَرِّطًا، وبين هؤلاء درجات لا يحصيها إلا خالقها، وكلهم متباينون في الأعمال والاعتقادات، متخالفون في المَلَكات حتى لا يمكن التوفيق بين فؤادين كما لا يمكن الجمع بين ضدين، كل ذلك مع وحدتهم في النوعية واشتراكهم في الإنسانية، لماذا يا ترى هذا التخالف الشديد بين أفراد النوع الإنساني؟ أليس هذا دليلاً محسوسًا على أن هناك أمراضًا وأعراضًا قد تعتري النفوس البشرية فتشوّه من صورها المعنوية كالأمراض والأعراض التي تنتاب الأجسام فتشوه من صورها المادية؟ ثم إذا رأيت أن لاهيًا أقلع عن لهوه، وغويًّا ارتدع عن غيه بتأثير موعظة أو رهبة، أليس في هذا دليل واضح على أن أمراض النفوس قد تزايلها إذا صادفت علاجها الحقيقي؟ نعم إن النفس تكون في مبدأ أمرها طفلة مستعدة للانصباب في كل قالب، فإن منحت مربيًا حكيمًا في أول نشأتها شبت على حسب تعاليمه نفسًا حكيمة زكية. وإن مُنيت بمربٍّ مهمل أو تُركت لرحمة المؤثرات الرديئة نشأت نفسًا شريرة تُورد صاحبها الموارد الشائنة وتوقفه المواقف المهينة، وعلى هذا فيكون

(١) اطِّراح: إبعاد. (م).

حال النفس من حيثية قبولها للمرض والمعالجة مثل حال الجسم سواء بسواء، ولو كانت الأمراض والمعالجة بالنسبة للنفس المعنوية مباينة لأمثالها بالنسبة للجسم المادي.

الآن سَهُل علينا التكلم على كيفية تربية النفوس وحفظها من الأمراض وطريقة جعلها صالحة لتأدية وظيفتها، فما هو السبيل إلى ذلك؟ لا سبيل إليه إلا بأربعة أمور: أولاً: تطهيرها من أدناس الأوهام. ثانيًا: تهذيبها بالمعلومات الصحيحة. ثالثًا: تعويدها على مكارم السجايا. رابعًا: تصحيح اعتقادها. ولنفرد لكل من هذه الأمور الأربعة فصلاً مخصوصًا، فنقول:

تطهير النفس من الأوهام

قلنا في السابق إن المشابهة تامة بين قواعد حفظ صحة النفس وبين قواعد حفظ صحة الجثمان، والآن نقول إن أول أمر يجب أن يعتني به الإنسان لحفظ صحته الجسمية هي تطهيره دائمًا من أوضار الأدناس التي لا تفتأ تعتريه في أثناء تأدية وظائفه الحيوية، وإنه لو أهمل ذلك التطهير أفضى به الأمر إلى طُرُوء المرض على جسمه وإنهاكه تدريجًا لقواه حتى ينتهي أمره بالموت.

إذا تقرر هذا نقول إن الأوهام الفاسدة والأباطيل الكاذبة هي بالنسبة إلى النفس مثل الأقذار بالنسبة إلى الجسم، فيجب الاهتمام بإزالتها بالوسائل الفعالة

قبل أن تتراكم على النفس فتمرضها وتجعلها غير صالحة لتأدية وظيفتها، فقد شوهد أن خرافة واحدة قد تُلم بالنفس فتمنعها من التمتع بمزايا كثيرة أخرى، وحرمانها من هذه المزايا يؤدي إلى حرمانها من لوازمها، فتقع في أمراض يعبر عنها بمثل الجبن والحقد والبغض، وهي الأمراض التي يضحي فلاسفة الأخلاق كل أوقاتهم للسعي في إزالتها، حتى إنك لتراهم يحذرون الكافة من الوقوع في أَشْراك الخرافات كما يحذرونهم من الابتعاد عن أنياب الأراقم ومخالب الضراغم(١)، مبرهنين لهم أن كل الفساد الذي طرأ على العالم في القرون الخالية كان بسبب إحنائهم رؤوسهم لكل ما يقال، واتباعهم كل ما يُرسم أمامهم بدون برهان ولا دليل.

سبقهم الإسلام إلى تقرير هذه القواعد؛ فحذر متبعيه من الوقوع في أَوْهاق الأضاليل، وأراهم أن أكثر ما يدعوا الناس إليه يُزري بالعقل ويُبعد عن سبيل الحق، فقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام/ ١١٦] وقرّر أن الإنسان سيقف غدًا بين يدي الله، فيُسأل عما حمل نفسه اعتقاده من الأباطيل التي لم يقوها الدليل ولم يصحبها البرهان، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء/ ٣٦] ثم حكى لنا حال الضالين وأرانا أن ضلالهم هذا نتيجة اتباعهم للظنون والأوهام وحكم عليهم بما

(١) أنياب الأراقم، ومخالب الضراغم: الأراقم: الحيات، والضراغم: الأسود. (م).

هم أهله من سوء المنقلب فقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[يونس/ ٣٦].

تهذيب النفس بالعلم

قلنا فيما سبق إنه يجب تطهير النفس من الأوهام كما يجب تطهير الجسم من الأقذار، والآن نقول إن التطهير المادي كما يحتاج إلى مطهر خال من الجراثيم المرضية، وآت من المنابع الصحية، كذلك تحتاج النفس إلى مطهر يطهرها من أوهامها ويخلصها من أقذار وساوسها، وهذا المطهر الخالي من المكاريب هو العلم المثبت بالتجربة المستدل عليه بالمحسوسات، هذا أمر واضح لا يَمْتري فيه العقلاء، وأول من سنَّه في العالم المتمدن هو (ديكارت) الفيلسوف الذي كان عائشًا في القرن السابع عشر، ومن ذلك الحين جرى العمل بمذهبه في تمحيص المسائل العلمية إلى الآن.

سبق الإسلام كافة البشر إلى تقرير القواعد الحقة لضرورة تطهير النفس وتهذيبها بالعلم والحكمة، كما كان السابق إلى الحكم بلزومه للجنسين الذكور والإناث معًا، فقال عليه الصلاة والسلام: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيْضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ». وقال عليه الصلاة والسلام: «اطْلُبْ العِلْمَ مِن المَهْدِ إلى اللَّحْدِ».

هذا ولم يترك الإسلام بابًا تنساب منه الأباطيل إلى العلم إلا سده، ولم يسم الشيء علمًا إلا إذا قواه الدليل وقامت عليه الحجج الناطقة، فقال تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس/ ٦٨].

صرح القرآن الكريم بأن كثيرًا من الخلق تُحَسِّن لهم أهواؤهم تلبيس الحقائق لحاجة في أنفسهم وحذر من السقوط في مَخَاتلهم[١]، ووسمهم بأنهم المعتدون الذين يجب أن يُلْفَظوا لفظ النواة، ويُعاملوا بما هم أهله من الإقصاء. فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام/ ١١٩] وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان/ ٢٠] ثم حكى لنا حال الذين يتابعون أهواءهم ويتبعون أفكارهم فأنذرهم بسوء المصير وشر المنقلب، وقرر بأن لن يغني عنهم قولهم إنهم مقلدون لسواهم، فقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ . وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة/ ١٦٦-١٦٧].

يصيح الإسلام في الناس صيحة توقظ الراقد، وتبعث الصاحي، مبرهنًا لهم على أن الحاجة إلى العلم ليست قاصرة على الحياة الأخرى فقط، ولكنها تسري على أحوال الحياة الدنيا أيضًا، قائلاً لهم إن صلاح الشؤون الدنيوية،

---

(١) مخاتلهم: خداعهم ومكرهم. (م).

وقوام الأعمال الحيوية لا يتأتى إلا به، قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أَرَادَ الدُّنيا فَعَليهِ بالعِلْم، ومَن أَرَادَ الآخِرةَ فَعَلَيْهِ بالعِلْمِ وَمَنْ أَرَادَهُمَا مَعًا فَعَلَيْه بِالعِلْمِ».

يرمي الإسلام المقصرين عن طلب العلم بأشد ما يرمي به مقصرًا في واجبه نائمًا عن مطلبه. قال عليه الصلاة والسلام: «الدُّنيا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيها إلا عالمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا». وقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّه لا خَيْرَ في العَيْشِ إلا لِعَالمٍ نَاطِقٍ أَو لِسامعٍ وَاعٍ».

ينذر الإسلام بأنه سيأتي زمان يروج فيه سوق الإلحاد ويُرمى الإسلام بما ليس فيه، وينشأ فيه من العلماء المنافقين من يدسون الأباطيل إلى الدين؛ ليهدموا صروح الإسلام ويقوضوا من أركانه بأنواع الحيل الجدلية التي تَدِقُّ[١] على غير الواقفين على حقيقة الإسلام، فقال ﷺ: «سَتَكُونُ بَعْدِي فِتَنٌ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا ويُمْسِي كَافِرًا إلاَّ مَنْ أَحْيَاهُ اللهُ بِالعِلْمِ».

الإسلام يصرح لنا بأن الجهل والإسلام ضدان لا يتفقان، وأن التدرج في فهم القرآن مرتبط بازدياد العرفان، وأن الراضي بالجهالة يكون راضيًا باستمرار جهله بكلام ربه المقصود منه تربيته وتطهير نفسه، وفي هذا من الخسارة مالا يقدره الحاسبون، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا

(١) تَدِقُّ: تخفى. (م).

ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت/ ٤٣] وقال عليه الصلاة والسلام: «وَهَلْ يَنْفَعُ القُرْآنُ إلاَّ بالعِلْمِ».

هذا هو مقدار تشريف الإسلام لمقام العلم والحث عليه، وقد رأيت أنه أشد تأثيرًا على النفس وأكثر تحريضًا لها من كل ما نسمعه من قادة المدنية ونُصَراء التَّنَوُّر ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء/٨٧].

تأديب النفس بمكارم الخصال

يعلم كل إنسان أن للنفس أميالاً تشعر بها وتنفعل لها ولا تستطيع الانفكاك عنها، كما يوجد للجسم احتياجات يجب إمتاعه بها لحفظ موازنته وعدم الإضرار بكيانه، فكما أن الجسم يشعر بالجوع والعطش والبرد والحر وغير ذلك من المؤثرات الداخلية والخارجية مما يجب الاهتمام بإعطائه حاجته منه أو وقايته من تأثيره، كذلك تشعر النفس بحاجتها إلى أشياء، وهي وإن لم تكن جوعًا ولا ظمأ ولا بردًا ولا حرًّا إلا أنه لا فرق بينها وبين الجسم في الاحتياج إلى أخذ ما يقوم بحياتها منها.

نعم للنفس أميال ومطلب، وهي وإن كانت لا تُحصى في صورها ولا تُحصر في أشكالها إلا أنها دائرة على محور واحد ألا وهو ميلها الفطري إلى نيل كمال تشعر به في صميم فؤادها ولا تستطيع التخلف عنه إلا أن تموت بحسرة.

اهتم عقلاء العالم من القدم بتهذيب أخلاق النوع البشري، ولهم في ذلك مذاهب يضيق المقام عن إيرادها، ولسنا نكلف أنفسنا إقامة الدليل على عدم صلاحيتها إلا باستلفات النظر إلى أحوال الأمم العظيمة ذات الشهرة التاريخية. نعم إن أقل نظرة في شؤونها واتجاه أميالها تدلنا دلالة صريحة على أن قادتها لم يقفوا على الناموس الأعظم في تربية الإحساسات وتهذيب الطباع وهو ناموس الاعتدال، بل نرى أن منهم من جعل محاسن الأخلاق قاصرة على أمته، وأباح ارتكاب الرذائل ضد سواها، ويُرى هذا الأثر بغاية الوضوح في كثير من الأمم التي كان لها سلطان قوي على غيرها، ولدينا على صدق هذه الدعوى أدلة لا يُستطاع دحضها بوجه من الوجوه، وهذا كما لا يخفى تفريط في حق الكمال، لا يسكن به الفؤاد ولا يرتاح له الوجدان، ويقطع الطريق على النفوس فلا تستطيع أن تتابع السير إلى غرضها الكمالي الذي فُطرت مَسُوقة إلى تَلَمُّسه وتحسسه، ومنهم من أفرط في كبح جماح النفس وقرر لزوم قتل كثير من أميالها وإحساساتها لدرجة تضيق الذرائع عن تحملها إلا لوقت محدود.

هذا الإفراط كانت نتائجه لا تقل عن نتائج التفريط الذي سبق ذكره، فلم يسر على أفراد أمة إلا وأخل نظامها وقوض أركانها، وجر إليها من الفتن الاجتماعية ما يُطلب علمه من مطوَّلات التواريخ، هذا الإفراط في ترويض النفوس يُصَادَف غالبًا في الأمم التي أساءت فهم دينها ولم تقف عند الحد الذي قُرِّر في شريعتها الأصلية. نعم لا شك أن من الأديان من جاء آمرًا بالزهادة المطلقة

والخروج الكلي عن دائرة الأشياء الأرضية، ولكن غاب عن أهل هذه الأديان أن هذه الديانات لها زمن محدود، ويستحيل أن يُعمل بها بعد مضيه وأنها لم يُقصد منها إلا إحداث حادث في الوجود يُراد منه إعداد النفوس لارتقاء درجة نهائية لا يمكن أن تتيسر إلا بعد أن يُمهد لها الطريق بتَهْيِيء الطبيعة الإنسانية لقبولها. وهذه الدرجة الثانية التي ندعي أنها غاية ما يمكن الوصول إليه في تحديد الشهوات والنزعات هي خطة الاعتدال.

نعم الاعتدال هو الناموس الأعظم الذي ينبني عليه قوام كل شيء ويُحفظ به كيان كل شيء، أتريد برهانًا على ذلك؟ انظر إلى جميع الكائنات السفلية والعُلوية من أول الذرة المادية البسيطة إلى أكبر نجم في قبة الفلك، ترها كلها ألسنة ناطقة بأن الاعتدال مِساكها ومِلاكها وأن به كمالها وانتظامها، نعم الاعتدال هو نظام كل شيء فلا تستطيع أن تعلل كمال شيء من الأشياء إلا به، كما لا يمكنك أن تعزو الاختلال في شيء إلا لفقدانه، لم يبق ريب الآن عند علماء الأرض كافة في أن الاعتدال هو القاعدة التي يجب أن يبنى عليها كل عمل، وترد إلى حدودها كل حاجة سواء جسمية أو نفسية. ذكر (لاروس) أحوال طائفة من متعبدين زعموا أن نيل الدرجات الزلفى في الآخرة لا يتأتى لهم إلا بقتل جميع خصائصهم النفسية، وحرمانها من كل ما تتوق إليه طبيعتهم بأنواع من الترويض تَكَلُّ عن احتمالها طاقة البشر، ونسب إليهم من الفظائع والأمور الوحشية مالا يصدر إلا ممن مسهم ضرب من الجنون الشديد، ثم قال:

«هؤلاء المتعبدون الذين يريدون أن يُميتوا تأثير الطبيعة عليهم، صاروا في الحقيقة ضحايا شهواتهم التي تنهشهم؛ لأنهم بدلاً عن تنظيم حالة نزعاتهم بإعطائها مطالبها في حدودها المعتدلة، أرادوا بجنونهم أن يستأصلوا شأفتها».

كان هذا شأن سائر الأمم في الإفراط في شهوات النفوس وأميالها، أو التفريط في كبح جماحها، حتى أسفرت سماء الحق بنور الإسلام وانكشف عن مُحَيَّا الفضيلة الحقة كل لثام، فنزلت آي الله تعالى منددة بالغالين والمقصرين، منذرة إياهم بسوء المنقلب في الدنيا ويوم الدين، مقررة أصول الاعتدال على قسطاس مستقيم، مدعمة قواعد الفضيلة على نموذج حكيم.

نظرتْ إلى منازع الأنفس نظرة الحكيم الخبير؛ فلم تقرر لزوم قتل واحدة منها، بل عالجتها من حيث يعالج الطبيب المريض، بإرشادها إلى ناموس الاعتدال، وأرتها أن الزيغ عنه إلى الإفراط أو التفريط يُفضي بالإنسان إلى ما لا تحمد مغبَّته[١]، ولا تسر عاقبته. علمتنا هذه الآي الكريمة أن الله تعالى لم يخلقنا من عالم العدم إلى باحة الوجود ليعذبنا بأنواع العبادات الشاقة التي تميت إحساسات الأنفس وتخرجها عن دائرة الكمال الإنساني، بل خلقنا ووهبنا كل ما نحس به من العواطف لنبلغ به ما أعد لنا من الرقي النفسي بسيرنا على مقتضى الحكمة الصحيحة، وأرتنا أن كل ما أمرنا به من أنواع العبادات الجسمية أو القلبية لا يقصد به إلا تلك النتيجة. قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ

(١) مغبته: عاقبته. (م).

﴿ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[المائدة/٦]. يصرح لنا الإسلام بأن الغلو في الدين ليس من الأمور التي يكلف الله تعالى بها عباده، بل إنه يتنزه عن أن يُحَمِّلهم فوق مقدور طاقتهم ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة/ ٢٨٦]. بل كلما يدلنا التاريخ عليه من آثار الغلو الذي أهلك الأمم وأبادهم هي من مخترعات أفكارهم. قال عليه الصلاة والسلام: «إيَّاكُم والغُلُوَّ في الدِّينِ فإنَّما هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم بالغُلُوِّ في الدِّين». تصدى الإسلام لمن يظن أن التهالك في العبادة و إضناء الجسم فيها مما يبرهن للخالق - جلَّ شأنه - على شدة الإخلاص، فقرعهم على ظن أفضى بهم إلى وصف الله تعالى بغير صفاته الكمالية، وأنذرهم بأن تهالكهم هذا فضلاً عن كونه ذاهبًا سدى فإنه يجر عليهم سخط الخالق وغضبه. قال عليه الصلاة والسلام:«مَنْ لم يَقْبَلْ رُخْصَةَ اللهِ كَانَ عَلَيْهِ مِن الذَّنْبِ مِثْلُ جِبالِ عَرَفَةٍ».

الإسلام دين السعادتين، وناموس الحياتين،لم يقرر في أصوله الانقطاع إلى التَّبتُّل[١]: «مَنْ تَبتَّلَ فَلَيْسَ مِنَّا» ولا تجنب الحياة الاجتماعية والمسائل الحيوية بالهرب إلى رِعان الجبال[٢] والانقطاع عن سائر الأعمال، كلا، كل ذلك مما ينافي الإسلام ويستلزم غضب الملك العلام. روي أن رجلاً أتي الجبل ليتعبد فيه فجيء به إلى رسول الله ﷺ فقال له: «لا تَفْعَلْ أَنْتَ ولا أَحَدٌ

(١) التَّبَتُّل: التفرغ للعبادة والانقطاع عن الدنيا. (م).
(٢) رِعان الجبال: أعلاها. (م).

مِنْكُم، لَصَبْرُ أَحَدِكُم ساعةً في بعضِ مَوَاطِنِ الإسْلاَمِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ عِبَادَةِ أَحَدِكُم وَحْدَهُ أَرْبَعِينَ عَامًا» هذا شأن الإسلام في الاعتدال في الدين الذي هو مالك لأَزِمَّة النفوس وقائدها إلى نعيمها في الحياتين، ولا يختلف عن هذا شأنه مع أميال النفس ومطالبها، فقد قررنا أنه لا يأمر بقتل عاطفة ولا بإماتة نزعة، بل يسعى في جعلها معتدلة قويمة بلا إفراط ولا تفريط، فالسخاء مثلاً وهو ذلك الخلق المحمود لا يعد فضيلة في الإسلام إلا إذا روعي الاعتدال فيه، وبدون ذلك يكون ذنبًا يُحاسب الإنسان عليه، قال الله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا . إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [الإسراء/٢٦-٢٧] ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء/٢٩].

ثم ما قولك في التواضع؟ التواضع هو ذلك الخلق المحمود الذي يرفع صاحبه عفوًا إلى مقام الشرف والمجد، وهو من السجايا التي يحثنا الإسلام على التخلق بها. قال عليه الصلاة والسلام: «لَوْ كَانَ المتوَاضعُ في قَاعِ بِئْرٍ لبَعَثَ اللهُ إِلَيْه رِيْحًا تَرْفَعُه». ولكن النبي ﷺ لم يتأخر عن تحذيرنا من الإفراط فيه لدرجة تفضي بنا إلى المهانة والصَّغار وترمينا إلى حضيض المذلة والابتذال، وينبهنا إلى التفرقة بين مَنْ مِن الناس يَحْسُن لديه التواضع، ومن منهم يليق الترفع لديه، حتى يكون الرجل بمثاله منبهًا كما هو بمقاله واعظًا. قال عليه الصلاة والسلام: «ومَن لا يوجِب لكَ لا توجِب له ولا كرامة * لا تصاحب من لا يرى لك من

الفضل كمثل ما ترى له * إذا رأيتُم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم * الكبر على أهل الكبر صدقة».

وهكذا ترى الإسلام مع تعليمنا بقدر مكارم الأخلاق وبتأثيرها على مراكزنا في الحياة الأخرى يرينا جادتها الحقيقية وخطتها الحكيمة، حتى لا يكون الإنسان حُلوًا فيؤكل ولا مرًّا فَيُلْفَظ - كما هو معنى حديث شريف - وهو الأمر الذي ينافي شؤون الحياة الاجتماعية ويعطل من رقيها كثيرًا.

قل لي بأبيك، ماذا يكون شأن الطغاة في أمة أفرطت في السجايا المحمودة وأخرجتها عن حدودها المعتدلة؟ وإلى أي نقطة تصل شِرّة المعتدين إذا صادفوا عند كل جريمة عفوًا، وبإزاء كل رذيلة سماحًا؟ أما تكون النتيجة تمادي الباغين في بغيهم وإخلالهم بمسببات الأمن والطمأنينة؟ أما تكون النتيجة حرمانهم من التهذيب والأدب، وهما الأمران اللذان لا يتمان إلا بالعقوبات الرادعة والأحكام الصادعة. قال عليه الصلاة والسلام: «إِقامَةُ حَدٍّ مِنْ حُدُوْدِ اللهِ في الأَرْضِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ يَومًا».

للحياة الاجتماعية شؤون يضيق كتابنا هذا عن درس بعضها درسًا سطحيًّا، وهي تستلزم يقظة من كل عضو فيها وجلدًا على تحمل عواديها، وفطنة على حل مشكلات دواعيها، بل هي الحرب العوان التي يصلاها الإنسان من يوم ميلاده إلى يوم نهاية حياته، حرب أعلنتها المطالب الجسمية والنفسية،

وشبتها الضرورات الحيوية، حرب لا مناص منها لمن أراد الكمال وتوسم العلاء في دار المآل، حرب أذن الله أن يشب لهيبها ويتأجج سعيرها لتبعث النفوس إلى إظهار خفاياها وتحضها على استعمال خصائصها وسجاياها لكيلا يكون الإنسان تائهًا عن أسراره، ضالاً عن عجائب أحواله ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [الأنبياء/٣٥].

ها هي العائلة: قل لي بأبيك، كيف يكون حال الأدب فيها إذا كان أبوها مفرطًا في مكارم الأخلاق إفراطًا يجعله يتجاوز عن كل سيئة تصدر من أطفاله ويعفو عن كل ذنب يحصل منهم؟ أليس يؤول حالهم إلى التمادي في الغي ونشأتهم على عدم احترام القوى الوازعة التي سيصادفونها أمامهم يوم يكونون رجالاً عليهم تكاليف الحياة؟ لاشك أن عائلة رُزئت(١) بأب مثل هذا يكون حالها الخلل وشأنها الفشل، ويكون ذلك الأب في نظر شريعة العدل مجرمًا يجب تنبيهه إلى خطة الاعتدال، إن صح هذا في العائلة فهو في الجمعية أصح وأصرح.

جاء الإسلام فأنقذ النفوس الإنسانية من شفاء التفريط في الأميال النفسية والإفراط فيها، وخط للبشر خطة معتدلة تلائم سُنة الوجود وتناسب قوانين الحياة، مما يسمح للنفس أن تنال حريتها الحقة فترتقي في معارج الكمال

---

(١) رُزئت: أُصيبت. (م).

بانتظام وسلام ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة/١٤٣].

تصحيح الاعتقاد

قد تكلمنا في فصولنا السابقة على لزوم تطهير النفس من أَوضَار أوهامها بالمظهر الملائم لها وهو العلم الصحيح، واستكنهنا لها[١] سرّ صحتها، وهو قانون الاعتدال في إمتاعها بجميع أميالها، وبقي علينا الآن معرفة ماهية سعادتها واطمئنانها فنقول: إنّا نرى أمام أعيننا بعضًا من الناس قد رزقوا صحة ممتعة وثروة جسيمة، وتهذبوا بأنواع العلوم والمعارف، ولكنهم كثيرو الضجر، شديدو الحيرة، لا يكادون يشعرون بالراحة ولا يلتذون بملذة، كأن لهم في كل لذة ألمًا، وبإزاء كل فرح ترحًا، يحسون بكآبة قد رانت على صدورهم فلا يعلمون سببها ولا يعرفون موجبها، كآبة لا تزايلهم إلا بزوال عقولهم عنهم بكأس من الرحيق[٢]، فلذلك تراهم شديدي الكلف به، كثيري التحرق لفقدانه؛ لأنه دواؤهم الوحيد.

ما سر هذا الأرق والضجر مع هذه الصحة الجسمية وتلك الثروة المالية، وهما الأمران اللذان عليهما – كما يقال – مدار السعادة الإنسانية؟ ما هذه الحيرة الوجدانية والوحشة الضميرية مع تهذبهم بأنواع العلم، وهو – كما يزعمون – الشافي

(١) استكنهنا لها: اجتهدنا لمعرفة كنة حقيقتها. (م).
(٢) الرحيق: الخمر. (م).

للناس من نزغات الوسواس؟ أما يدلنا هذا الضجر السري على أن النفس تائقة لأمر ما إن غاب على الإنسان علمه فقد دله عليه أثره؟ وإن ذلك الأمر ليس هو صحة البدن، ولا وفرة المال، ولا كثرة البنين، ولا سكنى القصور، ولا أكل الصنوف، ولا سماع العيدان، ولا مغازلة الغِيد(١). بل هو أمر آخر لا تعد هذه الملاذ بالنسبة له إلا هباء، ولا الأكوان بجانبه إلا فناء! ما هو هذا الأمر السامي الذي لو حصلت عليه النفس اطمأنت وسكنت، وهامت به وسكرت، ورضيت به وقنعت ؟ هو لا شك صحة المعتقد وإليك الدليل:

ليست النفس من طبيعة هذه الأجسام الصماء، ولا من طينة هذه المادة العمياء حتى تأنس إلى شيء من أشياء هذه الأرض الحقيرة، أو تهتم بملاذها مهما كانت كبيرة، بل هي من طبيعة نورانية محضة، فلا تأنس إلا لنور يجلي عنها ظلمات الأشياء الأرضية الكثيفة؛ لتشرف على حضرة القدس المُنيفة، وتطل على حظائرها الشريفة، النفس أجل من أن تقنع بالمشتهيات الجسمانية، وأكبر من أن ترضى بملاذها المموهة الفانية، فمهما غالط الإنسان نفسه بجمع المال ورفاهة الحال ليرتاح سره ويسكن اضطرابه، فإن النفس لا تفتأ تقيم عليه الحجة بعد الحجة؛ ليهتدي إلى وَضَحِ المحجة، فإن تبصر في أمره، واكتنه حقيقة سره، وأنال نفسه بغيتها من إبلاغها نورها المرجو لها، سكن فؤاده وآب إليه رشاده، ولو كان جسمه بين القَنا والقنابل وحاله من الفقر في أخس المنازل، فما هو السبيل إلى إبلاغ

(١) الغِيد: الفتيات الناعمات الجميلات، جمع الغادة. (م).

هذه النفس الهائمة أمنيتها وإمتاعها بِطِلْبَتها من صحة العقيدة ؟ السبيل لذلك هو العقل: «الدِّينُ هُو العقلُ ولا دِينَ لمن لا عقلَ له».

العقل في النوع الإنساني خصيصة من أجل خصائصه، ومنحة من أفضل منح الله عليه، لو استُعْمل فيما وضع له واعتُني بصحته واعتداله، بالعقل يسبر الإنسان غور هذا الوجود العظيم على ضخامة أجزائه وعظم أبعاده، ويستكنه سير النواميس السائدة عليه؛ فيستدل بها على وجود الخالق عز وجل وعلى تنزه أفعاله عن العبث وصنائعه عن اللهو، كما يستدل به على علمه وتدبيره ورحمته وحكمته استدلالاً محسوسًا لا يقبل شبهة ولا يُداخله ريبة. بالعقل يدرس الإنسان أحوال الجمعيات البشرية، فيرى نواميس رقيها وهبوطها وأسباب رفعتها وضعتها، ويتبصر في أحوال الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى خلقه هادين مرشدين، فيستدل بالتدقيق فيما جاؤوا به وفي الآثار التي تركوها، على معنى النبوة وضرورتها للبشر، وحكمة الله تعالى في اختلاف المدارك والإحساسات وفي تباين الملل والديانات، بالعقل يميز الإنسان بين أحوال الماضي والحال؛ فيفرق تبعًا لذلك بين الديانات الخاصة وبين الديانات العامة، ويعثر بتعضيد العلم والبَدَائه على الديانة التي يجب أن تكون خاتمة الأديان كلها وباقية بقاء النوع الإنساني.

قضت مراحم الله – جلَّ شأنه – أن يكوِّن الأكوان في الطبيعة على ترتيب محكم، ينطق بلسان الصمت للمتبصر، ويظهر بلباس الوضوح للمتفكر، ويحبب

إليه الانتقال منه إلى غيره، بدون أن يشعر بملل ولا سآمة، ولا يؤوب من استبصاره بندامة، بدون هذا الاعتبار بالعقل لا يتأتى للنفس أن تصحح عقيدتها، ولا يتسنى لها تبعًا لذلك أن تسكن من اضطرابها، هذا ولا ننكر أنه قد مضى على النوع الإنساني زمن كان فيه العقل في دور الطفولية، وكان يكفيه في الإيمان أن يندهش لأمرٍ خارقٍ للطبيعة يعطل من سير نواميسها وقتًا ما. وكان الله ﷻ يرأف بعباده؛ فيرسل إليهم رسلاً يمتعهم بخصائص تَعجزُ عن اكتناه سرها عقولهم، وتندهش لها ألبابهم، فيستدلون بهذه المعجزات على صدق الرسول وضرورة اتباعه، وأما الآن حيث بلغ العقل أَشُدّه، والنوع الإنساني رشده، فلا تجدي فيه معجزة ولا تنفع فيه غريبة، لأن الشكوك قد كثرت مع كثرة المواد العلمية، فإن حدث حادث من هذا القبيل رموا فاعله بالتدليس أولاً، ثم إذا ظهر لهم براءته منه أخذوا يعللون معجزاته بكل أنواع التعليلات، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن طائفة الإسيبريت الرُّوحيين في أوروبا تعمل الآن من الأعمال المدهشة الخارقة لنواميس الطبيعة ما لو رآه الجهلاء لظنوا أنه من أكبر المعجزات، مع أن القوم لا يدعون النبوة ولا يزعمون الرسالة، نعم لا ننكر أن أعمال هذه الطائفة ليست من نوع معجزات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ولكنه بدون شك يقلل من أهميتها في نظر الذين يقفون مع ظواهر الأشياء.

ومما يدل على أن هذه القرون الأخيرة لا تروج فيها مسائل المعجزات تكذيب علماء أوروبا بكل المعجزات السابقة، وهو وإن كان تَهَوُّرًا منهم إلا أنهم مصيبون في قولهم إننا في زمان لا يُجدي فيه للاعتقاد إلا النور العقلي والدليل

العلمي. ومن أقرب الشواهد لذلك ما كتبه المسيو (هنري برنجيه) في مجلة المجلات الصادرة في ١٥ مارس سنة ١٨٩٨. قال ما معناه: «إن العلم والتاريخ قررا بطلان كل هذه المعجزات (معاذ الله) ولكنهما لم يستطيعا أن ينكرا الروح التي بعثت إليها، أما نحن الآن فلسنا بمحتاجين إلى معجزة ما؛ فإن معجزتنا الوحيدة الخالدة هي هذا العالم العالي الذي لا نهاية له؛ فإنه أصلح في إيقاظ إحساسنا الديني من كل المعجزات الماضية» انتهى.

لهذه الأسباب جاءت الشريعة الإسلامية تدعو إلى السبيل الحق بِبَدَائه العقل وقواعد العلم، صارفة النظر عن المعجزات وإظهار المدهشات، لعلم الله ﷻ بأنه سيأتي زمان تؤثر فيه المقرَّرات العلمية، على القوة العقلية، ما لا تؤثره عليها الخوارق للنواميس الطبيعية، نعم جاء الإسلام يخاطب العقل ويحاسب الفكر ويناقش الفطنة، فلا يدعو إلى الاعتقاد بوجود إله حكيم قادر إلا مع تنبيه العقول إلى الدليل الحسيّ على ذلك، ولا ينفي عنه الشريك، ولا يثبت اليوم الآخر إلا بتعضيد ذلك البرهان وتقويته بالحجة المحسوسة.

علم الله أن كثيرًا من ذوي الأهواء في الأمم الطامعين في الكبرياء والعِظَم قد يحسِّن لهم الطمع أن يدسوا في الدين أشياء يُرغمون بها أنوف العامة، ويقودونهم بها إلى حيث توعز إليهم شهواتهم، فقرر في دينه الأخير أن كل دعوة من هذا القبيل يجب أن يُطلب الدليل العلمي عليها، فإنه وحده الفارق بين

الحق والضلال، والمثبط لعزائم أهل البطلان. قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة/٧٩] وقال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة/١١١].

أنحى الإسلام باللوم والتعذير على الذين ديدنهم تقليد آبائهم تقليدًا أعمى، والجمود على ما ورثوه منهم من الاعتقادات الباطلة بدون رَوِيَّة ولا تحقيق، فأنذرهم بسوء المتقلب وشر العذاب، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة/١٠٤].

قرر الإسلام بأن حجة الرجل يوم القيامة بأنه إنما قلد غيره وتابعه لا تنجيه من غائلة العقاب مادام له عقل يميز بين الخبيث والطيب وبين الضار والنافع. قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۞ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر/٤٧-٤٨] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك/١٠].

صرح لنا الإسلام بأبلغ عبارة بأن الحجة القوية وحدها هي عماد الدين ومِساك الاعتقاد، فمن فقدها فقد جنى على نفسه جناية عظيمة، وأوقعها في

مصيبة كبيرة، لأنه يكون بفقدها قد فقد أعظم دعامة يستند عليها يوم الحساب الأكبر. قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص/٧٥].

هذه هي قواعد الاعتقاد في دين الإسلام، وهي مطابقة تمام المطابقة لما أقر عليه جمهور فلاسفة أمم الأرض في هذه القرون الأخيرة من أن كل قاعدة لا يقررها البرهان يجب أن تُسحب عليها ذيول النسيان، فقل لي كيف يمكن أن يتطرق الزيغ إلى عقيدة مسلم عالم بحقيقة الإسلام بعد أن يسمع نداء الحق في صميم وجدانه يزعه عن ورود الأباطيل ويردعه عن التعلق بالأضاليل قائلاً له: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾؟ [الإسراء/٣٦] بل كيف يتأتى لمسلم مُتهذّب أن يجاري الهوى ويتبع كل من ضل وغوى، بعد أن ينتقش في جوانح فؤاده[1] ما قاله الله تعالى في وصف أهل التَّغَفُّل الذين يقبلون الضلال ويَجْمُدون عليه ويجعلون أنفسهم وقفًا على تصديق الخرافات، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف/١٧٩]. اللهم بصرنا بدينك وهو دين المدنية الحقة، وهبنا من لدنك ثباتًا على اتباع نهجه القويم، وارفع عن أفكارنا ما تكاثف عليها من صدأ الأوهام، إنك سميع مجيب

---

(١) جوانح فؤاده: أعماقه. (م).

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف/١٠٨].

المطالب الجسمية

قد أتممنا الكلام على المطالب النفسية ولم يبق علينا إلا الكلام على المطالب الجسمية، وهو القسم الذي باتحاده بالقسم الأول والتئامه به يتم للإنسان الحصول على سعادتيه اللتين يسعى وراءهما من يوم خلق للآن، فنقول: تنحصر السعادة المادية في أمرين، هما: حفظ الصحو والاعتدال في التصرف بمقومات الجثمان، فلنتكلم على كل منها في فصل خاص:

حفظ الصحة

قدمنا في فصولنا السابقة أن صحة العقل وهو المميز الأول للإنسان عن الحيوان تتعلق بصحة الجثمان تمام التعلق، وأقل نظرة في أحوال الإنسان تقنعنا بصدق هذه النظرية، وقد أدرك فلاسفة العالم المتمدين هذا السر العظيم، فتراهم يهتمون جدًّا بأمر الصحة اهتمامًا لا مزيد عليه، ويقررون كثيرًا من القواعد المقوّمة للبدن والحافظة لقواه؛ ليمارسها الطفل مع القواعد المقوية للعقل والمنمية له في آن واحد، وجعلوا أهميتها لا تنقص عن أهمية تعليم أصول العلم في شيء. قرروا

كل هذا بعد ما زعموا أن الأديان تسعى جهدها في ملاشاة الصحة، ولا تَعِد بالنعيم الأبدي إلا من لوى الكَشْح عن أمر جثمانه، وتهكموا على هذا ما شاؤوا مما لا نرى لزومًا لإثباته هنا، بل نقول سبق الإسلام كافة البشر إلى وضع القواعد الصحية الحقيقية المبنية على ارتباط صحة العقل بصحة الجسم وجعلها أسًّا من أسس الإيمان، وحمل كافة متبعيه على الائتمار بها والالتفات إليها، كما أمرهم بالالتفات إلى غيرها من قواعده، ونصَّ بأنها من أكبر المنح التي يهبها الله للعبد، ولا يَفْضُلُها في علو المرتبة إلا كلمة التوحيد. قال عليه الصلاة والسلام: «سَلُوا اللهَ العفوَ والعَافِيةَ فإنَّ أحدَكُم لمَ يُعْطَ بَعْدَ اليقينِ خَيْرًا من العَافِيَةِ».

ولم يكتف بهذا بل قرر من مبادئه الأولى كل ناموس عام لحفظ الصحة وتقويم الجسم، مثل النظافة والرياضة الجسمية والعقلية، فقال عليه الصلاة والسلام: «الطُّهُورُ شَطْرُ الايمان * أَحبُّ اللَّهْو إلى اللهِ إجْرَاءُ الخَيلِ والرَّمْيِ * رَوِّحُوا القُلوبَ سَاعَةً فَسَاعَةً».

أما الأمراض فإن الإسلام يعتبرها عذابًا من الله تعالى يبعثه على المريض جزاء له على تعديه للنواميس المقررة وعصيانه للقواعد الصحية الثابتة. قال عليه الصلاة والسلام: «المرضُ سَوطُ اللهِ يُؤَدِّبُ بِهِ عِبَادَه» فيجب على المسلم والحالة هذه إذا أصابه مرض – أي سوط عذاب من الله تعالى – أن يسعى في الإنابة إلى سبيل الاعتدال في شؤونه الحيوية، ولا يتأتى له هذا إلا باستشارة طبيب حاذق

عالم بأصول نواميس الصحة، دارسٍ لقواعد الطب. قال عليه الصلاة والسلام: «تَدَاوَوا يَا عِبَادَ اللهِ فإنَّ اللهَ لم يُنْزِلْ دَاءً إلاَّ أَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً» قلنا طبيب دارس لقواعد الطب؛ لأن الإسلام يحذرنا من الوقوع في مخاتل الدجالين، وينذرهم بالمسؤولية العظمى. قال عليه الصلاة والسلام: «من تَطَبَّبَ ولم يُعْلَمْ مِنْهُ طِبٌّ فَهُو ضَامِنٌ» ثم إن عجزت الأطباء عن مداواة العلة بعد أن يبذل الإنسان وسعه في التعالج فإن الإسلام يبشر الصابر على بلائه بأحسن الأجور في الدار الآخرة. هذا وديننا القويم يعتبر ضعف البنية وقلة القوّة من الأعراض التي تؤخر الرجل عن نيل الدرجات العلا في الآخرة لأنها غالبًا تكون نتيجة الإفراط في أمور الحياة، ومقدمات التكاسل عن أداء واجبات الدين؛ ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «المؤمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ مِن المؤْمِنِ الضَّعِيفِ».

الإسلام لا يبيح لأي مسلم أن يتهاون بأمر صحته لأي غرض كان حتى في عبادة ربه والإخبات[١] له؛ روى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «قال لي رسول الله ﷺ: يا عَبدَ اللهِ ألمْ أُخْبَرْ أنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيلَ؟ فَقُلْتُ: بَلى يا رَسُولَ اللهِ. قَال: فَلاَ تَفْعَلْ. صُمْ وَأَفطِرْ وَقُمْ وَنَمْ، فَإنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْك حقًّا وَإنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإنَّ لِزَوْرِكَ[٢] عَلَيْكَ حَقًّا، وإنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أيَّامٍ، فإنَّ لكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا،

(١) الإخبات: الخضوع والخشوع. (م).
(٢) لزَوْرك: لزائرك. (م).

فإنَّ ذَلكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّه. فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عليَّ، قلتُ يا رسولَ اللهِ: إنِّي أجدُ قُوَّةً. قال: فُصُمْ صِيَامَ نَبيِّ اللهِ دَاوُدَ عليه السلام ولا تَزِدْ. قلتُ: ومَا كانَ صيامُ نَبيِّ اللهِ داودَ عليه السلام؟ قال: نِصْفَ الدَّهْرِ. وكان يقول بعد أنْ كَبِرَ: يا ليتني قَبِلتُ رُخْصَةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم».

لاشك أن كل هذه القواعد تجعل المسلم شديد التحفظ على صحته، كثير الغيرة عليها، وهذا الغرض الذي يسعى فلاسفة هذا القرن أن ينقشوه في أذهان العامة حتى يهتموا بالنظافة والصحة فتقل الأمراض وتخف آثار العدوى.

الاعتدال في مطالب الجثمان

يعلم كل إنسان أن للجسم مطالب كثيرة وكلها ضرورية للحياة على شريطة الاعتدال فيها. فالغذاء - وهو أول المقوّمات الجسمية - قد ينقلب ضربة قاضية على الحياة إذا استعمل بإفراط أو إذا لم تُراع فيه القواعد الصحية كجمع المتعاكسات من المواد الغذائية؛ ولهذا فقد أجمع كل أطباء العالم على أن ملاك الصحة الإنسانية هو الاعتدال في الشهوات الجسمية، بهذه القاعدة الرئيسية جاء الدين الإسلامي، فلم يحرم علينا شيئًا من الطيبات قط، بل أباح لنا الأكل والشرب من كل شيء صحي، ولكن بشرط عدم الإسراف. قال تعالى: ﴿قُلْ

مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ ﴾ [الأعراف/٣٢] ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ [الأعراف/٣١].

ليست الزهادة في الإسلام بالتأثم عن لذائذ المآكل ونَضِيْج الفواكه وحرمان النفس من كل ما تشتهيه، كلا، فليست مقرراته مثل هذه الزهادة التي قد تنافي الحياة الاجتماعية وتهدم صروح المدنية، كلا، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ . وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة/٨٧-٨٨].

في هذه المناسبة نقول إن ديننا القويم كما لم يحرم التمتع بلذيذ المآكل، كذلك لم يمنع التحلي بجميل الملابس قال عليه الصلاة والسلام: «مَا مَنَعَ أَحَدَكُم إنْ وَجَدَ سَعَةً مِن المالِ أَنْ يَتَّخِذَ ثَوبينِ ليومِ الجُمعَة سُوَى ثَوبِ مِهْنَتِهِ» ولم يكتف ديننا الحنيف بهذا بل يرغبنا في التجمل والتزين إذا لم يقصد به ريبة بل قصد به إرضاء الخالق جلَّ وعلا في إظهار نعمته والتحدث بكرامته. قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كَانَ لَهُ شَعْرٌ فَلْيُكْرِمْهُ» أي يسرحه. وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ يُحبُّ كُلَّ جَيِّد الرِّيحِ جَيِّد الثِّيَابِ» وجاء رجل إلى النبي ﷺ فنظر إليه رثَّ الهيئة، قال: «مَا مَالُك؟» قال: من كل المال قد آتاني الله تعالى. فقال: «إنَّ الله تَعَالى يُحِبُّ إِذَا أَنْعَمَ عَلى امْرِئٍ نِعْمَةً أَنْ يَنْظُرَ إلى أَثَرِهَا عَلَيْهِ».

الواجبات العائلية

للعائلة في الجمعيات المتمدينة شأن خطير ومقام كبير؛ فإنها بالنسبة للجمعيات الكبرى كالأفراد بالنسبة للعائلات الصغرى، فإذا صلحت الثانية صلحت الأولى والعكس بالعكس، ولذلك ترى فلاسفة الأمم خصوصًا في هذا القرن يوجهون أكبر هممهم إلى إصلاح شؤونها وتعليم العامة كيفية إقامة أَوَدها بالطرق العلمية المثلى. أما كُنْه هذه السعادة العائلية فينحصر في أمرين رئيسين وهما: إصلاحها أدبيًّا وماديًّا. وهذان الأمران منوطان ولا شك برئيس العائلة، ومطلوبان منه كأكبر واجب تقضي به شريعة المدنية الحقيقية. من هنا نلقي على عاتق أب العائلة واجبين يُفرض عليه تأديتهما على حسب ما تحكم به سنة الحياة، فنقول:

الواجب الأول: إصلاح حال العائلة أدبيًّا

أداء هذا الواجب من الرجل لعائلته يستلزم أمرين رئيسين: أحدهما: اعتباره امرأته شريكة له في الشؤون العائلية وإعطاؤها حقها من التَّجِلَّة[1] والتكريم. ثانيهما: اعتبار نفسه قيِّمًا على أطفال سيكونون غدًا أرباب عائلات مثله وأعضاء لجمعية لها مقام في الوجود، تؤثر عليها تربية أفرادها إنْ خيرًا فخير وإنْ شرًّا فشر، وأن هذه الجمعية قد ينشأ فيها فرد يرفع مجدها إلى عَنان السماء، وقد ينشأ فيها

(١) التجِلَّة: الإجلال والتوقير. (م).

آخر يدهورها إلى حضيض الذل والشقاء، وأن مناط كل ذلك هو التربية في سن الطفولية على المبادئ القويمة أو السقيمة، وأن الأب أحد المسؤولين عن كل جريمة تصدر من أحد أفراد عائلته التي رباها في حالة ما إذا كانت تلك الجريمة صادرة عن سوء إداراته في التربية والتهذيب. بهذه الأمور جاءت شرعية المدنية الجديدة، وعليها بُنيت كل نظريات التربية العائلية.

نقول سبق الإسلام كافة العالمين إلى تقرير هذه المبادئ القويمة، فقال من حيثية عدم إهانة النساء والحث على إكرامهن واحترامهن بلسان النبي - عليه الصلاة والسلام: «مَا أَكْرَمَ النِّسَاءَ إلاَّ كَرِيمٌ وَلا أَهَانَهُنَّ إلاَّ لَئِيمٌ» و«احْمِلُوا النِّسَاءَ على أَهْوائِهِنَّ» وفي قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء/٢٤] دليل جليٌّ على أن للمرأة شطرًا عظيمًا من تربية أطفالها وتهذيبهم.

وأما من جهة انطباق الإسلام على ما جاء في الأمر الثاني، فيكفي فيها هذا الحديث الجامع: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» بهذا النص الصريح صار الأب مسئولاً عن أعضاء عائلته فردًا فردًا، ومفروضًا عليه تعويدهم على مكارم الخلال وشرائف الخصال؛ لكي لا يؤخذ بجريرة الإهمال يوم يوجه إليه هذا المقال: «يَا رَاعِي السُّوءِ أَكَلْتَ اللَّحْمَ وَشَرِبتَ اللَّبَنَ ولم تُؤْوِ الضَّالَّةَ ولم تَجْبُر الكَسِيرَ؛ اليومَ أَنْتَقِمُ مِنْكَ» حديث قدسي.

الواجب الثاني: إصلاح حال العائلة ماديًّا

إن ما تكلمنا عليه من ضرورة إصلاح حالة العائلة أدبيًّا يتعلق كل التعلق بإصلاحها ماديًّا؛ وذلك لأن أول ضرورة يشعر بها الإنسان هي ضرورة حفظ جثمانه من التلاشي، فإذا لم يسهل لديه الحصول على هذه الضرورة كما يجب لم يجد من نفسه قط باعثًا على السعي وراء شيء أدبي مطلقًا. وفي الواقع ماذا يكون أمر عائلة لا تجد من الغذاء الصحي ما يقيم سلامة أجسامها ويحفظ على أفرادها قواهم العقلية والبدنية، ولا من المسكن ما يقيهم عوداي الأمطار والأعصار، ولا من الملبس ما يحفظهم من أعراض الجو المجتاحة؟ أليس يؤول أمر عائلة مثل هذه إلى أخس دركات التوحش؛ فَتُحَسِّن الضرورات لأفرادها كثيرًا من الدنايا النفسية والخسائس المزرية مع علمك بأن الاحتياج أبو المفاسد الأخلاقية؟ ثم ماذا يفيد العائلة وجدانها غذاء جيدًا ومسكنًا وملبسًا كافيين ولم يجد أبوها مالاً كافيًا ليقضي به ما يجب عليه من إصلاح حالة عقول أفرادها بإرسالهم إلى المدارس وإيجاد المربين لهم في كل ما تحتاج إليه لحياة المدنية؟ أليس يتضح من كل هذه الملاحظات الحقة أن العائلة تحتاج إلى من يصرف عليها بسخاء، وأن قلة مال أبيها قد توقعها في أسوأ حالات الشقاء؟

نعم وبهذه القواعد المدينة جاءت الشريعة الإسلامية السمحاء. قال عليه الصلاة والسلام: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ وَسَّعَ اللهُ عليهِ ثُمَّ قَتَّرَ(١) عَلى عِيَالِهِ» وقال عليه

(١) قَتَّر: ضيق في النفقة. (م).

الصلاة والسلام: «مَا أَنْفَقَهُ الرَّجُلُ فِي بَيْتِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَخَدَمِهِ فَهُو لَهُ صَدَقَةٌ» وليس بعد هذا ترغيب في الصرف على العائلة.

ومما يدلك على ما للعائلة من الشأن الخطير وما للصرف عليها من التأثير الكبير في نظر ديننا الحنيف ما قاله ﷺ في هذا الحديث الشريف: «دِينَارًا أَنْفَقْتَهُ في سَبِيلِ اللهِ وَدينَارًا أَنْفَقْتَهُ في رَقَبَةٍ وَدِينَارًا تَصَدَّقْتَ بِه عَلى مِسْكِينٍ وَدِينَارًا أَنْفَقْتَهُ عَلى أَهْلِكَ أَعْظَمُهَا أَجْرًا الذي أَنْفَقْتَهُ عَلى أَهْلِكَ».

نعم إن الإسلام يأمرنا بالتقشف المعروف عند العامة من حرمان النفس من كل شيء وجعل المعيشة على درجة من الشَّظَف يعسر معها كل تهذيب خلقي، ويحرض النفوس يومًا ما إلى كسر قيود الدين بالمرة كما حصل ذلك في كثير من الأمم، بل إنَّا نرى الدين الإسلامي يأمرنا بالسعي في إصلاح حالة معيشتنا، جاعلاً ذلك الإصلاح شطرًا منه. قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ مِنْ فِقْهِ الرَّجُلِ اسْتِصْلاحَ مَعِيْشَتِهِ وليسَ مِنْ حُبِّ الدُّنْيَا طَلَبُ مَا يُصْلِحُكَ».

ولكن كيف يتأتى للرجل استصلاح معيشته إذا لم يكن ذا عمل يستغله أو مهنة يتكسب منها؟ لا شك يجب علينا أن نتكلم على مقام المال والعمل في الإسلام لنبطل حجة القائلين بأن الأديان تُكَرِّه العمل للإنسان، فنقول والله المستعان:

مقام العلم والجد في نظر الإسلام

إن أقل نظرة في حالة الجمعيات المختلفة التي تتنازع البقاء الآن على سطح هذه الكرة تدلنا دلالة محسوسة على أن أسبق هذه الأمم كلها في مضمار الفوز بحاجيات السلطة والعلاء هي الأمة المركبة من أفراد أَلِفُوا الكد والعمل وتركوا الجبن والكسل، وعلى هذا فيجب أن يحسب العمل من ضمن القواعد المهمة الممدينة لأفراد النوع البشريّ، والحافظة للأمم حياتها واستقلالها، نعم هكذا يعتبره علماء العمران الآن ولأجله يندِدون على الأديان زاعمين أنها تحبب الكسل للإنسان وتقذف به إلى حضيض الهوان.

نحن لا يهمنا في هذا الكتاب إلا تبريء الإسلام من هذه التهمة الفاضحة، وإثبات أنه من أقوى العوامل في الترغيب إلى الجد والعمل، وأن قواعده من أشد القواعد تنفيرًا عن الكسل.

أجل الإسلام يرشدنا إلى الجد في العمل للحياة الدنيا بقدر ما يرشدنا إلى الجد في العمل للحياة للأخرى. قال عليه الصلاة والسلام: «اعمل لدنياك كأنَّك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا» وقال عليه الصلاة والسلام: «أَصْلِحُوا دُنْيَاكُم واعْمَلُوا لآخِرَتِكُم كَأَنَّكُم تَمُوتُون غَدًا» في هذين الحديثين رد على الذين توهموا أن صلاح الدنيا أمر يغضب الخالق جلَّ شأنه، ويستوجب سخطه

عليهم، فنبذوها نبذ النواة ومَحَّضوا[١] أنفسهم للتعبد والزهادة بِإِضْنَاء[٢] الأجسام وإِنْضَاء[٣] العقول، ولم يعلموا أن الدنيا دار حرب وهيجاء، وأن القائم فيها يغلب القاعد ويستعبده فيحرمه كل حقوق الحياة، وأن الطبيعة البشرية لا تلبث أن تقيم الحجة على مهملي أمرها فينقلب تعبدهم الموهوم فسقًا وتنكسهم إجرامًا، هذا دلنا عليه تاريخ الأقوام التي أفرطت في كراهة الأشياء الدنيوية وفرطت في حقوق ضروراتها الحيوية بسوء فهمها لنصوصها الدينية، فلم تلبث أن لعبت بها أيدي الغوائل الطبيعية فَارْتكَسَتْ[٤] إلى أسوأ حالة من الفسوق، لو اطلعت عليها لوليت منها فرارًا ولملئت منها رعبًا.

أما الديانة الإسلامية وهي ديانة آخر أدوار الإنسانية، فلم تقرر في مبادئها أمثال تلك العبادة التي كان يقصد بها معالجة نفوس تلك الأمم الصخرية، بل قررت أن كل عمل يكون مناسبًا لسنن الحياة وملائمًا للنواميس التي تعلي شأن العائلة البشرية، وترفع أميال النفس عن حضيض البهيمية، يجب أن يعد عبادة خالصة لله تعالى إذا قصد به وجهه الكريم، لا إشباع نهمة الشيطان الرجيم.

ولما كان كسب المال لإقامة أَوَد الفرد والعائلة والجمعية والنوع الإنساني بأسره هو من الأمور التي تساعد على الوصول إلى الغاية التي حددها الله لهذا

---

(١) محضوا: أخلصوا. (م).
(٢) إضناء: إجهاد. (م).
(٣) إنضاء: إتعاب. (م).
(٤) ارتكست: ارتدت منقلبة. (م).

النوع، قرر الإسلام أنه من أفضل ما عبد به الإنسان ربه. قال عليه الصلاة والسلام: (أَفْضَلُ الأَعْمَالِ الكَسْبُ الحَلاَلِ) وقال عليه الصلاة والسلام: (مَنْ سَعَى عَلَى عِيَالِهِ مِنْ حِلِّه فَهُو كَالمجَاهِدِ في سَبِيلِ اللهِ. وَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلاَلاً في عَفَافٍ كَانَ في دَرَجَةِ الشُّهَدَاءِ) ولا تحسب أن الإسلام يرغبنا فقط في التكسب والعمل، بل يفرضهما علينا فرضًا ويؤاخذنا على تركهما مؤاخذاتنا على إهمال أمر لاَزب[١]. قال عليه الصلاة والسلام: (طَلَبُ الحَلالِ فَرِيْضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ)

أما المال، وما أدراك ما المال! فهو في نظر الإسلام من أكبر مقومات حياة الأمة ومن أعظم دعائم الارتقاء لها. قال عليه الصلاة والسلام: (سَيَأْتي عَلَى أُمَّتي زَمَانٌ يَحْتَاجُ الرَّجُلُ فِيهِ للدِّرْهَمِ والدِّينَارِ يُقِيْمُ بِهِ أَمْرَ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ) هذا وقد كان بين أصحاب رسول الله من الأغنياء من يكفي ما لهم لتجريد حملة عسكرية، كما حصل من عثمان رضي الله عنه. وهل بعد مدح النبي ﷺ للمال الصالح في قوله: (نِعْمَ المالُ الصَّالحُ للرَّجُلِ الصَّالحِ) يقال إن دين الإسلام ينافي الإثراء خصوصًا في مثل هذا الزمان الذي أخبرنا عنه ﷺ؟ نعم نحن في زمان يجب علينا فيه أن نظهر أوامر ديننا القويمة في الجدّ والكسب؛ حتى تنشط الأنفس من عِقَال[٢] خمولها، وتنمحي تلك الظنون الفاسدة التي يهمس بها بعض من ينتحلون لأنفسهم وظيفة التهذيب والتعليم، فإن العامة صارت الآن لا تسمع من إرشاد الدين إلا ما ينفرهم عن العمل، ويبعدهم عن التكسب ويحبب إليهم

(١) لازب: ضروري. (م).
(٢) عِقَال: قَيْد. (م).

القنوع والتقشف، وهو إرشاد لم تُراع فيه الحكمة النبوية من مداوة القلوب بأوفق علاجاتها.

أما والعلم لو أن النبي ﷺ أمر الناس بكراهة المال وترك العمل ولو بقدر جزء من مائة مما يفعله اليوم بعض المعلمين، لما وجد في الصحابة من يملك شَرْوَى نقير[1] لأنهم رضوان الله عليهم كانوا أطوع الناس لسيد الأنام ﷺ، ومع ذلك فإنا نرى الأمر بخلاف ذلك على خط مستقيم، وها هي أوامر الله تعالى في كتابة الكريم حاثة على الكسب، وها هي السنة الشريفة داعية إليه بأكثر مما نرى في كتب مدنية هذا العصر. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص/٧٧] ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة/١٠] وقال عليه الصلاة والسلام: «نِعْمَ المَطِيَّةُ الدُّنْيَا، فارتَحِلُوها تُبَلِّغْكُم الآخِرَةَ». وقال عليه الصلاة والسلام: «طَلَبُ الحَلاَلِ جِهَادٌ».

وكان رسول الله ﷺ جالسًا مع أصحابه، فنظروا إلى شاب ذي جَلَد وقوة، وقد بكَّر يسعى، فقالوا: ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله. فقال ﷺ: «لا تَقُولُوا هَذَا؛ فإنَّهُ إنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نفْسِهِ ليَكُفَّهَا عَن المسْألَةِ ويُغْنِيَها عَن النَّاس فَهُو في سبيلِ اللهِ. وإنْ كَانَ يَسْعَى على أَبَوينِ ضَعِيفَينِ أو ذُرِّيَّةٍ ضِعَافٍ فَيُغْنِيهم وَيكْفِيهم فَهُو في سبيلِ اللهِ. وإنْ كَانَ يَسْعَى تكَاثُرًا وتَفَاخُرًا فَهو في سَبِيلِ الشَّيطَانِ» يظهر من هذا الحديث الشريف أن كسب المال تابع لنية الكاسب، فإن قصد به الغرض

(١) شَرْوَى نقير: أقل القليل. (م).

الحق كان مأجورًا، وإن قصد به دنايا الأميال وخسائس الأعمال كان موزورًا ولو كان وجه المكسب حلالاً. قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ طَلبَ الدُّنْيَا حَلاَلاً مُكَاثِرًا مُفاخِرًا لقيَ اللهَ وهُو عليهِ غَضْبَانُ وَمَنْ طَلَبَهَا استِعْفَافًا عن المسْأَلَةِ وَصِيَانَةً لنَفْسِهِ جَاءَ يومَ القيامَةِ وَوَجْهُهُ كالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ».

هذا هو القول الفصل في هذا البحث، بقي علينا هنا أن نتكلم قليلاً على ما يستشهد به بعض المُثَبِّطين[١] بقول إن الرزق مقسوم وإن الكد قد لا يغني فتيلاً. أما نحن فأول المعتقدين بذلك، ولكنا لا نجترئ على اكتناه ما استأثر الله بعلمه، ولا نحاول التنقيب عن عالم الغيب، فما يدريني أن كدي هذا قد يخفق لعلم الله السابق، ومالي ولإثارة هذه الأفكار التي بسوء فهمي لها تصدني عن الشغل والاجتهاد وتلفتني عن منهج الرشاد؟ كلا، إن الشريعة الإسلامية جاءت بقوانين الحياة المُشاهَدة المحسوسة، وفي تعاليمها ما يدل الإنسان على ذلك دلالة بينة.

قرر الإسلام أن الله عَزَّ وَجَلَّ يقسم رزقه بين عباده على حسب تفاوتهم في الجد، فمن كان جده أكثر كان حظه أوفر، والعكس بالعكس، وهذه هي القاعدة التي تبعث الناس إلى التسابق في ميدان هذه الحياة باطمئنان على نيل مكافأة التعب. قال عليه الصلاة والسلام «إِنَّ اللهَ يُعْطِي العَبْدَ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ ونَهْمَتِهِ[٢]».

(١) المُثَبِّطين: المحبطين. (م).
(٢) نَهْمَته: بلوغ همته في الشيء وشهوته فيه. (م).

يصرح الإسلام بلسان فصيح أن الإقدام والهمة في كل أمر هما مِلاك النجاح ومِساك الفوز، وأن الخمول والطَّأَة[١] هما سبب الحرمان وأصل الفاقة. قال عليه الصلاة والسلام: «التَّاجِرُ الجَسُورُ مَرْزُوقٌ. التَاجِرُ الجَبَانُ مَحْرومٌ».

ينادي الإسلام متبعيه قائلاً إن للحياة قواعد ثابتة ونواميس معينة، فمن عارضها عارض إرادة الله تعالى، ومن وفق أعماله على نهجها نال بغيته وفاز بمطلبه، وإن الرزق والكسب خاضعان لهذه النواميس المقررة، فمن خالفها حُرم ومن لاءمها رُزق، وإن من أهم نواميس الكسب التبكير للحاجة والجد فيها. قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ جَدَّ وَجَدَ وَلكُلِّ مجتهدٍ نَصِيبٌ. الصُّبْحَةُ[٢] تَمْنَعُ الرِّزقَ» وقال عمر بن الخطاب – وهو أحد من يجب الاقتداء بهم: «لا يقعدُ أحدُكم عن طلبِ الرزقِ ويقولُ اللَّهمَّ ارزقني؛ فقد علمتم أن السماء لا تُمطر ذهبًا ولا فضة» ومع كل هذا فإنا نستطيع أن نُسكت كل معارض، ونفحم كل مجادل في السعي على الكسب والجد وراء الأمل بقوله ﷺ: «إنَّ اللهَ يُعطي العبدَ عَلَى قَدْرِ همَّتِهِ ونَهْمَتِهِ».

هذا والإسلام يحبب إلى متبعيه الذين يعسر عليهم الكسب أن يهاجروا إلى حيث تسهل لهم المعيشة وتلين الحياة؛ هربًا من الفقر الذي يقول عنه سيد الأنام: «كادَ الفَقْرُ أنْ يكونَ كُفْرًا» وتحاميًا من أن يكون الإنسان عالة على غيره. نعم الإسلام يبعث ذويه إلى السعي في طلب قوام الحياة ولو باقتحام الأسفار

(١) الطَّأَة: اللين. (م).
(٢) الصُّبحة: نوم أول النهار. (م).

ومواصلة التسيار وخوض العباب وتجشم الأوصاب، قال عليه الصلاة والسلام: «سَافِروا تَصِحُّوا وَتَغْنَمُوا».

على هذه السنن البينية سار أصحاب سيد الأنام. قال الإمام أحمد: وكان أصحاب الرسول - عليه الصلاة والسلام - «يَتْجُرون في البر والبحر ويعملون في نخيلهم» هذا ومن يتدبر تاريخ الصحابة والتابعين ير مثالاً لهمة وإقدام وعزم يحق للنوع الإنساني أن يفتخر به حقيقة، وأن يتوق للوصول إلى بعضه. ماذا يرى؟ يرى شِرْذِمة[١] قليلة كانت منزوية بين الشعاب والهضاب، وهي من الفقر والفاقة بمكان لا يساويها فيه غيرها من الأمم قامت تنفض عن رأسها تراب الخمول والضِّعَة، ائتمارًا[٢] بأمثال ما قدمنا من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ولم تزل واضعة إياها نصب عينيها، حتى بلغت في مدة ثمانين سنة من الملك وسَعة السلطان وامتداد دائرة النفوذ ما لم تبلغه دولة الرومان في مدة ثمانمائة عام. بلغت هذا الملك كله وأخضعته لسيطرتها بطريقة تقرب أن تكون طوعًا لا كرهًا إذا قيست بما كان يستعمله الرومان من ضروب القسوة والوحشية واضطهاد المذاهب الدينية، طالع تاريخ القرن الأول من الإسلام تر بعينيك من عجائب الهمم ما لا نستطيع أن نصفه هنا ولو بوجه عام، مما لا تعد همم متمدني هذا العصر بجانبها إلا كسلاً وجبنًا.

(١) شرذمة: جماعة قليلة من الناس. (م).
(٢) ائتمارًا: امتثالاً. (م).

إذا كان الأمر هكذا فأين ذهبت الآن تلك الشهامة القلبية والهمة الإسلامية؟ ثم كيف حل محلها العجز والخَور حتى عن نيل ما كان شائعًا عند أطفال أسلافنا من مكارم الخلال وشرائف الخصال؟

لم يكف الأمة الإسلامية ما هي فيه من الاستكانة حتى قامت بلسان بعض مرشديها تنسب تلك الحالة إلى الإسلام، زاعمة أن لها الأخرى ولغيرها الدنيا. كلا، إن للإسلام الدنيا والأخرى معًا ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل / ٣٠]، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة/ ٢٠١] هذا حديث رب الإسلام ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء/٨٧].

لا يَجْنِ المسلمون على دينهم بأكثر مما فعلوا، ولينظروا إليه نظر عقل وروية ليروا أن أكثرهم الآن لا يتبعون إلا أهواءهم وأفكارهم، ولا يمنعوا علماء المدنية من الالتفات إلى الإسلام بما يدسُّونه ظلمًا إليه، وليعلموا أنه سيأتي يوم في مستقبل قريب جدًّا يظهر الإسلام في العالم برونق يشبه ما كان عليه في زمن سيد الأنام ﷺ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ﴾ [فصلت/٥٣] ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمل / ١٨].

الواجبات الاجتماعية

لا يخلو أي إنسان خصوصًا في العصور المتمدينة من أن يكون: أولاً: عضوًا في جمعية يُحْكم بقانونها ومشاطرًا لأعضائها الآخرين في المعتقد واللغة والمقتضيات الاجتماعية، ثانيًا: يكون مرتبطًا بعلائق الوطنية والمحكومية مع قوم ينافونه في المعتقدات والعادات، ثالثًا: تكون جمعيته التي يكون هو عضوًا منها مسالمة لاتحاد المصالح لجمعيات أخرى تنافيها في سائر الحيثيات أو في أكثرها، رابعًا: تكون جمعيته معادية لجمعية أخرى لاختلاف المسائل الحيوية بينهما. فالثلاث أحوال المتقدمة لا تخلو منها أبدًا جمعية من الجمعيات الكبيرة الحية، وقد ينضاف إليها الحال الأخير حينًا من الأحيان أو أحيانًا كثيرة على حسب أهميتها في الوجود، فإنّا نرى بأعيننا أن أكثر الأمم مدنية وأهمية تجبرها دواعي الاستعمار إلى مواصلة الحروب كل آن حرصًا على مصالحها ولو مع قبائل صغيرة.

مجرد النظر إلى هذا التقسيم يوجب الاعتراف بأنه تقسيم طبيعي لا مناص منه، لأنه لسان حال كل أمة متمدينه وغير متمدينة معاصرة لنا أو بعيدة العهد عنا، نقول الآن إن كل شريعة عادلة يجب أن تضع لكل من هذه الأقسام الأربعة واجبات تنيط رعاياها بملاحظتها أمام كل قسم منها بشرط أن تكون تلك الواجبات منطبقة على العدالة الحقة وموافقة لسنن هذا الوجود، وهذا أمر لم يتوصل إلى إتمامه وتنفيذه على حسب نواميس العدل الحق إلى هذه الساعة إلا الدين الإسلامي، وإليك التفصيل والبرهان:

الإسلام يقسم العالم في نظره في أربعة أقسام كما قدمنا، ويحدد بالنسبة لكل قسم منها واجبات خاصة، ويفرض على المسلمين مراعاتها وملاحظتها، فالناس أمامه تنقسم: أولاً: إلى مسلمين. ثانيًا: إلى ذميين وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يكونون في ذمة الإسلام ومحكومين بقوانينه. ثالثًا: إلى معاهدين أو مسالمين لحكومة الإسلام. رابعًا: إلى محاربين له. فلنتكلم الآن على الواجبات المفروض على المسلمين مراعاتها بالنسبة لكل قسم من هذه الأربعة الأقسام فنقول:

١- واجبات المسلمين فيما بينهم

يجب على المسلم لسائر المسلمين أن يلاحظ نحوهم كلَّ ما تستلزمه الأخوة الحقة، مثل المحبة والمساواة في سائر الحقوق الطبيعية والسياسية. نعم يجب على المسلم أن يعتبر سائر أعضاء الجمعية إخوانًا له بصرف النظر عن اختلاف شؤونهم وتباين أصولهم وألوانهم وأن لا يكون مناط التمايز بينهم إلا المزايا الشخصية والمكتسبات الذاتية، مع جعل هذه الميزة موكولاً الحكم فيها إلى جانب الخالق جلَّ شأنه، وعدم غنائها عن صاحبها أمام القانون العادل.

أما التحاب بين المسلمين فهو شرط أوليّ من شرائط الإيمان؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حتَّى تُؤمِنُوا ولنْ تُؤمِنُوا حتَّى تَحَابُّوا» ونريد هنا أن ننبه أن هذه المحبة يجب أن تكون صادقة خالية من شوائب الرياء والدهاء،

وإلا صارت نفاقًا إن لم ينكشف سره اليوم ففي الغد، ولهذا يجب السعي في تطهير تلك المحبة وجعلها خالصة كما يسعى لتطهير الإيمان من شوائب المكفرات؛ حتى يتم له الحصول عليها، ولن يتم له ذلك إلا بالتبصر في مبلغ علاقاته مع بني ملته، وفي نتائج ركونه إليهم أو ابتعاده عنهم، وفي عواقب الإخلاص لهم أو مداراتهم، بشرط أن يكون عالمًا بحقيقة الحياة وتكاليفها ليرى رأي العين أن حياته مرتبطة بحياتهم وموته بموتهم، إذا تم له الحصول على هذا التبصر كما يجب يجد نفسه مَسُوقًا رغم أنفه إلى إخلاص الحب لبني ملته، كما يكون مسوقًا للالتجاء إلى حصن شامخ هربًا من سيل جارف.

هذه المحبة التي يدعو إليها الإسلام هي مناط كل سعادة اجتماعية، وَمِلاك كل مدنية حقيقية. ادرس أحوال الأمم المتمدينة وتأمل جيدًا في دقائق أجزائها، تر أن أكثر الأمم تماسكًا بين آحادها وتلاصقًا بين أفرادها هي أسبقهم إلى مضمار السعادة الحيوية، وأولهم كلمة في الأحوال العمومية، وتر مثل هذه الأمة لا تَعْثُر حتى تقوم، ولا تهمد حتى تنشط، فبينما تراها مرتبكة في أمورها الخارجية ومهددة في منابعها الحيوية مما يقرب إليك الجزم بقرب سقوطها ووشك انحلالها، لا تلبث أن تراها قامت تنفض عن رأسها غبار الارتباك وصاحت بمن يناوئها من كل جانب؛ فبددتهم بغير سلاح، ورفعت في سر هربهم الأقداح، هذا من أسرار التماسك الذي هو نتيجة المحبة، وليس ما نراه في الأمم اليوم إلا جزءًا يسيرًا مما كان بين آبائنا الأُوَل، فرفعهم إلى أَوْج لم ينله للآن غيرهم، وأوصلهم إلى مجد لم

يَتُق[1] إليه سواهم. تمَّ لهم ذلك بعد التقاطع والتنابذ بفضل الديانة الإسلامية والعمل بأوامرها السماوية، ولو أردنا أن ننقل هنا ما ورد في ضرورة التحاب بين المسلمين للزمنا صفحات كثيرة جدًّا، فنكتفي بإيراد حديث شريف يدلنا على نقصان إسلام الذين يدعونه زورًا حالة كونهم لا يهتمون إلا بأنفسهم وملاذّهم صارفين النظر عن كل ما يعود بالنفع على إخوانهم وهو : «ومَنْ أَصْبَحَ لا يَهْتَمُّ بالمُسْلمينَ فَلَيسَ مِنْهم».

ولنورد هنا بعض حقائق تاريخية تدلنا على مبلغ المحبة الأخوية التي كانت موجودة بين أفراد الجمعية الإسلامية الأولى؛ ليتعظ بها أبناء هذا العصر، وليعلموا أنهم بلغوا منها درجة لا تحصل بين أخوين شقيقين في هذا الزمان، قال حذيفة العدوي: «انطلقتُ يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي شيء من ماء وأنا أقول إن كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه، فإذا أنا به، فقلت: أسقيك فأشار إليّ أن نعم، فإذا رجل يقول: آه؛ فأشار ابن عمي إليّ أن انطلق به إليه، قال: فجئته، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك. فسمع به آخر، وقال: آه، فأشار هشام انطلق به إليه، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي، فإذا هو قد مات» انظر إلى هذه الأرواح الطاهرة التي يحنو بعضها على بعض حتى في ساعة لا تستطيع الوالدة فيها أن تفتكر في فلذة كبدها. انظر إلى هذه النفوس الزكية التي تُؤْثِر غيرها عليها في ساعة هولها

(١) يَتُق: يطمح. (م).

عظيم وألمها جسيم ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر/٩]. ثم تأمل فيما تستلزمه هذه المحبة من الأوصاف التي يفتخر بها هذا الإنسان ويدعي استنادًا عليه أنه أرفع من الحيوان. هل بعد هذا التماسك العجيب بين أفراد آبائنا الأُوَل نستغرب سرعة امتلاكهم لأَزِمَّة هذه المعمورة مع قلة عددهم وَعُدَدهم؟ هذه المحبة الحقة كانت شأن كل فرد من الأفراد سواء كان أميرًا أو حقيرًا غنيًّا أو فقيرًا، وما كان يصد ذا المقام السامي ما هو فيه من الرئاسة عن أداء واجبها بدون إخلال بوظيفته. اجتمع مرة قراء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل عليها - أي واليها - فقالوا: لنا جار صوَّام قوَّام يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله، وقد زوّج ابنته من ابن أخيه، وهو فقير وليس عنده ما يجهزها به، فقام عبدالله بن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلهم داره، وفتح صندوقًا، فأخرج منه ست بِدَرٍ[١]، فقال: احملوها، فحملوا، فقال بن عباس: «ما أنصفناه؛ أعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه، ارجعوا بنا لكي نعينه على تجهيزها فليس للدنيا من القَدْر ما يشغل مؤمنًا عن عبادة ربه، وما بنا من الكِبْر ما لا نخدم أولياء الله تعالى». ففعل وفعلوا.

بسريان هذه المحبة الصحيحة في الأمة الإسلامية الأولى تأيدت دعائم المساواة والحرية والعدالة فيها تأييدًا لا يُبلغ شَأْوه[٢] ولا يُتحصل بغير الإسلام على جزء منه مما سنتكلم عليه تفصيلاً في فرصة أخرى.

---

(١) بِدَر: أكياس بكل واحد منها ألف أو عشرة آلاف درهم، مفردها بَدْرة. (م).
(٢) شأوه: غايته وأمده. (م).

هذا وقد ناط الدين الإسلامي بكل فرد من أفراد المسلمين واجب السعي في إعلاء كلمة الأمة وتأييد مركزها، وقرر أن أعظم عبادة يحبها الله تعالى هي السعي وراء تحقيق السعادة العامة. قال عليه الصلاة والسلام من حديث: «إِنَّ صَبْرَ أَحَدِكُم سَاعَةً فِي بعضِ مَوَاطِنِ الإسْلامِ خَيرٌ لهُ مِنْ أَنْ يَعْبُدَ الله وحدَه أربعين عَامًا». وقال عليه الصلاة والسلام: «صَلاَحُ ذَاتِ البَيْنِ خَيرٌ مِنْ عَامَّة الصَّلاةِ والصَّوم» وقال عليه الصلاة والسلام: «عَدْلُ يَوْمٍ خيرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّين سَنَةً»، «مَنْ قَضَى حَاجَةً لأَخِيهِ فَكَأَنَّما خَدَمَ الله عُمْرَهُ»، «مَنْ مَشَى فِي حَاجَة أَخِيْهِ سَاعَةً مِنْ ليْلٍ أَو نَهَارٍ قَضَاهَا أَو لَم يَقْضِهَا كَانَ خَيْرًا لهُ مِن اعتِكَاف شَهرين»، «مَنْ عَلِمَ عِلْمًا فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ الله يومَ القِيَامَة بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ».

لا شك أن من يتأمل فيما سردناه هنا من الأحاديث الشريفة ير بعينيه أن مقصد الله - جلَّ وعلا - من سن الأديان ليس هو التهالك في العبادة الجسمية أو التفاني في الزهادة المضنية، بل قصده تهذيب الجمعيات البشرية وترقيتها إلى أَوْج مدنيتها بسيادة النواميس الممدينة على أفرادها. ألا ترى أنه يقول إن سماع كلمة حكمة خير من اعتكاف شهرين، وإن إصلاح ذات البين خير من عامة الصلاة والصيام؟

اللهم ارزق المسلمين تبصرًا في دينهم، وهمة لمحو الخزعبلات من أذهانهم، حتى يستطيعوا أن يروا الإسلام بالعين التي يجب أن يُرى بها، فإن من يفهم ما نقلناه هنا من الأخبار النبوية يتحقق أن المسلمين الآن بتقاطعهم وتنابذهم

وجهلهم قد نبذوا دينهم ظِهريًّا، واستوجبوا سخط الخالق باتباعهم لأهوائهم. نعم إن هذه الأحاديث تدلنا على أن التقاطع والتباغض ينافي الإسلام بالمرة، بل هو مُرُوق منه، فإن الله ﷻ لم يُنزل هذا الدين للأفراد، بل أنزله لعموم الجمعية، فإن أكثر أوامره لا يمكن العمل بها إلا بالالتئام والوئام لا بالتقاطع والانفصام. قال عليه الصلاة والسلام: «الإِسْلامُ إِلى الجَمَاعةِ أَحْوجُ من الجَمَاعَةِ إلى الإسْلاَمِ».

استطراد إلى الرق في الإسلام

نحن لا نحب أن نختم هذا الفصل قبل أن نُري القارئ اللبيب أحكام الديانة الإسلامية بالنسبة للأَرِقَّاء[1]؛ فإن في ذكر هذه المسألة فوائد جليلة جسدًا تجعلنا ندرك الفرق الهائل بين العدالة الإلهية والعدالة البشرية، فنقول: كلما رأيته من حقوق المسلم على المسلم ينطبق تمامًا على الأرقاء فهم بحكم الشرع إخوان مواليهم للحديث الشريف: «إِخْوانُكم حَولَكُم جَعَلَهُم اللهُ تَحْتَ أَيْدِيْكُم».. إلخ، وبناء على هذا فليس لأعظم عظيم حق في التفاخر على عبد زنجي مسلم مهما كانت صفته.

ومما يجمل الاستشهاد به في هذا الموضوع أن أبا ذر الغفاري رضي الله عنه كان يناقش عبدًا بحضرة النبي ﷺ فغضب منه، وقال له: يا ابن السوداء، فما أتم هذه الكلمة حتى التفت النبي ﷺ وقال له: «طَفَّ الصَّاعُ طفَّ الصَّاعُ[2] ليسَ لابنِ

(١) الأرقاء: العبيد المماليك، جمع: الرقيق. (م).
(٢) طَفَّ الصاعُ: طفح الكيل، والمراد: زاد الأمر عن حدِّه. (م).

البيضَاءِ على ابنِ السَّودَاءِ فَضْلٌ إلا بِعَمَلٍ صَالحٍ». فوضع أبو ذر عند ذلك خده على التراب وقال للزنجي: «قُم فَطَأْ على خَدِّي»، وكان عبد الرحمن بن عوف إذا مشى لا يفترق عن عبيده لتشابه أَلْبِسَتِهِم وتشاكل أزيائهم وعدم تقدمه عليهم، وروي أن الإمام عليًا - رضي الله تعالى عنه - ذهب مرة إلى السوق مع رقيقه فاشترى ثوبين، أحدهما أكثر ثمنًا من الآخر، فأعطى خادمه الأثمن وأخذ لنفسه الآخر، فقال له الرقيق: «أنت يا مولاي أحق بهذا الثوب» فقال له أمير المؤمنين: «كلا إنك أولى به مني، لأنك شاب وأما أنا فقد هَرِمْتُ[1]» وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «إن أبا بكر سيدنا وأعتق سيدنا» (يعني بلالاً الزنجي). فانظر بأبيك كيف ساد حب المساواة في أفكار الصحابة وهم ملوك العرب في الجاهلية حتى صار مثل عمر لا ينظر إلى بلال الزنجي إلا من حيث خصائصه لامن حيث لونه ولا أصالته! ولما احتضر عمر ولم يرد تعيين خَلَفٍ له، سُمع يقول: «لو كان سالم مولى أبي حذيفة (أي رقيقه سابقًا) حيًّا ما جعلتها (أي الخلافة) شورى».

فهل سمعت أيها القارئ في تاريخ البشر أن حب المساواة والإخاء والحرية ساد في أمة من أمم الأرض إلى هذه الدرجة؟ إن هذه المساواة لم يحلم به فيلسوف للآن حتى في آخر القرن التاسع عشر، ولا يتصور أحد من متشرعي هذا القرن أن من الممكن حدوث هذه المساواة ولا بين أكثر الأمم مدنية وعدلاً، فمن يلومني الآن إذ قلت بأرفع صوت إن هذه المساواة هي آخر ما يمكن حدوثه بين البشر، وإن

(١) هَرِمْتُ: كَبُرتْ سنِّي. (م).

كل خطوة تخطوها الأمم المرتقية في سبيل تعميم هذا المبدأ العظيم ليس هو إلا تقربًا من هذا الأُسّ الإسلامي؟ ومن يكذبني إذا قلت إن هذه المساواة الحقة لم تسطر للآن إلا في الكتب الإسلامية. اللهم اهد المسلمين للتمتع بجمال دينهم، وألهمهم ذكرى مُؤَثَّل مجدهم(١).

هنا يحتمل أن يسألنا سائل فيقول إذا كان الإسلام كما ذكرت قرر المساواة بين الأرقَّاء والأحرار إلى هذه الدرجة، وأظهر لهم من الشفقة والرحمة ما لم يحصل مثله في تاريخ البشر بأسره حتى قرر قتل الحرّ بالعبد وعدم قتل العبد بالحرّ، فلماذا لم يقرر إبطال الرق ومحوه؟ فهل كان إبطال الرق أشد صعوبة من إبطال عبادة الأوثان؟ فنجيب: إن الإسلام دين عام لم يأت إلا لأجل أن يُتبع ويُسار بحسب تعاليمه، ولا يصح ذلك إلا إذا كانت أوامره ونواهيه ملائمة للطبيعة البشرية التي فُطر الناس عليها، ومناسبة للبواعث والأميال الإنسانية التي لا مفر من التأثر بتأثيراتها، ومشاكلة للنواميس السائدة على الجمعية الآدمية رغم أنفها، وعلى غير علم من أفرادها ليرتقي النوع الإنساني تدريجيًّا من حالة البهيمية التي كان فيها إلى ذروة المدنية التي سيلاقيها، هذه النواميس أحس بوجودها فلاسفة العمران مثل (أوجست كنت) و(هجل) و(سبنسر) وغيرهم لأنهم رأوا النوع الإنساني متبعًا سلسلة في الترقيات منتظمة الحلقات لا يمكن تخلفه عنها بوجه من الوجوه رغمًا عن الفتن التي تعتريه والثورات والمظالم التي تنشب فيه،

---

(١) مُؤَثَّل مجدهم: عراقة مجدهم. (م).

بل قالوا إن كل هذه العقبات التي تظهر للنظر البسيط عوائق وحوائل ما هي إلا فواعل تسوق إلى الأمام وتُخرج الإنسان من الخلط إلى النظام، فكل حكمة يقولها الفلاسفة مهما ظهرت للسامع المجرد سامية عالية فلا تتصور أنه يمكن العمل بها في طبقات الأمم إلا إذا لوحظ معها سير نواميس التدرج البشري وتطوره، وهيهات أن يصل الحكماء إلى سير تلك النواميس بالدقة مهما كانوا مطلعين أو منقبين.

إن من يمعن نظره في تطورات الإنسان وتدرجه في الترقي الفكري والمادي ير بطريقة محسوسة أن كل تطوّر دخل فيه شعب من الشعوب لم يحصل إلا في الوقت الذي صار فيه الجسم العام للهيئة الاجتماعية متهيئًا ومستعدًّا للدخول فيه. إن نواميس الحرية والمساواة لم تشرق على أفق بعض ممالك أوروبا ائتمارًا بقول فيلسوف أو إجابة لنصيحة حكيم، كلا، بل تقدم ذلك مناسبات ومقتضيات هيأت جسم الهيئة الاجتماعية إلى قبول شكل آخر غير الشكل الذي كانت به. وهذا بحث لو أطلقنا له عِنان القلم لأدانا إلى تطويل ليس هنا موضعه.

بناء على هذه القواعد الأساسية الثابتة جاءت الديانة الإسلامية مراعية لسير تلك النواميس الطبيعية السائدة على الإنسان مراعاة تدهش المتبصر وتحير المتدبر؛ فبينما نرى القوانين والقواعد الوضعية التي رقّت المجتمعات حينًا من الأزمنة السابقة صارت الآن مما لا ينطبق أصلاً على الأحوال الراهنة نرى بعكس ذلك القواعد الإسلامية حافظة لشيبتها لم يَعْتَرِهَا هرم ولم يعتورها سقم. نراها

لم تزل ولن تزال كما كانت تنطبق على كل جمعية وتلائم كل استعداد وقابلية؛ ذلك لأنها هي نفسها تلك النواميس المرقية التي ظل يتحسسها علماء العمران من أول نشأة الإنسان للآن.

نحن لا نقدم كل هذه المقدمة لنبرهن للعالم أن الرق قاعدة من قواعد الإسلام يجب أن يوجد الآن؛ ولكنا نريد أن نعلل عدم إبطال الإسلام له في نشأنه بالبرهان الحسي والدليل المشاهد، ولا نرى لأجل هذا دليلاً أقوى من نقل قول العلامة لاروس في دائرة معارفه. قال: «إن الحروب أفادت النوع البشري كثيرًا، حتى إن أسوأ نتيجة من نتائجها وهي الاسترقاق لم تخل من فائدة كبرى ومزية عظمى. ولا يستغربن القارئ هذا الأمر؛ فإن ترقي النوع البشري قد يأتي أحيانًا من طرق لا يُظن مجيئه منها: فبالاسترقاق تحررت المرأة من ذل الأسر الذي كانت فيه عند بعلها؛ فإنها كانت عنده لا تفترق عن العجماوات والبهائم، ولما جاء الرقيق رفع عن كاهلها كثيرًا من المصاعب التي كانت منوطة بأدائها وأسماها نوعًا ما في عين الرجل، لأن دخول الغريب إلى العائلة يقضي على أفرادها باحترام بعضهم بعضًا أمامه. كل هذه المزايا أثرت على المرأة تأثيرًا حسنًا أَهَّلها لأن ترتقي سلمًا من التهذيب، وبترقي المرأة تحسن شأن النوع البشري وارتقى تبعًا لها إلى معارج الفلاح، أما الآن فلم يبق وجه للاسترقاق؛ فإن الأعمال قد خفت وطأتها عن عواهن البشر، وجاءت الآلات الميكانيكية فأراحت الإنسان كثيرًا عما كان عليه في الأزمنة السابقة.» انتهى باختصار.

نقول ولو كانت الديانة الإسلامية أبطلت الاسترقاق من منذ ثلاثة عشر قرنًا لكانت خالفت سنة الوجود وجاءت بأمر يؤخر متبعيها عن الرقي والمدنية، ولكن حاشاها من معارضة نواميس الحضارة، فإنها أقرته بعد أن حصرته في دائرة محيطها الحكمة والعدالة، وأسبغت على الآسر والمأسور نعمًا لا يمكن تفضيل أحدهما على الآخر فيها، فلم تبحه إلا في الحروب الشرعية ضد الأمم الوحشية غير المسلمة، بينما كانت الأمم الأخرى متبعة في الاسترقاق طرقًا بربرية يأنفها الإنسان ويستقبحها الحيوان، ثم لم يكف الإسلام حصره في هذه الدائرة المحكمة بل جعل للأرقاء حقوقًا ما كان يحلم بها أحرار الأمم الأخرى في أكثر الممالك حضارة وتهذيبًا، ولو كانت الأمم البربرية تعلم مقدار عناية المسلمين بأرقائهم وشفقتهم عليهم ومساواتهم إياهم لأنفسهم، لقدموا فلذات أكبادهم عبيدًا لهم، ولرجوهم قبولهم كما يرجو الأب الشفوق ناظر مدرسة حكيمة ليقبل ابنه في سلك تلامذته لكي يراه يومًا ما آدميًا كاملاً، وفي الواقع بينما كان آباء أرقاء المسلمين وإخوانهم هائمين في الفيافي والقفار كان هؤلاء في الجمعية الإسلامية موضوع الاحترام والتَّجِلَّة وشاغلين لأسمى المراكز الاجتماعية في الإدارة والحربية مثل بلال وسالم وسلمان وغيرهم. أما وحق المساواة والحرية لو علم ملوك السودان أن عمر بن الخطاب الذي كانت تهتز عروش الملوك عند ذكر اسمه قال لجلسائه إن أبا بكر سيدنا وأعتق سيدنا (يعني بلالاً) لنزلوا عن عروشهم وقدموا أنفسهم أرقّاء لهذه الجمعية التي تجعل عبيدها سادتها؛ نظرًا لمزاياهم الشخصية وخصائصهم الذاتية.

قلنا كل هذا ولكن هل الإسلام أقر الاسترقاق على وجه الاطراد ولم يُشر بطرف خفي يفهمه اللبيب أنه سيكون يومًا ما شرًّا لا خيرًا كما هو شأنه الآن؟ نعم أشار إلى ذلك بإشارة صريحة يفهمها كل إنسان ولا سبيل لتأويلها، فقال عليه الصلاة والسلام: «شَرُّ المالِ في آخِرِ الزَّمَانِ المَمَالِيكُ».

انظر ببصيرتك إلى هذه المعجزات العلمية، وروِّض فكرك في الديانة الإسلامية، وكذب ولو بقلبك الطَّغام[1] الذين ألصقوا بها المشائن الوهمية والمعاير الخرافية بأنها تعتبر الرقيق حيوانًا، وتحث على النخاسة وتندب إليها، ومفتريات أخرى تليت في المجامع وتشبع بها كل سامع، ولكن لابد للحقيقة أن تظهر، وللباطل أن يُدحر، وللإسلام أن يعرف ويشهر ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص/٨٨].

٢- واجبات المسلمين بالنسبة للذمِّيين

(أي لأهل الكتاب الذين هم في ذمة المسلمين)

من يتدبر في تاريخ الإنسان من مبدئه إلى يومنا هذا يتحقق أن محبته لدينه قد تغلبت في فؤاده على كل محبة سواها، فتراه يضحي نفسه وأهله وماله في سبيل تأييده ونصره وهو قرير العين منشرح النفس، هذه المحبة الدينية فهمها أكثر الأقوام على غير المراد منها، وقذفوا بها إلى الإفراط الهائل حتى حببت

(١) الطغَّام: الأراذل. (م).

إليهم اجتراح كل أنواع المظالم واقتراف أَنْكأ الجرائم[١] تحت حجة نصر الدين وكبح جماح الملحدين. حصل كل ذلك لجهل المتدينين لنواميس الحياة البشرية وقوانين الهيئات الاجتماعية مما كان له أسوأ أثر في تاريخ أمثال هذه الأمم الحقود.

أما الإسلام وهو دين المدنية الحقيقية وملاك السعادة الإنسانية، فقد اختط لمتبعيه من هذه الحيثية خطة ليس في مقدور مجموع الفلاسفة كافة أن يقرروا مثلها في أذهان أممهم ولو بلغوا من السلطان على الأفكار أبعد غاية. كيف توصل الإسلام يا ترى إلى اقتلاع جذور الأحقاد الدينية من عقول متبعيه بدون أن يقلل شيئًا ما من محبته في أنفسهم، مع علمنا بأن أكثر الأمم محبة لدينها واحتفاظًا به هي أشدها حقدًا على مخالفيها؟ إنه توصل لذلك بطريقة لم نسمع بها عن قادة المدنية ولم يقررها العالم العلمي إلا من منذ أمد قريب، أي بعد أن وقف علماء الإنسان والعمران على أسرار النفس وتأثير المدنية عليها، فبينما كانت رؤساء أكثر الأديان الأخرى يقولون لمتبعيهم إن الله قد أمر أن تكون العائلة البشرية كلها أمة واحدة متحدة الدين والأخلاق والعادات، فاعملوا على تأييد هذا المبدأ ما استطعتم لذلك سبيلاً، فإن اختلاف النوع البشري يسخط الله لمعارضته لإرادته الأزلية، كان الله تعالى يوحي إلى نبيه لباب الحكمة قائلاً له وللمؤمنين: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود/ ١١٨-١١٩] ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى

(١) أنكأ الجرائم: أكثرها فتكًا. (م).

﴿ ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس/٩٩] ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص/٥٦].

وبينما كان رؤساء أكثر الأديان يأمرون متبعيهم باستعمال أشد الطرق الإكراهية فظاعة لحمل الناس على الدخول في ملّتهم، ولو أدى ذلك إلى قتل الأبرياء وتيتيم الأبناء وتخريب العمران وزعزعة أركان السلام، كان الله تعالى ينزل على رسوله من سماء الرحمة آي الحكمة قائلاً له وللمؤمنين: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف/٢٩] ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة/٢٥٦] و﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل/١٢٥].

كل هذه الآيات البينات غرست في أفئدة المسلمين قاعدتين عظيمتين محتا من نفوسهم كل حقد ديني، ولاشتا[١] كل تعصب مذموم: القاعدة الأولى: هي فهمهم من منطوق هذه الآيات أن الله ﷻ قضى في سابق علمه ضرورة افتراق العالم البشري إلى جمعيات متخالفة المبادئ والغايات، متباينة المشارب والاعتقادات؛ فيكون الساعي ضد هذا القضاء الإلهي بغير ما رسم له عاصيًا ربه مستحقًّا سخطه وغضبه. القاعدة الثانية: هي استنتاجهم من هذه الآيات نفسها

(١) لاشتا: أزالتا. (م).

أن تَنَكُّب[١] الناس عن دين الله سببه تفاوت مدراكهم في الفهم واختلافهم في درجات العقل، وأن لا سبيل إلى انتشار هذا الدين إلا بين من أسعدهم الجَدّ[٢] بإدراك سره وفهم المراد منه، ولذلك أمرهم أن يسعوا إلى نشر الحقيقة الإسلامية من بابها، وهو الدعوة إليها بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالجدل الذي لا تكون عاقبته وخيمة على أحد الجانبين، هاتان النظريتان اللتان يفهمهما المسلمون من كتابهم المبين تجعلانهم لا ينظرون في اختلاف الأديان والمتدينين إلا أشياء مرادةً لله تعالى، سبق بها قضاؤه واستلزمتها حكمته؛ ليتم الإبداع الذي أراده وقدره لهذا النوع البشري. ويزيدهم رسوخًا في عقيدتهم هذه ما أثبته علماء العمران حديثًا من أن اختلاف النوع البشري ضروري لإنماء المدنية واستمرارها، ولازم لإيراد هذا النوع موارد سعادته المرجوة.

بعد أن يقرر الإسلام في أذهاننا هذه المبادئ الحكمية يأمرنا بالتخلق بأخلاق الله في معاملة من يلوون كَشْحًا عن شريعته، فإنه سبحانه وتعالى قادر على أن يعاملهم بما لا يطيقونه ولكنه لا يفعل ذلك، بل يعاملهم في الحياة الدنيا أسوةً بغيرهم وربما ميزهم عن سواهم إذا كانوا أكثر أهلية منهم لنيل السعادة المادية ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [الشورى/٢٠] نعم يأمرنا الإسلام أن نسدل ستارًا كثيفًا على معتقدات مخالفينا في الدين، ويحثنا على معاملتهم بأنواع الرفق ومكارم الأخلاق. قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم

(١) تَنَكُّب: ميل وعدول. (م).
(٢) الجَدّ: الحظ.(م).

مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الممتحنة/٨] وينهانا عن أذاهم ومماكرتهم ونَصْب المخاتل[١] لمشارَّتهم[٢]، قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ آذَى ذِمِّيًا فَأَنَا خَصْمُه، ومَنْ كُنْتُ خَصْمَه، فَقَدْ خَصَمْتُه يومَ القِيَامَةِ»، «مَنْ قَذَفَ ذِمِّيًا حُدّ له يومَ القيامَةِ بِسِيَاطٍ مِنْ نَارٍ».

هذا ودِيننا الكريم يلزمنا بمساواتهم بأنفسنا أمام القانون، ويزجرنا أشد الزجر على اهتضام حقوقهم، وهو الأمر الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ أي أمة من أمم الأرض، أرني أي أمة تأيدت فيها قواعد العدالة ورسخت فيها أصولها لدرجة تقتل أحد أعضائها عقوبة له على قتله أحد الأجانب عن دينها الرسمي حالة كونها في أوج عظمتها، وقادرة على أن تفعل ما أرادت من أنواع المظالم في جانبهما؟ جاء في التاريخ الإسلامي أن يهوديًا اشتكى عليًا للإمام عمر – رضى الله عنهما – وعليّ كما لا يخفى ابن عم النبي وزوج ابنته وأحد المرشحين لمركز الخلافة، فقال له: قم يا أبا الحسن فاجلس أمام خصمك، ففعل ولكن مع تأثر لاح على وجهه، فلما انتهت القضية سأله عمر قائلاً: أكرهت يا عليّ أن تجلس أمام خصمك؟ قال: لا، ولكنني تكدرت لكونك لم تلاحظ المساواة بيننا بقولك لي يا أبا الحسن (لأن الكنية تشير إلى تعظيم). قل لي بعيشك هل ورد في تاريخ بني آدم مثل هذه المساواة أمام القانون بين أحد عظماء أمة عظيمة يهز اسمها عروش الملوك والقياصرة وبين رجل من السوقة غريب عن ديانتها؟ هذا هو تاريخ الأمم جمعاء يخبرنا أن المساواة

(١) نصب المخاتل: نصب المخادع. (م).
(٢) لمشارّتهم: لمعاداتهم ومخاصمتهم. (م).

لهذا الحد لم تقرر حتى بين الطبقات المختلفة في الأمة الواحدة إلا من منذ زمن قريب جدًّا، مما يحدو بنا إلى الجزم بأن هذه العدالة الحقة لم يُعمل بها مطلقًا في الأمة الإسلامية.

كانت العدالة في الأمم المتمدينة القديمة اسمًا بلا جسم، وكانت العقوبات تتنوع وتختلف باختلاف الرتب والألقاب، أما الشعب ذاته فكان تحت رحمة أهواء سادته الأعلين وقادته الغالين. أما المساواة التي يتبجح بها فلاسفة هذا العصر فهي بنت الثورة الفرنسية الهائلة التي بيعت بها المهج بالمجان، وصبغت فيها الأرض بالأُرْجوان. قال المسيو لاروس في دائرة معارفه: «إن العقوبات في روما عاصمة دولة الرومان كانت تختلف دائمًا في الجنايات المتشابهة على حسب اختلاف حالة المجرمين وحيثيتهم»، ثم ذكر تفصيل الجور، وانتقل من قانون الرومان إلى قانون الفرنسيين قبل الثورة الفرنساوية، وألصق به مثل هذا الخلل في قواعد العدالة ثم قال: «إن ثورة سنة ١٧٨٩ قذفت كل هذه الامتيازات بنفس الحركة التي محت الألقاب المختلفة التي كانت تابعة لأصالة الشخص أو للوراثة».

فقل لي بعيشك كيف لا يفتخر المسلمون بدينهم إذا تحققوا أن هذه المساواة التي يقول عنها الفلاسفة إنها سبب كل سعادة اجتماعية لم تقرر لأول مرة إلا في الجمعية الإسلامية، وأنها لم تقرر فقط بالنسبة للمسلمين فيما بينهم بل بين أعظم عظيم فيهم وبين أحقر حقير من غير ملتهم؟ اللهم إنَّا نعتقد أن هذه العدالة

ليست من موضوعات البشر، ولم تكن في مُكنتهم مطلقًا قبل أربعة عشر قرنًا، بل هي عدالتك التي غمرت كل شيء، وسادت كل شيء، فمتعنا اللهم بالتدبر في معجزات دينك، إنك على كل شيء قدير.

الإسلام يأمرنا بمجاملة الأجانب عن ديننا ومحاسنتهم، ولكن لا من باب المواربة والمداهنة خوفًا منهم وطمعًا فيهم، كلا، بل عن صفاء نية وسلامة طوية، حتى إنه ينهانا عن اغتياب أحدهم وذكره بما يكره، كما ينهانا عن اغتياب أحدنا سواء بسواء. ولم يحلل لنا بوجه من الوجوه نصب الحبائل لهم لمصادرة أشيائهم تحت ستار القانون المموه أو العدالة الوهمية، كما فعله ويفعله كثير من الأمم بالنسبة للمخالفين لمعتقداتها.

وقد ترك لنا رسول الله ﷺ وأصحابه أعظم أسوة يجب أن نتأسى بها في معاملة الأجانب عن ديننا ومخالفي معتقداتنا، فإنه عليه أشرف التحية والسلام كان يحضر ولائمهم، ويغشى مجالسهم، ويشيع جنائزهم، ويعزيهم على مصائبهم، ويعاملهم بكل أنواع المعاملات الاجتماعية التي لابد منها في كل جمعية محكومة بقانون واحد وشاغلة لحيز مشترك. روت السنة الكريمة أن سيد الأنام ﷺ كان يقترض من أهل الكتاب نقودًا ويُرهنهم أمتعته الشريفة، لا عجزًا من أصحابه عن إقراضه؛ فإنه كان منهم المثرون[١] وذوو الأملاك الشاسعة، وكلهم مستعد لأن يضحي نفسه ونفيسة في سبيل مرضاة نبيه، ولكنه ﷺ كان يفعل

(١) المثرون: أصحاب الثراء. (م).

ذلك تعليمًا للأمة وإرشادًا لها أن الإسلام أكبر وأجل من أن يأمر ذويه بقطع العلائق مع من يعيشون معهم في مكان واحد بحجة أنهم مغايرون لهم في المعتقد. وفي ذلك دلالة ناطقة على أن المسلم يستطيع أن يعيش بمفرده في بلاد أجنبية عن دينه ولا يضره كون أهلها من غير ملته، بل ويسمح له أن يتزوج منهم.

ليس فيما بين أيدينا من أسفار المدنية ما يرينا أن هناك فلسفة تهدي إلى احترام النوع البشري بمثل ما يهدي إليه الإسلام ويأمر به. تصفح تواريخ الأمم سابقها ولاحقها تر بعينيك من آثار قسوة الإنسان على الإنسان ما يحملك على اليأس من سيادة الناموس الاحترام النوعي بين أفراد البشر ويجعلك تثق بقول المتنبي:

والظُّلمُ مِنْ شِيمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ذَا عِـفَّـةٍ فَـلِعِـلَّـةٍ لا يَـظْـلِـمُ

نعم يرينا التاريخ آثار ظلم الإنسان للإنسان ما تقشعر له الأبدان ويخجل منه الحيوان، وأن كل هذه الفظائع كانت تحصل انتصارًا للأديان، نحن لا نتصور أن دينًا سماويًّا يأمر ذويه بالفتك بمن يخالفهم واستئصال شأفتهم[١] بأفظع الطرق، ولكنا ننسب ذلك كله إلى سوء فهم متبعيها، وإدخالهم الغش والتدليس فيها لمآربهم الشخصية وأميالهم البهيمية، قد بلغت تلك الوحشية في الإكراه لدرجة كانوا يرمون بني نوعهم طُعْمَة للنار المتأججة، أو فريسة للحيوانات الكاسرة، أو يربطون رجليه في ذيلي حصانين شديدين ويطلقونهما في اتجاهين متخالفين، أو

(١) استئصال شأفتهم: إزالتهم من أصلهم. (م).

يصبون على جلودهم القطران والقار الغاليين في النار، أو يعلقونهم على نيران هادئة أيامًا عديدة ولا يهتمون بأنينهم ولا زفيرهم، فتتساقط لحومهم وتذوب شحومهم. كل ذلك كان يحصل على مرأى ومسمع من الناس، فلا يجدون من أنفسهم فؤادًا يشفق أو إحساسًا يتأثر، بل كانوا يمرون عليهم متفرجين متشفين.

قل لي بأبيك أين هذه الصدور المتأججة بالأحقاد، الملتهبة بالأضغان، التي تحمل ذويها على استئصال الأمم ومحو اسمها لمجرد رفضها ترك دينها من تلك الصدور الإسلامية الرحبة المملوءة حكمة ورحمة، المفعمة مروءة وهمة؟ تلك الصدور التي كانت تسمح لنواقيس الكنائس أن تدق بإزاء مآذن المساجد بدون أن تحرك منهم ساكنًا أو تسبب غيظًا، بينما كانت مقاليد مقادير العالم بأسره بين أيدي المسلمين بلا منازع ولا شريك، فإنهم كانوا يستطيعون ولا شك أن يحجروا على حرية أديان مخالفيهم مثل ما فعلت الرومان وغلت فيه.

كان الجيش الإسلامي يدخل مكللاً بالفَخَار في أحشاء الممالك المخالفة له اعتقادًا، فيجعل أكبر همة طمأنة الناس على دينهم وتهديء روعهم على حفظ معابدهم، متعهدًا لهم بحمايتهم والدفاع على ذِمارهم[١]، ويطلق لهم تمام الحرية في إجراء كل طقوسهم الدينية وعوائدهم المِلِّيَّة، كل ذلك عملاً بتعاليم الإسلام وجريًا على سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

(١) ذمارهم: كل ما يلزم صيانته والدفاع عنه كالأهل والعرض والمال. (م).

هل بعد هذا يستطيع مكابر أن ينكر على المسلمين احترامهم للنوع البشري أكثر من كل أمة سواهم، أو يجحد أن دينهم أعلى وأسمى من أن يبني على اختلاف المعتقدات الإباحة المطلقة في سبيل الفتك والقسوة؟ الإسلام لا يحلل الجور لمتبعيه حتى مع ألد أعدائهم في ساحة الوغى وميدان الهيجاء. قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [البقرة/١٩٠].

الإسلام لا يأمر الرجل بقطيعة أهله لمخالفة دينه لدينهم، بل يوجب عليه معاشرتهم بالمعروف، وعمل كل الطرق في أداء واجباته نحوهم، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ . وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [لقمان/١٤-١٥].

رُوي عن أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنهما – قالت: أتتني أمي راغبة في عهد النبي ﷺ فسألته أأصلها قال: «نَعَم»، قال ابن عتيبة: فأنزل الله تعالى: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [الممتحنة/٨] الآية، وأرسل عمر على عهد رسول الله ﷺ حُلّة إلى أخيه هدية وهو مشرك.

الإسلام دين عام لم يجعله الله خاتمة للأديان وهو مريد به التفريق بين الأهل والعشيرة ولا بين أبناء الوطن الواحد ولا بين النوع الإنساني بأكمله، بل إن الرجل ليستطيع أن يكون مسلمًا وهو في عائلة كل أفردها مخالفون له في المعتقد والمذهب، ولا تحمله تلك المخالفة على عمل شيء ضدهم على الإطلاق، بل يلزمه الدين بعمل واجباته بالنسبة لهم والمدافعة عن حقوقهم، ما داموا مراعين نحوه شرائط المحبة وصدق النية.

الإسلام لا يكلفنا بجميل الخصال ومحاسن الخلال لنفعلها فيما بيننا فقط، بل يكلفنا بها لنقوم بها نحو العالم أجمع، طارحين على اختلاف الديانات غطاء كثيفًا وحجابًا غليظًا. قال عليه الصلاة والسلام: «خَابَ عبدٌ وخَسِر لم يجعَل اللهُ في قَلْبِه رَحْمَةً للبَشَر»، وقال: «تَصَدَّقوا عَلى أَهلِ الأَدْيَانِ كُلِّها» بهذه الأوامر الإلهية عمل المسلمون ويعملون، ولو اتهمهم بضد ذلك المضلون، كان عمر جالسًا بين أصحابه، فمر به رجل من أهل الذمة يتسول، فنظر إلى مُجَالِسِيه وقال لهم: إنا لم ننصف الرجل؛ أيصح أن نأخذ منه الجزية وهو شاب ونتركه يتسول وهو شيخ؟ كلا. وأمر له براتب يُصرف له من بيت مال المسلمين. فتدبر – رحمك الله – في هذه النفوس الكريمة والذرائع الرحبة، واعجب كيف تمكن الإسلام بنور الله أن يؤثر على أفئدة أولئك العرب الذين كان يُضرب المثل بجاهليتهم، حتى جعلهم غُرَّة في وجه المكارم، وآية في عدم الحقد الديني، في زمان كانت فيه هذه الأميال الشريفة مفقودة من بين النوع البشري بأسره.

أما حسن معاشرة المسلمين لمن يعيشون بين ظهرانيهم من أصحاب الديانات الأخرى، فمما لم يرد مثله في تاريخ البشر قاطبة. نعم بلغت منهم حسن المعاشرة لمخالفيهم في المعتقد مبلغًا لا تراه يحصل الآن ولا بين أخوين شقيقين رُبِّيا في أسرة واحدة، وتفرعا من نبعة مشتركة. قال مجاهد: «كنت عند عبد الله ابن عمر، وغلام له يسلخ شاة، فقال: يا غلام، إذا سلخت فأبدأ بجارنا اليهودي، حتى قال ذلك مرارًا، فقال له: كم تقول هذه؟ فقال: إن رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورِّثه» قارن - رحمك الله - بين هذه المعاملة المدهشة وبين ما تسمعه في البلاد المتمدينة من الجمعيات السرية والجهرية التي تتألف يومًا ولاهم لها إلا اضطهاد اليهود وإذلالهم. هل بعد ما بيناه في هذا الفصل يستطيع كلاب الفتنة وذئابها أن يُسَمِّعوا المسلمين بتهمة[١] الحقد الديني (التعصب) وإضمار الشر لكل من ليس من ملتهم؟ إنّا نسمع كل يوم في بلاد المدنية بأمر نازلة من آثار الحقد الديني ما يجعلنا نخجل من سماعها. فهل سمعت يومًا أنه قامت في بلاد إسلامية جمعية جعلت همها معاكسة طائفة من الطوائف التي تدين بغير الإسلام؟ اللهم لا.

نحن قبل أن نختم هذا الفصل نود أن نثبت للقارئ أن الحقد الديني الذي برهنا على تجرد الإسلام والمسلمين منه منذ ثلاثة عشر قرنًا إلى الآن كان ديدن سائر الأمم وداءها الذي أعيا أطباءها، وأنه لم يُتوصل إلى تخفيفه - ولا

(١) يُسَمِّعوا المسلمين بتهمة: يُشهروا أو يفضحوا المسلمين بها. (م).

أقول ملاشاته – إلا منذ قرن تقريبًا، ولا نرى لذلك سبيلاً أحسن من نقل ما قاله الفيلسوف الطائر الصيت جول سيمون في كتابه حرية الاعتقاد. قال: «إن حرية الأديان ليست ببعيدة العهد؛ فإن تاريخ العالم كله هو عبارة عن تاريخ الحقد الديني (التعصب) هذا الحقد الديني الذي هو أقدم من الحرية يتصاعد إلى أبعد عصر في التاريخ» ثم عدد آثار التعصب المذموم في العالم كله من القرون الأولى إلى الأَعْصَار الوسطى ثم قال: «وأخيرًا توصلت الرُّوح الفلسفية إلى تقرير حرية الأديان في ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩، ولكن لم تُحقق هذه الأمنية العادلة إلا في سنة ١٧٩١ وهو تاريخ تحرير اليهود من المظالم. ومع هذا كله فإن الثورة الفرنساوية على ما كانت عليه من خلوها من حسن الإدارة في الأعمال لم تتمكن من تأسيس الحرية الدينية».

أما يحق لنا نحن بعد هذا كله أن نرفع صوتنا قائلين: ليحيى الإسلام دين المدنية والسلام؟

٣– واجبات المسلمين بالنسبة لمعاهديهم

إن حفظ العهد واجب من أكبر الواجبات الإسلامية، فلا يبيح الإسلام نقضه لأي سبب من الأسباب إلا إذا كان المعاهدون هم البادئون بنقضه، كما أنه لا فرق لدينا في حفظ العهد بين أن يكون معاهدونا من أهل الكتاب أو من المشركين. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة/١] وقال الله تعالى

بعد تعداده لصفات المؤمن: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون/٨] هذا ومن يتصفح تاريخ الإسلام من أول نشأته للآن يتحقق أن المسلمين رجال يُضرب بهم المثل في حفظ العهد وصدق النية في القصد، وفي تاريخ رسول الله ﷺ أمثلة تليق أن توضع نصب أعين قادة الأمم في طهارة الذمم وعلو الهمم، ومن يتصفح القرآن الكريم ير فيه من الأوامر لحفظ العهد والنهي عن نقضه ما يجعله يتأكد أن الشريعة المحمدية لا تضارعها شريعة أخرى من حيثية مطابقتها لقواعد العدالة وشدة يقظتها في عدم تعدي حدودها، ألا ترى أن الدين في أثناء تحريضه لعصابته الضعيفة بالثبات أمام عدوهم الشديد البطش لم يَغفل عن تذكير أبنائه - حتى في هذه الساعات الشديدة المخاوف - بمعاهديهم لكيلا يُلحقوا بهم أقل أذى؟ قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة/٣-٤].

أما معاملة المسلمين لأفراد الأمم المعاهدة لهم فلا تفترق عن معاملتهم لأهل الكتاب الذين تقدم الكلام عليهم في الفصل السابق، وقد أوصى عليهم نبينا ﷺ فقال: «أَمرني ربِّي أَنْ لا أَظْلِمَ مُعَاهِدًا وَلاَ غَيْرَهُ» وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قَتَل مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ[١] رَائِحَة الجنَّةِ» «مَنْ أَمِنَ رجلاً على دَمِهِ فَقَتَلَهُ فَأَنَا بريءٌ مِن القَاتِلِ ولو كَانَ المقتولُ كَافِرًا» هذا ومن يتصفح تاريخ الأمم المتمدينة

---

(١) لم يَرِح: لم يشم. (م).

في القرون السابقة يقشعر جلده من سلوكهم مع الأمم الضعيفة؛ فإنهم ما كانوا يعرفون للحق قانونًا غير القوة، ولا للفضيلة ناموسًا غير القوة. فمن كان ينكده الحظ بأن يصير ضعيفًا، كان يقع تحت ذل الأسر والعبودية، ويقيد بالسلاسل والأغلال ليكون آلة لمواليه في الحراثة أو الصناعة أو غير ذلك.

٤- واجبات المسلمين بالنسبة لمحاربيهم

من المجمع عليه تاريخيًّا أن النبي ﷺ قام بأمر الدعوة الإسلامية بمفرده في مكة المكرمة، فتبعه أفراد قليلون منهم نساء وأطفال وشيوخ، فَاضْطُهِد هو ومن أسلم معه اضطهادًا شديدًا، وعُذبوا عذابًا أليمًا مما لا يمكن أن يحتمله إلا من يرى الهلاك أيسر عليه من الارتداد عن حقيقته، مثل ما حصل لخَبَّاب رضي الله عنه حين أُسر وعُذب بالنار، ولما عرضوه للقتل استأذن في صلاة ركعتين، فصلاهما ثم قال: لولا أن تظنوا أن ما بي جزع لأطلتهما، اللهم احصهم عددًا، واقتلهم بَدَدًا[١]، ولا تبق منهم أحدًا، ثم انبرى منشدًا:

وَلسْتُ أُبَالِي حِيْنَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ لله مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلهِ وَإِنْ يَشَأ ... يُبَارِكْ عَلى أَوْصَالِ شِلْوٍ[٢] مُمَزَّعِ

(١) اقتلهم بدَدًا: اقتلهم متفرقين في القتل واحدًا بعد واحد. (م).

هذا ما حصل لأحدهم وما كان يحصل لغيره أشد وأفظع مما يُطلب تفصيله من كتب التاريخ، فاستمرت هذه المصائب على هؤلاء المسلمين مدة ثلاث عشرة سنة، ثم أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة أولاً ثم إلى المدينة ثانيًا، فنموا هناك واشتد ساعدهم؛ فرمتهم العرب كلهم عن قوس، فظلوا في المدينة في أشد الخوف والوجل حتى كانوا يقولون: «ترى نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا من الله عَزَّ وَجَلَّ» فأنزل الله تعالى عليهم هذه الآية طمأنة لهم وتسكينًا لروعهم: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور/٥٥]. ثم لما تجمهرت عليهم القبائل وأتتهم متحمسة حاقدة بقصد إبادتهم واصْطِلامهم[٢]، أذن الله لهم أن يدافعوا عن أنفسهم ويثبتوا، واعدًا إياهم بالنصر والتمكين والفتح المبين، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج/٣٩-٤٠]. فكان سيد الأنام - عليه الصلاة والسلام - ومن معه من النفر القليل يلاقون بصدورهم تلك الجيوش الهائلة والكتائب

---

(١) شِلْو: عُضو من الجسد فُصل عنه. (م).
(٢) اصطلامهم: استئصالهم. (م).

المتراكمة المتراكبة، وهم مطمئنون متيقنون أن الله تعالى لابد أن يحقق وعده لهم ويمدهم، حيث قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور/٥٥] ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام/٣٤] ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم/٤٧] ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة/٢١] فاستعرت نيران الحروب بين طائفة المؤمنين القليلة العدد والعُدد وبين سائر قبائل العرب مدة مديدة، امتحن الله في أثنائها قلوب عباده، واختبر صبرهم وطاعتهم لأوامره، وأمرهم على كل ما يمكن تصوره من المصائب حتى تنقت قلوبهم من كل شائبة، وصار إيمانهم أنقى من النقاء وأصفى من الصفاء، ثم مكن الله لهم في الأرض، وجعل كلمتهم العليا وكلمة أعدائهم السفلى؛ فصاروا قادرين على إبادة أضدادهم عن بكرة أبيهم. ولكن كيف يُتصور أن يحصل ذلك من دين الإسلام دين المدنية والسلام؟ حاشا، بل كان الله تعالى يأمرهم بمبرتهم والعدل معهم، قال ﷻ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة/٨].

ولما مكن الله للمؤمنين ووطد أمرهم وأراد أن يُظفرهم على الذين ظلموهم في أول نشأتهم وأذاقوهم أنواع الآلام، أمرهم أن لا يتبعوا دواعي الانتقام والتشفي لكيلا يخرجوا عن حدود العدل والحكمة، وأراهم أن ذلك يعد عدونًا

وظلمًا فقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة/٢].

لم تأت هذه الأوامر بالنسبة للمقهورين فقط، بل يجب مراعاة الاعتدال والشرف والرحمة حتى في أثناء اشتعال نيران القتال، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة/١٩٠] ومن الاعتداء عند المسلمين سب أعدائهم ولعنهم. لما قتل المشركون عم النبي ﷺ حمزة ومثلوا به وأخرجوا كبدة، بكى بكاءً عليه شديدًا وحزن حزنًا لا مزيد عليه، ودعا عليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران/١٢٨] فكف عن الدعاء عليهم، وقال: «لَئِنْ ظَفَرتُ بِهِم لأُمَثِّلَنَّ بِأَرْبَعينَ مِنْهُم» فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل/١٢٦] فقال عليه الصلاة والسلام «أَصْبِرُ وأَحْتَسِبُ».

أما من جهة أسرى الحروب، فإن النبي ﷺ أمر المسلمين بمراعاتهم وإكرامهم وعدم إساءتهم، فقال: «اسْتَوصُوا بالأُسَارَى خَيرًا» فصار أصحابه ائتمارًا بهذا الحديث يكرمون أسراهم لدرجة أنهم كانوا يعطونهم خبزهم ليأكلوه ويكتفون هم بالتمر.

تدبر رحمك الله ما قدمناه لك في هذا الفصل تر التفاضل الواضح بين هذه العدالة الإلهية وبين ما تقرأه من سيرة الرومان وغيرهم من الأمم التي كانت جاعلة نفسها طاعونًا مجتاحًا للنوع البشري، فهامت فيه قتلاً وسفكًا وتسخيرًا واستعبادًا. واعلم أن كل ما تراه من آثار العدالة في حروب هذا العصر ليس هو إلا تقربًا لهذه العدالة الإسلامية التي هي نموذج لمنتهى ما يمكن حصوله في النوع البشري، فلندع الجمعيات الساعية لتأييد السلم في العالم وإبطال الحرب تعمل عملها العظيم وتَجِدُّ فيه، فإن الإسلام لا يهزأ بعملها هذا، بل ينشطها فيه حتى إذا تم لها ما تؤمله بمساعدة الملوك والقياصرة، ودعمته على دعائم الإخلاص وصدق الطوية، مد كل مسلم إليها يده تاليًا قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنفال/٦١].

نظرة على الإسلام والمسلمين

قد بسطنا في فصولنا المتقدمة كل أصول المدنية التي انبنى عليها كل ما نراه من الترقي في العالم المتمدين، وأقمنا الأدلة الحسية على أنها بعض قواعد الإسلام، حتى يتخيل للرائي أنها مستمدة منه مأخوذة عنه، وبرهنا ضمن ذلك أن هذه الأسس الإسلامية لا يحتمل أن يعتريها التبديل أو يعدو عليها التحويل؛ لأنها ملائمة لسنن الوجود، ومطابقة لنواميس الحياة البشرية المثبتة بالحس مطابقة لا يمكن نكرانها بوجه من الوجوه، وقلنا إن كل تَرَقٍّ يحصل في العالم، وكل خطوة تخطوها العقول في سبيل الكمال، ليس هو إلا تقربًا إلى الإسلام، وإنه سينتهي الأمر يومًا ما بإجماع عقلاء البشر كافة على اعتبار الإسلام ناموسًا عامًّا للسعادتين، وضامنًا لراحة الحياتين.

نعم! الإسلام هو الدين العام الباقي بقاء الأنام، والقانون الذي تلمسته الفلاسفة الأعلام منذ ألوف من الأعوام، اهتم عقلاء الأمم من القدم بالبحث عن دين حق عام يقوم بحاجة الجثمان المادي والنفس المعنوية، ويوفق بين مطالبهما على مقتضى ناموس عادل وقسطاس حكيم، ويوجد النسبة الحقة بين أميالهما

بطريقة تمنع تسلط أحدهما على الآخر، اهتموا بهذا الأمر وتحسسوه من كل مظانِّه لعلمهم بأن الإنسان المركب من نفس وجسم إذا لم يراع تمام الاعتدال في مطالب هذين الجوهرين وقع في الإفراط في مطالب أحدهما، ومتى حصل له ذلك أخل بوظيفة الحياة، ودفع نفسه في تيار شديد القوى، لا يسرع به إلا ليصدمه صدمة تذهله عن نفسه، فيصبح جائحة على بني نوعه أو عضوًا مشلولاً فيهم.

رأي هؤلاء العقلاء - وليس بعد الحس دليل أسطع، ولا بعد حوادث التاريخ برهان أقطع - على أن كل المذاهب التي لم تزن مطالب الجسم والنفس بقسطاس مستقيم، ولم تحدد لكلا هذين الجوهرين ناموسهما القويم، تقسم الأمم التي تسود عليها إلى قسمين عظيمين تدوم بينهما الفتن المرهقة والقلاقل المزعجة آمادًا مستطيلة؛ حتى يسود أحد أولئك القسمين على الآخر، ومتى امتلك حريته المطلقة، ولم يجد أمامه مقاومًا يخفف من سيره، تطرف واستهدف لكل ما يستلزمه منه الإفراط في أحد نوعي مطالب الإنسان، ولم يلبث أن تصيح به الطبيعة البشرية صيحة ترده مدبرًا على عقبه؛ فيصبح كأن لم يغن بالأمس. ومن يتصفح تاريخ الأمم ير بعينيه هذه الحقائق ساطعة واضحة لا تعوزه إلى بحث طويل.

أما نحن فأول من يوافق هؤلاء الحكماء على أفكارهم من ضرورة تلمس مذهب عام يوفق بين مطالب الجسم والنفس توفيقًا عادلاً، ويربط صلاح أحدهما بصلاح الآخر كما هو شأنهما طبيعة. وقد أثبتنا في فصولنا المتقدمة أن النفس

عرضة للأمراض المختلفة وللشفاء منها كما هي حالة الجسم سواء بسواء، ولما كان الرجل لا يستطيع أن يحمي جسمه من عوارض الطبيعة المهلكة إلا بتعلمه لقانون الصحة الجسمية، فكذلك يجب أن يكون هو ذاته على علم بقانون يسمى بقانون الصحة النفسية ليستطيع أن يمنع نفسه من غوائل الأمراض المعنوية القتالة، ولما كان هذان الجوهران المركبان للإنسان موضوعين بطريقة بها يتأثر أحدهما بمرض الآخر وجب أن يكون ذانك القانونان اللذان يبحثان عن صحتهما متناسبين متلائمين لكيلا يكون في السير على أحدهما إضرار بالآخر، هذه الحقيقة أصبحت في هذا القرن خصوصًا من البدائه التي لا يُمترى فيها لأن حالة الوجود كله شاهدة بصحتها. وهذه الحقيقة نفسها هي التي بعثت خاصة علماء أوروبا إلى التأليف ديانة سموها الديانة الطبيعية، أسسوا بنيانها على دعائم البدائه العلمية والحقائق الفلسفية، ونحن نستحسن أن نأتي في هذه العجالة على أهم قواعدها مترجمة من كتاب (الأبحاث الأخلاقية على الزمان الحاضر) تأليف العلامة كارو. قال: «قواعد الديانة الطبيعية هي الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات واعتنى بها، وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الإنساني، والاعتقاد بوجود رُوح في جسم الإنسان متصفة بالذكاء والحرية، ومحبوسة في هذا الجسم المادي أمدًا لتبتلى فيه، وهذه الرُّوح يمكنها بإرادتها أن تطهر هذا الجسم وتنقيه إذا عرجت به نحو السماء، كما يمكنها أن تسفله باستئناسها بالمادة الصماء، والاعتقاد المطلق برفعه التعقل على الإحساس، ووضع الحرية الأخلاقية التي هي ينبوع وأصل كل الحريات الأخرى تحت سيطرة الاعتدال الكلي، وإعطاء الأخلاق

الفاضلة اسمها الحقيقي وهو الامتحان والابتلاء، وتحديد غرضها الحقيقي وهو التخليص التدريجي للنفس من علائق الجسم، والتهيُّؤ لساعة الموت بالزهادة، وأخيرًا الاعتراف بقانون الترقي ولكن بدون فصل رقي النوع الإنساني في مدراج السعادة المادية من العواطف الفاضلة التي هي وحدها تبرر تلك السعادة».

لا شك أن كل من يمعن نظره فيما قدمنا من نصوص الديانة الإسلامية وفي قواعد هذه الديانة الطبيعية ير بعينيه أن الإسلام هو تلك الأمنية التي تحسسها الفلاسفة وتلمسوها في سائر أبحاثهم العلمية من قديم الزمان إلى الآن، ثم يندهش ويتعجب من الخطوات التي يخطوها النوع البشري بين كل هذه القلاقل الاجتماعية في سبيل الرقي والتدرج متقربًا كل يوم من قواعد الدين الإسلامي على غير علم من أفراده، ويتأكد أن الإسلام هو الغاية القصوى التي وضعها الخالق جل شأنه أمام هذا النوع، ووضع فيهم من القابلية والاستعداد لبلوغها ما تشاهد آثاره وأفاعيله في تاريخ الإنسان، مما هو مصداق لقول الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت/٥٣].

من هنا أيضًا يدرك الممعن النظر سر ذلك التطور المدهش الذي حصل في الأمة العربية فجعلها خير أمة أخرجت للناس بعد أن كانت من الوحشية بمكان ليس دونه مكان.

فلنبحث في حالة المسلمين الآن وفيما هم واقعون فيه من العلل الاجتماعية التي انتهكت قواهم منذ قرون عديدة لنعلم أين الداء وما هو الدواء، نعم بحث هذه المسألة قبلنا كُتّاب فطاحل، ولكن بغاية الأسف رأينا أكثرهم أغضى كل الإغضاء عن ذات العلة، وأخذ بجهد نفسه في مداواة الأعراض المرضية، وهذا جهد لا يبلغ صاحبه أمنيته ما دام سبب المرض لم يزل ينتج أفاعله على حسب قانونه الخاص به، ويسير سيره الطبيعي في جسم الهيئة الاجتماعية الإسلامية، أما نحن فلا نريد أن نسلك هذا المسلك الذي لم ينتج فائدة ما، بل نريد أن نثقب أغلفة أدواء الشرق المتراكبة على بعضها حتى نصل بعون الله إلى معرفة ذات العلة، ومتى عرفناها سهل علينا ولا شك معرفة دوائها وكيفية تطبيقه، فنقول:

لا يخفى على كل إنسان أن مدنية المسلمين التي تكونت جُرْثُومتها(١) في جزيرة العرب فتفرعت أفنانها(٢) في مدة قصيرة الأمد على أكثر بلاد المشرق لم يكن لها من سبب أولى غير الديانة الإسلامية، ويتمكن كل إنسان باستقرائه التواريخ وعلوم العمران أن يستدل على أن هذه المدنية كانت أسرع المدنيات سيرًا، وأكثرها لألاءً، وأوسعها بقاعًا، وأعجبها منبتًا، وأقواها امتلاكًا لأزمَّة ذويها، وتأثيرًا على أذهان متبعيها، وأنها كانت جامعة لناموسيّ كل السعادة الاجتماعية وهما العلم والعمل.

---

(١) جُرْثُومتها: أصلها. (م).
(٢) أفنانها: أغصانها. (م).

هذه أمور يهديها النظر المجرد في تاريخ المسلمين في مبدأ أمرهم، ولكنا الآن لو أَجَلْنا[١] نظرنا جولة صغيرة على جميع الأمم الإسلامية فلا نرى إلا عكس ما كان عليه آباؤنا الأُوَل نرى نواميس الانحطاط سائرة بنا القهقرى[٢] وآخذة في محو وجودنا شيئًا فشيئًا، مع أن كل العناصر المكونة لمجموعنا لم تزل تدعي الإسلام وتحافظ عليه محافظة الإنسان على فؤاده، فهل ذلك مصداق لقول متطرفي فلاسفة هذا العصر من أن شأن الديانات عمومًا تقييد الإنسان عن الرقي ومنع النفوس عن التدرج في معارج الكمال؟ كلا، فإن أقل نظرة في حالة العرب في جهالتهم ووحشيتهم قبل الإسلام، ثم في مدنيتهم وسرعة رقيهم بعده مما لم يُعهد له مثيل عند سواهم، تدلنا دلالة واضحة على كذب هذه المقولة. إذن هل هذا الأثر مصداق لقول معتدليهم من أن كل قاعدة مهما كانت ممدينة للأمم ومرقيه لشأنها في عصر من العصور لم تخل من أن تكون محتوية على جرثومة تمنع الرقي في المستقبل لمضادتها لسنة الأزمنة والمناسبات! كلا، فإنّا درسنا أهم نواميس الإسلام في كتابنا هذا درسًا مدققًا فلم نره إلا مطابقًا لقوانين الحياة البشرية ملائمًا لقواعدها، ورأينا رأي العين أنه لم يضع للرقي حدًّا تقف النفوس عنده، بل سن قواعد عامة وكسر كل قيد وضعه المشرعون الأُوَل جهلاً منهم بسنن الحياة المستقبلة، وأطلق كل خصائص النفس من أغلالها الأولى، وترك إليها أعنَّتها ولكن بعد أن نقلها إلى جادة الاعتدال والحكمة، ونحن لا ننظر أن

(١) أَجَلْنا: أَدَرْنا. (م).

(٢) القهقرى: الرجوع إلى الخلف. (م).

يأتي زمان يقال فيه إن الاعتدال مذموم وإن المحمود هو الإفراط أو التفريط، إذن ما هو السبب في خروج المسلمين حتى عن مساواة آبائهم في عُشر فضائلهم؟ أما نحن فلا نجد السبب إلا في هذا الأمر المهم ألا وهو سوء فهمنا لمعنى الدين، وحمله على غير المراد منه وإليك التفصيل:

إنّا قد برهنا في فصولنا السابقة بالاستناد على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأحوال الجمعية الإسلامية الأولى أن غرض الإسلام الأول هو ترقية شأن الإنسان ماديًّا وأدبيًّا على حسب ناموس الرقي العام الذي اُسْتُدِلَّ عليه باستقراء أحوال الإنسان وتطوراته. وأنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يطهر النفوس من شوائبها ويجعلها صالحة لأداء وظيفتها إلا أشار إليها ونبه بالتعويل عليها، وقد تكلمنا على كل هذا بتفصيل لم يجعل للشكوك محلاً في الأذهان، ولا للريب مجالاً في الوجدان، ولكن بإلقاء نظرة على مجموعنا الآن نرى سوادنا الأعظم لا يفهم من الإسلام إلا أنه محض قواعد للعبادة، ومجرد دعوات يقصد بها قضاء الحاجات في الدنيا، أو نيل الدرجات العلى في الآخرة، ولا يعلمون منه إلا الشهادة والصلاة والصيام والزكاة والحج. وأما ما فيه من آيات الحكمة ومعجزات الفضائل التي بعثت الأمة العربية من جَدَث خمالتها الأولى إلى ذروة جلالتها التالية، فقد ضربوا عنها صفحًا مع أنها هي لباب الدين، وزبدة الإسلام، والغرض الوحيد من إنزاله وتشريعه.

جاء الإسلام موفقًا بين مطالب النفوس من المقاوم المعنوية والمنازل الأخلاقية، وبين مطالب الجثمان من الأشياء المادية ليكون متبعه إنسانًا كاملاً عادلاً بين مطالب طبيعته، موفقًا بين أميال جوهرية، فيقول الله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [النحل/٣٠] ويقول رسوله ﷺ: «لَيسَ خَيرُكُم مَنْ تَركَ دُنْيَاهُ لآخِرَتِهِ وَلا آخِرَته لدُنْيَاه، بَلْ خَيرُكُم مَنْ أَخَذَ مِنْ هَذه وهَذِه» ولكن لوى سوادنا الأعظم الكَشْح عن تدبر هذه الحكمة البالغة، وتابعوا أهواء الأمم السابقة في فهم الدين، وزعموا أنه محض عبادة ومتابعة عادة، ولهم في ذلك أفكار ما أنزل الله بها من سلطان يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [القصص/٧٧] ويقول رسوله: «إنَّ مِنْ فِقْهِ الرَّجلِ استِصْلاحَ مَعيشَتِهِ، وليسَ مِنْ حُبِّ الدُّنيا طَلَبُ ما يُصْلِحُكَ» فأسدل الناس على هذه القواعد العليا أستار النسيان، وزعموا من تلقاء أنفسهم أن الدين هو عبارة عن التفرغ الكلي من علائق الدنيا، والانفراد المطلق من كل الأميال البدنية، فعلوا كل هذا ولم يعلموا أنه السرطان الذي أباد الأمم السابقة، والطاعون الذي استأصل النِّحَل[1] المتقدمة. ولكن كيف يتأتى لهم أن يعلموا ذلك وهم منزوون في محالّهم، جاعلين سدًّا منيعًا بينهم وبين هذه الآية؟ ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج/٤٦].

(١) النِّحل: المذاهب والعقائد. (م).

هذا الفهم السيئ في معنى الدين أدَّانا إلى تغيير معنى التقوى عما كانت عليه في زمان رسول الله ﷺ وزمن أصحابه الكرام، فالتقي على حسب فهم دَهْمائنا[١] الآن هو الرجل الذي خيم عليه الخمول والكسل، وترك الجِدّ والعمل، ولم يترك له في الدنيا أقل أمل. وكان على تمام الجهل بأحوال الأواخر والأُوَل، والذي إن مشى كان على مهل، وإن جلس كان في عنقه ميل، وإن دُعي إلى مهمة أورثها الخلل والزلل، هذه هي صفة التقي عند أكثرنا الآن، وهو - كما يراه كل متأمل في أحوال سلفنا الصالح - مغاير تمام المغايرة لما كانوا عليه، مناقض له على خط مستقيم. كيف لا؟! وهذا رسول الله ﷺ وأصحابه - وهم أئمة التقوى وأمثلة الكمال الديني - كانوا كما يعلمه الخاص والعام ويرويه التاريخ للأنام، رجال الجد والعمل، وأهل الشيم والهمم، وقادة العلاء والعظم، لم يتركوا مظنة للفخار إلا وردوها، ولا راية للمجد إلا رفعوها، حتى أعلوا كلمة الحق على الأباطيل، وقوضوا دعائم الجور والأضاليل، مما يدل مُطَالِع سيرتهم على همة لو صادمت الجبال لسحقتها سحقًا، أو لَحَظَت[٢] الثريا لمحقتها محقًا. همة يقف أمامها غَطَاريف[٣] هذا العصر حيارى، ولا تُعد همتهم بجانبها إلا عجزًا واقتصارًا، همة عرجت بنفوسهم إلى سماوات الرفعة عن دنايا الأمور وسفاسف الأعمال، وعلت بهم عن التدني للفجور وخسائس الأميال، همة كما ذادتهم عن الرتوع في مموّه الشهوات بعثّهم إلى منازل الكمالات، وكما ردتهم عن وهاد الزلات حثتهم

(١) دَهمائنا: عامتنا. (م).
(٢) لَحَظت: نَظَرتْ إلى. (م).
(٣) غطاريف: سادة شرفاء، جمع: غِطْريف. (م).

إلى تسنم نجاد المكرمات، حتى صاروا ملائكة في صورة آدميين، ونورًا ساطعًا ولو كان غلافه من طين، هذه هي التقوى التي رسمها الإسلام لمتبعيه وخطها لذويه، لا ما نراه الآن من التقوى التي لو طبقت على الإسلام لرأيناها عين الفجور ونفس المحظور.

هذا الفهم السيئ في التقوى الذي أوقعنا فيه جهلنا بحقيقة الإسلام جعلنا نقسم الناس إلى قسمين: قسم سميناه أهل الدنيا، وهم الذين يعملون لفلاح البلاد وصلاح العباد سواء بصناعاتهم اليدوية أو بأبحاثهم الفكرية، وقسم سميناه أهل الآخرة، وهم الذين تركوا الدنيا جانبًا ووقفوا أنفسهم على الصلاة والصيام والمشي في الطرقات خلف الطبول وتحت الأعلام، وانبنى على هذا التقسيم الوهمي الذي تأصلت جذوره في العالم الإسلامي منذ قرون عديدة أن وقف أهل الدنيا أنفسهم لتعلم العلوم التي عليها مدار السعادة المادية، كما قَصَر أهل الآخرة أنفسهم على الاشتغال بالعلوم العبادية؛ فصار القسم الأول بهذا الاعتبار جاهلاً للدين جهلاً يوقعه في الشكوك والشبهات، وصار القسم الثاني جاهلاً للدنيا وأمورها جهلاً أداه إلى العماية عن سياسة أحواله المعاشية، فوقع في العَوَز[١] الذي أدّاه إلى مدّ يده وإراقة ماء محياه، ولو كان ذلك تحت ستار رقيق وحاجز شفاف:

---

(١) العَوَز: الاحتياج. (م).

هذا التفريق بين الدين والدنيا مناقض تمام المناقضة لمبادئ الدين الإسلامي من كل وجه، ومعارض لأوامره، بل ومعطل لأكثرها تعطيلاً.

قلنا فيما سبق إن الإسلام هو الدين العام الذي يوفق بين مطالب النفس والجسم توفيقًا لا محيص منه لمن أراد أن يستقيم على الجادة الحكيمة، وأثبتنا ذلك بالأدلة القاطعة، وقلنا إن الانقطاع للعبادة ليس من مقررات الإسلام، «مَنْ تَبَتَّل فَلَيْسَ مِنَّا» وإنه جاء لصلاح الدين والدنيا معًا ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة/٢٠١] ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور/٥٥]. وأكدنا بالأدلة الناطقة أنه يحض على الكسب والعمل، ويردع عن الخمول والكسل، بعبارات أشد تأثيرًا على الأذهان من أقوال فلاسفة هذا الزمان، وأن الأعمال في نظره مرتبطة بنية الفاعل ومقصده، فإن ترك الإنسان المحرمات كلها وكان مقصده الرياء عد منافقًا موزورًا، وإن نوى صالحًا فأخطأ فيه كان مثابًا مأجورًا. قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّمَا الأعمالُ بالنِّيَّاتِ» وقال علي رضي الله عنه ما معناه: «من أخذ الدنيا بما فيها وأراد وجه الله، فهو زاهد، ومن ترك الدنيا وما فيها ولم يرد بها وجه الله، فليس بزاهد».

قلنا كل هذا أو ما يقرب منه في فصولنا المتقدمة، وأقمنا عليه الدلالة التي لا تقبل النقض، ونزيد هنا تحويل الأنظار إلى أحوال الجمعية الإسلامية الأولى؛ فإن أفرادها لم يكونوا منقسمين إلى قسمين: قسم دنيوي وآخر أخروي، بل يروي لنا التاريخ أنهم كانوا كلهم يدًا واحدة في العمل للدين والدنيا معًا، فإن أبا بكر

وهو أول المسلمين كان تاجرًا، ولم يبطل مهنته إلا حين تبوأ عرش الخلافة. وروى الإمام أحمد بن حنبل أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يَتْجُرون في البر والبحر، ويعملون في نخيلهم، ولقي أبو قلابة رضي الله عنه صديقًا له في المسجد فقال له: «لَئِن أراك تطلب معاشك خير من أن أراك في زاوية المسجد» وكان عمر رضي الله عنه يقول: «ما من موضع يأتيني الموت فيه أحب إليَّ من موطن أتسوق فيه لأهلي أبيع وأشتري» ذلك لأن النبي ﷺ كان يحثهم على العمل للدنيا، كما يحثهم على العمل للأخرى، فكان يقول: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا» ويقول: «احرثُوا فإِنَّ الحرثَ مُبَاركٌ» ويقول: «اطلُبوا الرِّزقَ في خَبَايَا الأرضِ»، ويقول: «تسعَةُ أعشَارِ الرِّزقِ في التِّجارةِ». ويقول: «العبادةُ عشْرةُ أجزَاءٍ تسعةٌ منها في طلَبِ الحَلالِ».

هذه هي نصوص الديانة الإسلامية وأحوال جمعيتها الأولية في عدم التفريق بين الحاجيات الدينية والدنيوية، وهذا هو عين السبب الذي حمى المسلمين في مبدأ أمرهم من الانقسام إلى حزب ديني وحزب دنيوي، وهو الأمر الذي يوجد التخالف بين نزغات الأمة وينشئ التناقض في أغراضها؛ فيتولد التضاغن والتباغض بين آحادها رغمًا عن كل عوامل التأليف بينهم، وبمرور الزمن يستحيل الأمر إلى حدوث تلاطم بين هذين القسمين، تلاطمًا يفضي بالجمعية إلى الفوضى الفكرية، ومتى تأصلت تلك الفوضى تفككت عرى الجامعة الأساسية التي تربط أجزاء الأمة بعضهم ببعض، وأخذوا يشعرون بسريان الفساد على

مجموعهم وسوء منقلبهم في مستقبلهم. فإذا انتهى حال الأمة إلى هذه الدرجة أخذ القسمان: الديني والدنيوي، يتبادلان إلقاء المسئولية على بعضهما، فينسب الدينيون ذلك الفساد الطارئ إلى تمادي الكافة في شهواتهم البهيمية، ويعزوه الدنيويون إلى تقصير أساتذة الدين عن الإرشاد والقصور عن قمع نزغات ذوي الأهواء، ويستمرون في هذه المُلاجَّة[١] الفارغة، بينما تكون جراثيم الفساد آخذة في التفشي والانتشار، جارفة الأمة أمامها إلى مهاوي الدمار والبوار.

هذه هي حالة الأمة الإسلامية، فإنها بعد أن طرأ عليها من الحوادث ما فصم وحدتها الأولى، فأوقعتها فيما وقعت فيه الأمم السابقة من الفصل بين الدين والدنيا وبين أهلهما؛ أخذ كل فريق ينابذ الآخر ويلقي التَّبِعَة على عاتقه. ولعل جيلنا الحاضر هم أكثر الأجيال شعورًا بضرورة فضائل الإسلام لبناء ما تهدم من مجدنا، وأشدها تقريعًا لعلمائنا في تقصيرهم عن الإرشاد والتعليم على حسب مقتضيات الزمان الحاضر.

نعم إننا لنشعر بتهيؤ النفوس إلى انتشاق نسمات الكمالات الإسلامية المنعشة لتبرأ مما تراكم عليها من جراح الفساد الأخلاقي الذي قد عم وطم، وساق النشأة الحديثة إلى نقطة فقدت فيه الإحساس إلا بالدنايا والأدناس. نعم إنا نرى بوادر ذلك الشعور لائحة، إلا أننا نستميح من قرائنا الحرية لأجل أن نقول إن ذلك الشعور لم يستكمل شرائطه الضرورية. فكأني بالناس يريدون أن تمطر

---

(١) الملاجّة: التمادي في الخصومة. (م).

السماء عليهم هذه الفضائل الإسلامية فتغمر قاصيهم ودانيهم وهم جالسون على أسرَّتهم منصرفون عن كل ما يقرب ذلك الأمل أو يجعله ممكنًا. بل كأني بهم يرون أن تلك الفضائل لا يمكن تأتِّيها إلا بواسطة رجال يلبسون شكلاً خاصًّا من الألبسة، أو يقرأون كتبًا مخصوصة في العلوم.

كلا فإنا إن ظننا ذلك فقد بخسنا بحقوق عقولنا، وكنا كالكسالى يودون لو يرزقوا بكل حاجياتهم وهم قعود في دورهم المنزوية. كلا، إن الفضائل الإسلامية التي كان يفهمها الأعرابي الخلوي في مدة قصيرة لا تَعْسُر مطلقًا على نشأة هذه الأمة المتهذبة.

أسس الإسلام لا تحتاج لأجل أن تنفذ إلى العقول إلى جدال أو إلى تمهيد، بل هي قواعد سهلة المأخذ واضحة المسالك، تشعر النفس عند علمها بها بطمأنينة وراحة لا يُستطاع التعبير عنها بوجه من الوجوه.

فإن كان الرجل عالمًا بحقائق الكون، وأراد أن يفسر سر تلك الطمأنينة التي سادت على نفسه فاستقرت بعد اضطرابها وهدأت بعد ثورتها، فما عليه إلا أن يتدبر في أسرار الخلق وفي تكاليف الحياة البشرية وفي النواميس الناطقة السائدة على مجموع هذا الكون بأسره وفي الغرض الذي يسعى إليه الإنسان رغمًا عنه ليرى بعينيه عيانًا أن تلك الأسس الإسلامية على سهولتها وسرعة تعقل الجاهل لها، هي المَحَجَّة الوحيدة إلى توصل الإنسان إلى سعادة مادته ومعناه، وراحة دنياه

وأخراه، وإنها هي نفس المحجة التي خُلق الإنسان مطبوعًا على تَلَمُّسها رغمًا عنه، والتي يراها الآن علماء العالم على بعد منهم، ويسعون في تذليل كل الصعوبات للوصل إليها.

إذا كان هذا شأن أسس الإسلام من السهولة ومتانة القواعد، فلماذا نتباكى على فقداننا تلك القواعد، ونشتكي من قصور المرشدين عن إبانتها مع أنها مبسوطة بأصرح عبارة وأرق إشارة في القرآن الشريف، وفي سنة رسول الله ﷺ، وما كتبه سلفنا الصالح؟ هل يظن المسلمون أن الله تعالى لم يُنزل القرآن إلا ليفهمه رجال مخصوصون، أو ليُقْرأ سردًا وبدون تعقل على رؤوس القبور وفي أوساط الطرقات، أو ليُتلي بألحان الغناء في ليالي الأفراح بين لغط النرجيلات ودخان السجارات؟ أم هل يظنون أن أحاديث رسول الله ﷺ لا يصح أن تتلى إلا لقضاء الحوائج وحصول البركات في المنازل؟ ليعلم المسلمون أن كل هذه الأمور تنافي الإسلام، وتساعد على استجلاب سخط رب الإسلام.

إن القرآن وهو مجتمع زبد الحكمة، وأحاديث رسول الله وهي خلاصة قوانين العمران لم يأمر الله بتدوينها في الطُّروس[١] ونشرها بين سائر طبقات الأمة إلا ليتدبروا حكمها ويأتمروا بها، فإنها مِلاك السعادتين ومِساك الحياتين، وفي تاريخ المسلمين أكبر حجة على قولنا هذا، ها نحن شعرنا بالحاجة إلى كمالات الإسلام

(١) الطُّروس: الصُّحُف، مفردها الطِّرْس. (م).

فما بالنا قعود عن أخذ حاجتنا منه كلٌّ على قدر استطاعته ﴿ولا نكلف نفسًا إلا وسعها﴾ [المؤمنون/٦٢].

ألسنا الآن كالكسالى يرون الغذاء أمام أعينهم وهم على شفا الهلاك من الجوع فينتظرون انصباب الطعام إلى أفواههم بدون مد أيديهم؟ أليس من العار الشائن أن نصرف كل أوقاتنا في مطالعة روايات (إميل زولا) و(بولا بورجيه) مع ضننا بجزء من ذلك الزمن على مطالعة ذلك الكتاب الذي جمع بين دفتيه أسرار هذا الوجود بأسره؟

إنا ندعي التمدين والتنور، ونميل للتشبه بالمتمدينين في الجري وراء اكتشاف مساتير الكون، ونرمي القاعدين منا بالخمول والموت الفكري، ونحني رؤوسنا إعجابًا بنظريات (سبنسر) في العمران و(غمبتا) و(تيرس) في السياسة و(ريبو) في الفلسفة، حالة كوننا صارفين النظر عن تدبر أسرار ذلك الكتاب (القرآن) الذي لو أفنى علماء العالم كله أعمارهم في تدبر بدائعه وحكمه لما وصلوا إلى الغاية منها. لعلنا نخجل من الاشتغال بالأمور الدينية تقليدًا لغيرنا خشية من أن نتهم بالقصور العقلي، إن كان كذلك فهو تقليد أعمى كان يغنينا عنه إجالة نظرنا قليلاً في كتابنا السماوي لنرى أن الإسلام ليس بالدين الذي يأمر بالانزواء والاستكانة أو بالتعصب مع الانغماس في المهانة أو بإضناء الجسم في العبادة مما هو مناف لمطالب المدنية الحاضرة والمستقبلة، بل هو الدين الذي يأمر بالكد والعمل، ويحبب للإنسان السؤود وعلو الهمم، ويهديه إلى الفضائل والشيم، كل

ذلك بحكم لا تقارن حكم الفلاسفة بها إلا كما يقارن نور المصباح بنور الشمس في رابعة النهار، فالمتكلم في الإسلام والحالة هذه لا يكون مرددًا لأفكار قامت بتكذيبها الشواهد الحاضرة، بل يكون ناطقًا عن لسان الحكيم العليم بحكم لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها بنظريات تصيح بالدلالة عليها ألسنة هذا الوجود الصامت، بقواعد لا يعتريها خلل ولا يَعْتَوِرُها[١] زلل، بأسس عليها يقوم العمران، ومنها يشرف الإنسان على جنان العرفان، بأنوار تنفذ إلى صميم الفؤاد، فتشرق فيه شمسًا لا يخبو ضياؤها ولا تنطمس لألاؤها، تنير على المرء حزون هذه الحياة الكدرة، وتفك له عقدها العسرة، تداوي جراح الأفئدة مما أصابها من سهام الحوادث، وتضمد قروحها من طعنات الكوارث، وتطرد عن النفوس شياطين أوهامها، وتطهرها من غاشيات أحلامها؛ فَتَسْكُنُ بعد اضطرابها وتجعلها تتجه إلى سعادتها من بابها، وتمزق دونها كثيف حجابها؛ حتى تجعلها صالحة لأن تطل على الملكوت الأعلى، وتنال منه زبد العلم الأجلى.

ألا تنظر إلى حالة العرب من الخشونة والجهالة والهمجية قبل إشراق الإسلام عليهم، ثم إلى مصيرهم بعده؟ إن الرجل منهم في الجاهلية كان يذهب بابنته إلى الفلاة وهي على ذراعه فيحفر لها حفرة وهي تنظر إليه، وتحنو بفؤادها عليه، فلا يجد في نفسه فؤادًا يحنو عليها، وكان يدفنها حية بيديه، ثم يذهب إلى أهله فرحًا مسرورًا كأنه لم يفعل إلا ما يستحق حسن السمعة، ويغسل عنه وضر

(١) يعتورها: يصيبها. (م).

الشنعة، تدبر بعيشك إلى هذه القلوب القاسية والإحساسات العاتية، ثم انظر إليهم بعد اعتناقهم للإسلام. ترى ماذا؟ ترى رجالاً نالوا من العواطف الكريمة ما لم ينله رجل رُبِّيَ في مهد الحكمة وغُذِّيَ بلبان الرحمة، ترى أمثلة للشهامة والفضيلة، وأساطين للسجايا الجليلة أو الأخلاق الجميلة، قاموا يعلمون فلاسفة الأخلاق بمثالهم ومقالهم قصور ما دونوه في أسفارهم، ترى أناسًا نورهم يسعى بين أيديهم، وفضلهم يغمر قاصيهم ودانيهم، يَفْضُلُون الملائكة تقوى ووقارًا، ويفوقون الأكاسرة همة واقتدارًا، انظر إلى عمر بن الخطاب، وهو الذي تعلم تاريخه في زمن الجاهلية، وإلى ماذا آل أمره بعد أن أسلم ببضع وعشرين سنة: آل أمره إلى إدراك حكمة وسياسة وثبات، أعزّ بها الإسلام والمسلمين، وحفظ بها قوام ملكه العظيم، مما يقصر عنه أكبر ملك تربى في مهاد التشريع، ويكبو دونه أعظم فيلسوف ولد في حجر الحكمة والسياسة، وبلغ من رقة الفؤاد والتقوى درجة كان يسمع الآية من كتاب الله فيغشى عليه منها أو يمرض لأجلها أيامًا عديدة. فكأن المتبني عناه بهذا البيت:

قَسَا فَالأُسْدُ تَفْزَعُ مِنْ يَدَيْهِ وَرَقَّ فَنَحْنُ نَفْزَعُ أَنْ يَذُوبَا

من أين حصل له هذا وبماذا ناله؟ هل درس الأخلاق في مدارسها الكلية، أو علم العمران في مجامعها العلمية، أو السياسة في معاهدها البرلمانية، أو التشريع في المدارس الحقوقية؟ كلا، لا شيء من ذلك، لكنه كان يتلو القرآن وأحاديث النبي ﷺ ويتدبر فيهما، ويسأل غيره فيما كان يتعسَّر عليه منهما.

هذا رجل واحد قد ضربناه لك مثلاً لترى بعينيك سلطة الدين الإسلامي في إحالة الطباع، وسرعة تأثيره في تغيير اتجاه النزعات، وفي تنوير أذهان أبنائه ومتبعيه، فما بالنا ننبذ هذه الكنوز وراء ظهورنا، ونظل نتساءل عن حكمة نتعلمها أو أخلاق نتصف بها، ونقتنع بعد إخفاق المسعى بأن نلقي تَبِعَة فسادنا على غيرنا ونَهْدِر بشقاشق[١] تسيء حالنا، وتقبح مآلنا، تاركين حكم الله تعالى وسنن رسوله مقصورة على القصور والمدافن، يتلوها رجال لا خَلاق لهم[٢] من العلم؟ هكذا نفعل كلنا الآن، والله شهيد علينا حيث يقول: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ . فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر/٩١-٩٢].

خلاصة القول أن دواء المسلمين الوحيد هو أن يفهموا معنى الإسلام، ويدركوا أن غرضه الأول وهو ترقية حالتي الإنسان المادية والأدبية معًا؛ لارتباطهما ببعضهما ارتباطًا كليًّا، لأجل أن تستطيع النفس أن تعرج إلى ما أُعِدَّ لها من مقاوم العلاء عروجًا سريعًا. أن يفقهوا أن لفظة عبادة في الإسلام لا تعني فقط العبادة الجسمية من ركوع وسجود، بل إن كل ما يفعله الإنسان مريدًا به أمرًا ينبني عليه إصلاح لذاته أو لأسرته أو لجمعيته أو لبني نوعه أو للكائنات كلها هو في نظر الإسلام من أحسن أنواع العبادة، وأشرف أشكال الطاعة لله عز وجل: « إنّ المُؤْمِنَ ليُؤْجَرُ في كلِّ شَيءٍ حتَّى في اللُّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إلى فِيِّ امْرَأَتِهِ»، «والشَّاةُ إنْ رَحِمْتَهَا يَرْحَمْكَ اللهُ» حديثان شريفان. وأن يدركوا أن الإسلام لا يعارض التقدم في

(١) نَهْدِر بشقاشق: نُكثر من خُطَب، وشقاشق مفردها شِقْشِقة. (م).
(٢) لا خلاق لهم: لاحظَّ لهم ولا نصيب. (م).

الصناعات والاكتشافات، بل يحث عليها ويندب إليها، ويؤاخذ المتقاعسين عن مجاراة غيرهم فيها، هذه الأسس الإسلامية تنطق بتأييدها مئات من الآيات القرآنية، وألوف من الأحاديث النبوية، وأحوال الجمعية الإسلامية الأولية، حتى إن المرشد المُتَنَوِّر ليستطيع أن ينقشها في مَخِيلَة تلميذه في درس واحد.

هذا هو دواء المسلمين، ولكن دون وصوله للعامة المحرومين من المطالعة والاطلاع عقبات لا يزحزحها عن مواضعها إلا كرور الزمان عليها، وحصول مناسبات مساعدة لنشرها.

وإنَّا نختتم مقالنا هذا برفع أكفِّ الرجاء إلى الله – جلَّ وعزَّ – أن يهدينا إلى صراطه المستقيم، ومنهاجه القويم، وأن يوفقنا للسير على هَدْي رسوله الكريم، وأن يحسن خواتمنا أجمعين، آمين. وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله، وعلى آله وصحبه ومتبعيه وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

الأصول التي دعا إليها الإسلام

رأينا أن نلحق بهذا الكتاب بحثًا كتبناه بعد وضعه بنحو عشر سنين؛ لما فيه من بيان لأصول الإسلام تحت نور العلم العصري، وهو بحث له موضعه من هذا الكتاب؛ فإليك:

الإسلام هو الدين الذي جاء به خاتم النبيين، محمد بن عبد الله، النبي العربي ﷺ، وهو من أشهر الأديان، وأكبرها شأنًا، وأقواها على الشُّبه، وأبعدها عن الشكوك.

أُوحي هذا الدين في القرن السابع الميلادي، أي في عصر كان فيه العقل الإنساني قد بلغ رشده، واستعدت فيه النفوس لقبول وحي يوفق بين الدين والدنيا، ويؤاخي بين العاجلة والآجلة، ويطلق للعقول حريتها الفطرية لاستجلاء غوامض الوجود، واستطلاع خافيات النواميس العاملة فيه.

مما يميز الإسلام عن سواه من الأديان التي تقدمته، تصريح كتابه بأنه دين عام، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ/ ٢٨]

وقد كَاتَبَ النبي ﷺ ملوك الممالك المعروفة لذلك العهد؛ يدعوهم إلى الإسلام باسم هذا النص القرآني:

هل كان بالأمم حاجة إلى دين جديد؟

إن مجيء الإسلام للناس كافة وليس للعرب خاصة يستدعي أن يكون لجميع أمم الأرض حاجة إلى دين جديد، فكيف كان حال تلك الأمم في عهد البعثة المحمدية؟ وماذا كان مبلغ تلك الحاجة منها إلى الدين أو إلى أي حادث اجتماعي جلل؟

يجمل بنا أن نورد ذلك عن لسان أحد الأجانب عن الدين من بحّاثي الإفرنج، فإنه أدنى لأن لا نُتهم بتحيز، وأن لا نوصم بمغالاة. فقد كتب البحاثة الفاضل المسيو (جون لابوم) الفرنسي في مقدمة الفهرس الذي وضعه للقرآن الكريم - المترجم إلى اللغة الفرنسية - بحثًا في هذا الموضوع، نراه أجمع ما كتب في هذا الباب، ونحن موردوه هنا عنه. قال:

«لأجل أن يفهم الإنسان تمام الفهم مرمى دعوة من الدعوات يلزمه أولاً الإلمام بحال الداعي في ذاته، ولأجل أن يقدر قدر دعوته، يجب عليه أن يدرس الجهة البشرية التي وجه همته للتأثير عليها، هذا هو الغرض من هذه النبذة

الوجيزة التي خصصناها للمشرِّع العربي مؤسس ما يمكن تسميته بالجامعة الإسلامية».

«حوالي ميلاد محمد (صلى الله عليه وسلم) في القرن السادس الميلادي كان جو العالم ملبدًا بغيوم الاضطرابات والفتن فكان شعب (الوزيغو) الآريين في إسبانيا وفرنسا الجنوبية يصاولون الملك (كلوفيس) وأولاده الكاثوليكيين، فكانوا من أجل ذلك يطلبون مساعدة إمبراطور مملكة الرومان الشرقية المدعو (جوستينيان)، ثم أجبروا إلى الدخول معه في حرب جديدة، تخلصًا من سلطة القواد الذين جاؤوهم بتلك المساعدة، فقد كانوا يزعمون أن لهم حق الفاتحين لا مجرد ولاء المساعدين المحامين».

«أما في فرنسا نفسها فكان أولاد (كلوفيس) هذا متغادرين متسافكين، وكانت الحروب التي شبت نيرانها بين الملكة الوزيغوتية (برنهو)، والملكة الفرنكية (فيريديجوند)، تهيئ للتاريخ أشد الصحائف إثارة للأسى والكمد».

«أما في إنجلترة فكان (الأنجلو) ينازعون (السكسونيين) الأرض التي احتلوها واستعبدوا فيها ذرية (كيمريس)، وهم أقدم المغيرين على تلك الجزيرة التي تتطلع اليوم للوقوف في مقدمة الأمم علمًا وصناعة وقوة – وهي التي كانت في ذلك الوقت مجالاً للقوة الوحشية السائدة في تلك الغياهب الحالكة».

«أما في إيطاليا فكان اسم (الرومان) وهو ذلك الاسم الشامخ قد فقد خطورته القديمة، وكانت رومة وهي الشظية الأخيرة أو رأس ذلك التمثال الكبير المتهشم (يعني مملكة الرومان) في حالة تململها من استحالة أمرها إلى مركز ديني بسيط، ترتج وتضطر كلما ألم بها طائف من ذكرى عظمتها القديمة أيام كانت مركزًا دينيًّا أصليًّا، فكانت تهيئ نفسها لأن تكون مركزًا للبابوية، وهي تلك السلطة الزمنية كما اقتضت سياسة (شارلماني) أن يجعلها كذلك بعد قرنين من الزمان، ولكنها بعد ذلك لم يسعها حمل نير (الهيرولين) (والاستروغوتيين)، وإمبراطرة المملكة الرومانية، و(اللومبارديين) الذين تداولوا السلطة عليها تداولاً».

«أما مملكة اليونان التي كانت قد نسيت مجدها القديم، فكانت تابعة لمملكة الرومان الشرقية، مثلها منها كمثل الزينة ذات الضوضاء، وكان شرق أوروبا مقلقًا جنوبها من أول مصاب نهر (الران) من جهة الغرب لغاية مصاب نهر (الدانوب) من جهة الشرق، فكان (الإسكندينافيون) و(النورفيجيون) و(الدانيماركيون) يتزاحمون في الطريق الذي سلكه (الجوتيون) و(الهونيون) الذين احتلوا (تراقيا) و(مقدونيا) و(لومبارديا) و(إيطاليا)، سواء بالقوة أو بالخديعة».

«في ذلك الوقت بدأ ظهور الأتراك من أعماق آسيا الصغرى وهي تلك الأمة التي قصرت فيما بعد مملكة اليونان على أسوار القسطنطينية».

«التصوير البديع الذي جادت به قريحة المسيو (رينان) لبيان مركز الإمبراطورية الرومانية في القرن الأول من التاريخ المسيحي، لا علاقة له البتة بالتصوير الممكن عمله لتجلية حال أوروبا في القرن السادس: تلك كانت مفاسد قيصرية مختمرة، أما هذه فوحشية حربية تلعب بالأرواح وتتمرغ في الأوحال»(١).

«أما آسيا فلم تكن أهدأ بالاً من أوروبا في شيء؛ فمملكة (تيبت) و(الهند) التي اقتبست منها الأمم السائدة في أوروبا الآن قرائحها وأفكارها العامة ولغاتها، السياسة والفلسفية. وبالاختصار أغرب المسائل الاجتماعية، كانت هذه الممالك كلها متمزقة الأحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية».

«أما السفح الشمالي من الهضبة الآسيوية العالية التي هي في حوزة الروسيا الآن، فكانت غير معروفة على الإطلاق، أما مملكة الفرس التي كانت أحوالها مرتبطة بأحوال العرب خصوصًا من لدن غارة الإسكندر المقدوني، فكانت مشتبكة في حروب مع اليونان الرومانيين في القسطنطينية الذين كانوا أصحاب السلطة على آسيا الغربية».

«أما في إفريقيا فكان هؤلاء اليونان الرومانيون أنفسهم - وهم أخلاط من عساكر وتجار وحكام مجموعون من آفاق مختلطة - دائبين على امتصاص دم القطر المصري، وعاملين على جعل مصر العلمية ذات المجد القديم، كالجثة

(١) كتاب الأنبياء الفصل السابع عشر.

المصبرة عديمة الحس والحراك، وكان هذا شأنهم أيضًا في الأقاليم الخصبة وقتئذ، الواقعة في الجهات الشمالية من إفريقيا التي انتزعوها من أيدي (الفنداليين)».

«والخلاصة كان جو العالم الأرضي متلبدًا بسحب الاضطرابات الوحشية في كل جهة، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير، وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة في إصلاء نيران الحروب والمعارك، ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر عليها تأثيرًا حادًّا، وإن كان وقتيًّا إلا شيء واحد وهو الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحروب وفقراء الحراثين وبسطاء المتسولين. ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق في بعض صوامع الكهنة، وبعض الجراثيم الفلسفية التي كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب، وانتقلت من رُوح إلى رُوح أخرى بواسطة بعض أصحاب الجسارة من رسل الرقي في المستقبل، لكانت البربرية أسرعت في خطاها، مقودة بغطرسة زعماء البهيمية، واستحالت إلى وحشية محضة».

«ومع هذا كله كان هناك ركن من أركان الأرض لم تصبه لفحة من هذه الحركة، ولكن لم يكن لحكمة أهله ورجاحة عقولهم، بل بسبب موقعهم الجغرافي البعيد عن مضطرب الأمم التي كان يقال إنها متمدينة، ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التي ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة في أوروبا إلا عن بعد، وما كان يصلها ذلك اللغط إلا في غاية الضعف والضئولة، وكانت

تجهل وجود الهند والصين، ولم تك تتعدى علاقاتها مع آسيا حدود بلاد الفرس، ولم تُعرف لديها الفرس إلا بواسطة أخبار الانتصارات أو الهزائم التي كان من ورائها رد بعض الوديان الغربية القريبة من روسيا إلى تبعية إمبراطرة القسطنطينية تبعية اسمية، أو رفع نير تلك بالتبعية الاسمية عنها، على أن ذلك الوادي الأخير كان يهم بلاد العرب جدًّا لأن أبناءها كانوا يذهبون إليه للتجارة، وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطئ الغربي من نهر الفرات، وصعدوا رويدًا رويدًا إلى بحر قزوين، ومما يشبه المساتير الدينية أنها بقيت منفصلة عن القطر المصري الذي أغار على جنوبه العرب الرعاة، ولم ينجلوا عنه تمامًا إلا بعد أن انجلى عنه بعض إخوانهم المتأخرين وهم الإسرائيليون تحت قيادة موسى (عليه السلام) حينما استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم».

«أما المملكة الوحيدة التي كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة، فهي بلاد الحبشة، أما الجهة الشمالية من إفريقيا التي أغاروا عليها مرتين، والتي كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجيين وبين يونان القسطنطينية والفنداليين، فكانوا لا يحلمون بوجودها».

ثم قال: قال المسيو (كوسان دوبر سوفال) في كتابه تاريخ العرب:

«إن المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين، أما المتبدُّون منهم فكانوا في الحقيقة أحرارًا لا سلطة عليهم، وكان عرب سورية دائنين

للرومان. أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة – وهم ملوك بني حمير – سيادة وقتية، فكانت تعتبر أنها تحت سيادة ملوك الفرس، ولكنها في الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذي لا غبار عليه».

ثم قال (جول لا بوم): «ولم يكن العرب أحسن استعدادًا من غيرهم لقبول أي دين من الأديان، قال المسيو (دوزى) في كتابه تاريخ «عرب إسبانيا»: كان يوجد على عهد محمد (صلى الله عليه وسلم) في بلاد العرب ثلاث ديانات: الموسوية والعيسوية والوثنية، فكان اليهود من بين أتباع هذه الأديان أشد الناس تمسكًا بدينهم، وأكثرهم حقدًا على مخالفي ملتهم، نعم يندر أن تصادف اضطهادات دينية في تاريخ العرب الأقدمين، ولكن ما وجد فمنسرب إلى اليهود وحدهم. أما النصرانية فلم يكن لها أتباع كثيرون، وكان المتمذهبون بها لا يعرفونها إلا معرفة سطحية... وكانت هذه الديانة تحتوي على كثير من الخوارق والأسرار بحيث يعز أن تسود على شعب حسي كثير الاستهزاء. أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الأعظم من الأمة الذين كان لكل قبيلة بل أسرة منهم آلهة خاصة، والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى، ويعتبرون تلك الآلهة شفعاءهم لديه، فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام. ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان متى لم يتحقق إخبارهم بالمغيبات، أو لو عولوا على فضحهم عند الأصنام إن قربوا لها ظبية بعد أن نذروا لها نعجة، وكان من العرب من كان يعبد الكواكب وخصوصًا الشمس، فكنانة كانت تدين للقمر وللدبران، وبنو لخم

وجرهم كانوا يسجدون للمشترى، وكان الأطفال من بني عقد يدينون لعطارد، وبنو طي يدعون سهيلاً، وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشِّعْرى اليمانية، وكان علمهم بما وراء الطبيعة على نسبة أفكارهم الدينية. قال (كوسان دوبر سوفال) في كتابه «تاريخ العرب»: كان منهم من يعتقد بفناء الإنسان إذا خلعته المنون من هذا العالم، ومنهم من كان يعتقد بالنشور في حياة بعد هذه الحياة. فكان هؤلاء الأخيرون إذا مات أحد أقربائهم يذبحون على قبره ناقة أو يربطونها، ثم يدعونها تموت جوعًا، معتقدين أن الرُّوح لما تنفصل من الجسد تتشكل بهيئة طير يسمونه الهامة أو الصدى، وهي نوع من البوم لا تبرح تطير بجانب قبر الميت نائحة ساجعة تأتيه بأخبار أولاده، فإذا كان الفقيد قتيلاً تصيح صداه قائلة «اسقوني»، ولا تزال تردد هذه اللفظة حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه».

قال المسيو لا بوم بعد إيراده هاتين الجملتين عن الأستاذين السابقين: «وكانت طباع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر إليها إلا على أنهم شعب لم يكادوا يجوزون العقبة الأولى من عقبات الاجتماع، لو لم تكن الأسرة عندهم بل القبيلة أيضًا - وهي نقطة تلفت النظر – تهتم اهتمامًا عظيمًا بحفظ سلسلة نسبها، ولو لم يكن – وهو أمر أغرب من سابقه – إدراكهم للقوانين وسَعة لغتهم من جهة أخرى داعيًا إلى الالتفات بنوع أخص». ثم قال مباشرة: «قال المؤلف المحقق الذي اقتبسنا منه أكثر هذه التفصيلات المتقطعة: كان الغرب مغرمين بشرب الراح».

«ويوجد من الشعر ما يدل على أنهم كانوا يفرحون ويعجبون به وبلعب الميسر، وكان من عوائدهم أن الرجل له أن يتزوج من النساء بقدر ما تسمح له به وسائله المعيشية، وكان له أن يطلقهن متى شاء هواه، وكانت الأرملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها، ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الأب، وقد حرم ذلك الإسلام وعده زواجًا ممقوتًا، وكان هنالك عادة أفظع من كل ما مر وأشد معارضة للطبيعة، وهي وأد الأهل لبناتهم. (أي دفنهم أحياء).

(هذا كله لا يشير إلى أن العرب لم يكن فيهم أي جرثومة خلقية صالحة يمكن تقويتها وتهذيبها، فقد كانوا يحبون الحرية حبًّا جمًّا ويمارسون فعائل الكرم وبذل القِرَى[1].

«الأفراد الذين كانوا تابعين لأمم أرقى من الأمة العربية والذين كانوا مبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب، كانوا قليلي العدد جدًّا، ولا يظهر أنهم كلفوا أنفسهم بوظيفة الدعوة إلى مللهم، فاليهود الذين كانوا متشبعين بالأثرة الشعبية على مثال الصينيين واليابانيين والمصريين لا يرى منهم لليوم خاصية التأثير على غيرهم إلا بالخضوع لقوانين الأمة التي يشتغلون تحت ظل حمايتها بالأمور المالية، ولئن شوهد أنهم أدخلوا إلى ملتهم بعض العرب فلم يكن ذلك

(١) القِرَى: ما يُقدَّم للضيف. (م).

إلا نتيجة بسيطة لاشتراكهم في الأساطير التاريخية، وهو اشتراك يدل على قرابة قريبة بين الأمتين، تلك القرابة يستدل عليها بتساويهم في حب الكسب وتآزيهم[١] في الاستعداد لعدم الأنفة من سلوك أي طريق من الحيل والمكر لنيل كسب أو حطام، ولا ينتظر أن يكون من نتيجة الاجتماع بهذه الاعتبارات أدنى ترقٍّ أدبي، أما المسيحيون فكانوا يفدون شيئًا فشيئًا إلى بلاد العرب هربًا من الاضطهادات الدينية التي كانت في مملكة الرومانيين، ولكن لم يكن في حالهم نور يستلفت البصر تألقه، وفي حالة مسيحي الحبشة اليوم نموذج لذلك، فإنه لا يمكن أن يتحلى الإنسان بمدركات العقائد السامية من دين بمجرد التسليم بنص تلك العقائد».

«في عهد هذه الأحوال الحالكة، وفي وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ولد محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) في ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠». انتهى.

من هذا البيان يرى القارئ أن العالم الإنساني كان بحاجة إلى حادث جلل يزعج الناس عما كانوا فيه، ويضطرهم إلى النظر والتفكير في أمر الخروج من المأزق الذي تورطوا به، ولله في خلقه سنن لا تتبدل ولا تتحول، فلا يتقادم العهد على دين، ويجمد منه الناس على شكل يمنع ترقيهم حتى يبعث إليهم ما يلفتهم إلى النظر، وينبههم إلى العبر؛ ليجددوا ما رثَّ من تقاليدهم، وفسد من أحوالهم،

---

(١) تآزيهم: تقاربهم. (م).

وقد جاء الإسلام فأحدث هذه النتيجة المطلوبة بما أقام من الدول، وأسقط من الممالك، وأصَّل من الأصول، وهدَّم من التقاليد، وناهيك به من انقلاب زعزع أركان دولتي الرومان والفرس، وهما دولتا العالم إذ ذاك في أعظم قارتيه آسيا وأوروبا، وقد استتبع تزعزع أركانهما ضعفًا سرى في مجموع تقاليدهما الرثَّة، فتخلصت أمم من نير استبدادهما، وتهيأ ما بقي منها للدخول في أدوار جديدة من الحياة، وتلا ذلك كله ما تراه اليوم من النهضة المستمرة في عالمي العلم والعمل.

ما هي الأصول الجديدة التي حملها الإسلام للأمم، وتغلب بها على جميع الأصول الموجودة لذلك العهد؟ الأصول العلمية والاعتقادية تتنازع الحياة كما تتنازعها الأمم، فيغلب الأكمل منها ما عداه، ويبيده ويستولي على العقول والأرواح دونه، ولا يزال سائدًا حتى يأتي ما هو أكمل منه؛ فيتغلب عليه كما تغلب هو على ما سبقه، وهلم جرًّا. هذه سنة الله في الأمم من يوم وجودها إلى اليوم.

نعم قد يتغلب الباطل على الحق أحيانًا، ولكنه لا يتغلب عليه إلا إذا كان الحق قد ألبس لبوس، الباطل وصار بما شِيب به من الأضاليل أشد ضررًا من الباطل نفسه. أما ما دام الحق بديباجته الخاصة به لم تشبه شوائب الأضاليل، فلا سبيل لأي باطل عليه مهما كان حوله وبطشه.

فإذا قلنا جاء الإسلام فتغلب بأصوله على جميع الأصول التي كانت قائمة على عهده، فمعنى ذلك أن أصوله كانت أكمل من تلك الأصول القديمة، وأصلح للأمم منها.

كانت في العالم مدنيات قائمة قبل مجيء الإسلام، وعلى عهده، أجملها وأكملها كانت المدنية الرومانية، ناهيك أنها تغلبت بها على دول الأرض، فلم تبق فيها أمة تنازعها السلطان إلا دولة الفرس في آسيا، وقد يتلو الناس تاريخ الرومان فيرون حروبًا تشب وملوكًا تتولى، وقوانين تسن، وأصولاً تدعم، وربما أكبرَ جهلة المؤرخين هذا الأمر، وعدّوه مما يصل إلى حد الخوارق، ولكن لأهل العلم نظرًا غير نظر الجاهلين، فإن تلك المدنية الرومانية على ما ولدت من الأصول والقوانين، ومصّرت من الأمصار، وأقامت من الآثار، كانت مطبوعة بطابع الوحشية، وكانت في أكمل أدوارها بحاجة إلى التعديل والتقويم، بل إلى قارعة سماوية تحل بها، فتقلبها رأسًا على عقب.

جاء في دائرة معارف لاروس ما ترجمته:

«ماذا كانت نظامات الرومان على وجه الإجمال كانت عين الوحشية والقسوة مرتبة في صور قوانين. أما من جهة فضائل روما مثل الشجاعة والمكر والتبصر والنظام والإخلاص المطلق للجماعة، فهي بعينها فضائل قطاع الطرق واللصوص، أما وطنيتها فكانت لابسة لبوس الوحشية، فكان لا يرى فيها إلا

شرهًا مفرطًا، وحقدًا على الأجنبي، وضياعًا لعاطفة الشفقة الإنسانية. أما العظمة في روما والفضيلة فيها فكانت عبارة عن أعمال السوط والسيف في العالم، والحكم على أسرى الحروب بالتعذيب أو بالأسر، وعلى الأطفال والشيوخ بجر عربات النصر». انتهى.

نقول إذا كان هذا شأن الرومان في نظر العلم فشأن الفرس لا يحتاج لبيان، فقد كانت القسوة والاستبداد الحكومي وتأله الأكاسرة وغطرسة القادة فوق ما يتصوره العقل. فإن كان الإسلام قد تغلب على الرومانيين والفارسيين فإنه لم يغلبهم بقوة سلاحه ونظام جنوده، لأن السلاح والنظامات الحربية كانت من خصوصيات تلك الأمم، ولكنه غلبهم بسلامة أصوله، وأصالة تعاليمه. فماذا كانت تلك الأصول القديمة، وما هي هاتيك الأصول الإسلامية، وكيف تغلبت الثانية على الأولى، وانتهى الأمر بأن قادت العقول والأرواح معًا؟

الأصل الإسلامي الأول: التخليص بين الإنسان وخالقه

كان الرجل من أهل الملل السابقة تحت وصاية الكهنة حتى في خطرات نفسه وهواجسها، فلم يكن ليبرم أمرًا أو لينقضه في شؤونه الخاصة أو العامة إلا بإقرار رجال الدين عليه. ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكان الحال أشبه بتغلب طائفة على أخرى في الأمور الحيوية، ولكن الأمر المزعج أنهم فصلوا ما بين

الإنسان ومبدعه، وأقاموا أنفسهم وسطاء بينهما، فما كفى الرجل أنه لا يستطيع أن يبيع أو يرهن أو يتعاقد أو يموت إلا بحضور أحدهم، حتى حرموه أن يدعو ربه أو يتوب إليه من ذنبه إلا بوساطتهم؛ فكان الرجل إذا أراد الزلفى من الله رشاهم وملأ أيديهم بالنُّضَار[١]، فيؤذن له أن يتصل من مولاه بسبب، وإن ضن عليهم، وقبض يده عنهم، أقصوه عن تلك الحضرة، وأوهموه أنهم حبسوا عنه رحمة ربه.

بمثل هذه الإيهامات تغلب رجال الدين على عقول الأمم؛ فأصبحت في أيديهم كالطفل في يد أمه، وناهيك بما يستتبع هذه العبودية من وقوف حركة الأفكار، ونضوب معين العقول وتعطيل حياة الشعور، فلا جرم عاشت الأمم دهورًا طويلة وهي في حالة جمود شامل تحت آصار هذه الوصاية الثقيلة، حتى جاء الإسلام بهذا الأصل الأول، وهو التخليص بين الإنسان وخالقه، فقرر أن الله قريب من عباده، يسمعهم إن نادوه، ويستجيب لهم إن دعوه. فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى ﴾ [البقرة/ ١٨٦] بل قرر الإسلام أن الله أقرب الأشياء إلى عباده، فقال تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق/ ١٦].

ولم يشترط في قبول عبادتهم أن يرأسها شخص من طائفة تنحل نفسها صفة التوسط بين الناس وخالقهم، فلكل إنسان أن يؤدي صلاته ونسكه بنفسه،

---

(١) النُّضار: الذهب والفضة. (م).

أما الصلوات الجامعة كصلاة الجمعة والعيدين والجماعة، فالذي يرأسها الأمير نفسه أو من ينيبه عنه، ولا يشترط في النائب والأمير أن يكون من طائفة خاصة، بل يجزئ في النيابة كل رجل من المسلمين، ولو كان صانعًا أو تاجرًا أو زارعًا.

بهذا الأصل الإسلامي خلص ما بين الإنسان وربه، فلم يعد تابعًا لأحد من إخوانه في البشرية، ولم ير لرجل مثله فضلاً عليه من وجهة رُوحانية، فكان هذا الأصل أول حجر وضعه الإسلام في أساس الحرية الإنسانية الصحيحة.

الأصل الإسلامي الثاني: تقرير المساواة العامة

كان الناس قبل الإسلام ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: قسم رجال الدين، وقسم رجال الحكومة ومن التحق بهم من الشرطة والجنود، وقسم العامة. فكان رجال الدين هم الأعْلَون مكانًا، والأرفعون مقامًا، وكان رجال الحكومة يلونهم في الدرجة، وكانت الطائفتان معًا عاملتين على تسخير العامة لمصالحهما، وابتزاز ثروتها واجتياح ثمراتها، لسد حاجة شهواتهما، وتوفير لذاتهما الأولى باسم الدين وخدمة منزله، والثانية باسم السلطة الدنيوية. فلما جاء الإسلام قرر أن الناس كلهم سواء: أبوهم آدم وأمهم حواء، لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربي على أعجمي إلا بالتقوى أو عمل صالح، فقال تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات/ ١٣].

بهذه المساواة محيت السلطة الرُّوحية التي طالما سامت الشعوب الخسف، وألبستهم لباس الذل. ولم يعد للكبراء والقادة ما كان لهم من مزاعم في احتكار السلطة وتوريثها آلهم وذويهم بغير حق، وصار ميزان التمايز الأعمال الصالحة، والفضائل الحقة، حتى اضطر أول خليفة ولي المسلمين أن يخطب الناس فيقول: «يا أيها الناس، قد وُلِّيتُكُم عليكم ولست بخيركم، ولقد وددت أن واحدًا منكم قد كفاني هذا الأمر، فلو وجدتم فيَّ اعوجاجًا فقوِّموه».

فكان هذا الأصل ثاني حجر وضعه الإسلام في بناء صرح سلطة الأمة، ارتفعت عليه الشعوب إلى أعلى منصات الشعور بالكرامة الاجتماعية، وبنت عليه ما قدر لها من معارج الصعود إلى مكانات الرفعة القومية.

الأصل الإسلامي الثالث: تقرير مبدأ الشورى في الحكومة

كان الناس قبل الإسلام يرون أنفسهم قد خلقوا لأن يطيعوا طائفة الحاكمين طاعة عمياء، ليس لهم من أمرهم حق النظر في سلام ولا حرب، أو في إبرام ونقض، فكانوا يسيرون كما تسير الأنعام السائمة إلى حيث يريدون ولا يريدون، وما تقرأه في تواريخ الرومان واليونان من تكوين المجالس الشورية وتأليف النظامات الدستورية لم يكن في حقيقته إلا نوعًا من الاستبداد، فإن السلطة فيها كانت لا تزال وقفًا على أفراد من الأقوياء، أما عامة الشعوب فكانوا على ما كانوا

عليه قبل قيام تلك المجالس والجمهوريات؛ لا حق لهم في تقويم عوج الحاكمين، وهل كانت المجالس الشورية في أتينا وروما إلا من حظ طائفة الأشراف دون سواهم، فتارة كانوا يستبدون بالناس جميعًا، وطورًا يكونون آلة في يد الحاكم الفرد يسوق العامة بهم إلى حيث أراد؟

فلما جاء الإسلام قلب هذا النظام رأسًا على عقب، وجعل لكل فرد حق الرقابة على الحكومة وإبداء الرأي في الشؤون العامة، فقال تعالى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى / ٣٨] وقال تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران/ ١٥٩]. وزاد فجعل الدين النصيحة، قال عليه الصلاة والسلام: «الدِّينُ النصيحَةُ. قالوا لمن يا رسول الله؟ قال: للهِ ولرسُولِهِ وللمُؤمنِينَ عامَّتِهِم وخاصَّتِهِم» وأبعد مرمى هذا الأصل، فقرر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الواجبات على كل آخذ به، كبيرًا كان أو حقيرًا، حتى إن الله لما سرد بعض حوادث الأمم الغابرة، وذكر ما أصابهم من القوارع والمحن، علل ذلك بقوله ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة/ ٧٩] وقال عليه الصلاة والسلام: «لتأمُرنَّ بالمعْروفِ ولتَنْهَوُنَّ عن المنكَرِ أو ليُسَلِّطَنَّ اللهُ عليكم فتنًا كقِطَعِ اللَّيلِ المظلِمِ تدعُ الحليمَ حَيْرانًا» وقال عليه الصلاة والسلام «مَنْ رَأَى منكُم المنكَرَ فَليُغَيِّرْهُ بيدِهِ فإنْ لم يستَطِعْ فبِلسَانِهِ فإنْ لم يستَطِعْ فبقَلْبِهِ وذَلك أضْعفُ الإيمانِ».

بهذا الأصل علم كل مسلم أن له حظًّا من إدارة شؤونه العامة، فلم يعد يعتبر نفسه آلة في يد الرؤساء، ولا جسمًا مهملاً في بناء الاجتماع، وناهيك بأمة ينبث مثل هذا الشعور العالي في جميع آحادها، وتنتشر آثاره في حركاتها وسكناتها.

الأصل الإسلامي الرابع: تعليق السعادة والشقاوة في الحياة الأخرى على الأعمال والصفات الذاتية، لا على الشفاعات والقرابات

كان الناس قبل الإسلام يعتقدون أن أمر العالم الرُّوحاني بيد رؤساء الدين، لا راد لإرادتهم فيه، فهم المسعدون والمشقون، بأيديهم الإثابة بالجنان، والحور والولدان، أو العقاب بالنيران، والتعذيب والحرمان، فكان من لا يمت إليهم بنسب، أو يتصل منهم بسبب، يعتبر نفسه فاقدًا مزية الحظوة بالحياة الأبدية، فيعمل على استنزال رضائهم جهده بالمال تارة، والطاعة العمياء أخرى، حتى مرنت الشعوب بهذه الوساوس، وصارت الذلة ألصق بها من أقرب غرائزها، ففقدت نخوة الأحياء وعزتها، وأصبح الآخذون بتلك الأديان كالآلات الصماء في أيدي الرؤساء يرمون بهم حيث يشاؤون من متاهات الوجود، ولا تسأل عما يلحق نفوسهم من الصفات، ويلم بمواهبهم من الانحطاطات من جراء مثل هذه العقائد التي تريهم أن الظلم والمحاباة من أخص صفات الحياة. فهل يستقيم مع مثل هذه الحال ميزان الأخلاق، وينتظم شأن المعاملات؟ وهل يكون لمثل هذه

الجماهير من الأمم حظ من وجود عال في هذا العالم، يرفعون به شأن الإنسانية، أو يقومون فيه بخلافة الله في أرضه؟

جاء الإسلام فقرر أن مناط السعادة في الدنيا والآخرة الأعمال الشخصية، وأن القرابات والشفاعات وجميع أسباب الزلفى من الرؤساء لا تغني عن الإنسان شيئًا، فقال تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر/ ٣٨] وقال تعالى ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم/ ٣٩-٤٠] وقال عن الذين لا يعملون صالحًا ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ [الشعراء/ ١٠٠] ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر/ ٤٨] وقال عليه الصلاة والسلام لابنته فاطمة الزهراء: «اعمَلي يا فاطِمَةُ فإنِّي لا أُغني عَنْكِ من اللهِ شيئًا» وقد ورد في القرآن أن نوحًا شفع لابنه، فلم يجبه الله؛ لأن ابنه كان غير صالح. قال تعالى في سياق تلك الحكاية: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ . قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾[هود/ ٤٥-٤٦].

بهذا الأصل أجهز الإسلام على ما كان قد بقي من سلطة الرؤساء الرُّوحانيين، وزاد النفوس نزوعًا إلى الخلاص من أسر المسيطرين، ولا تسل عما استتبع هذا المبدأ من إدراك الإنسان لمبلغ العهدة الملقاة على عاتقه، ولحقيقة مركزه في مجتمعه وعالمه، فكيف لا ينتج من هذا الشعور أصل الاعتماد على

الذات، والثقة بالقوى النفسية والاعتقاد بأنها كافية في إيصال الإنسان لأرقى ما يتوق إليه من درجات السعادة المرجوة في هذه الحياة وما بعدها.

الأصل الإسلامي الخامس: الاعتراف بحقوق العقل والعلم

كان الناس قبل الإسلام يعتقدون أن الدين والعقل نقيضان لا يجتمعان، وعدوان لا يتفقان، لما كانوا يرونه من الخلاف الشديد بين عقائدهم وعقولهم، وقد غلوا حتى زعموا أن العقل أحط من أن يدرك العقائد في جلالها وسموها، وزادهم رؤساء الدين ضلالاً في هذا الزعم بما كانوا يبثونه في أذهانهم من أن حقائق الدين يجب أن تكون أرفع من مدركات العقل، لأنها إنما تتنزل عليهم من عالم رُوحاني يختلف في جميع شؤونه عن عالمهم الحسي، وغاب عن تلك الأمم أنه لو صح من الزعم لصحت جميع الخرافات التي يدعي أصحابها بأنها أديان منزلة، ولما استطاع إنسان أن يميز بين غث وسمين مما يقدم إليه من مختلف المدركات ومتناقض المقالات.

جاء في دائرة معارف لاروس من باب الإزراء برؤساء الدين الذين يوهمون الناس بانحطاط العقل عن إدراك الأمور الدينية ما ترجمته:

«إن قلنا الإحسان يقتضي اعتقاد الأشياء المعقولة، قالوا لا لا. ثم يسعون في تذليل هذا العقل الإنساني الذي يدعي لنفسه حق التمييز بين الخير والشر،

وبين العدل والظلم، حتى إذا أعموا عين العقل وغشوا باصرة البصيرة، لدرجة بها ترى الكرامات، كأنها أمور عادية، وتظن الأبيض أسود، وتعد الرذيلة فضيلة، يعود الدين فيقول أطيعوا. نطيع من؟ هل نطيع العقل؟ الواجبات الطبيعية، العواطف القلبية، النواميس الحقيقية المفيدة للإنسانية والتي تنتج من تلك القواعد نفسها؟ لا ولكن أطع وأنت أعمى للذي يحكم باسم الله، حتى ولو أمرك بقتل مليكك أو أبيك، أو بإحداث مقتلة عامة، فإنه ليس لك لا رُوح ولا ضمير، إنما أنت ميت في الله». انتهى.

جاء الإسلام فقرر أن العقل مناط التكليف ومحك التمييز بين الحق والباطل، وأنه قسطاس الحكم، وفيصل التفرقة بين المشتبهات، فأكثر القرآن من ذكر العقل في مثل قوله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة/ ٤٤] ﴿وَقَالُواْ لَوْكُنَّا نَسْمَعُ أَوْنَعْقِلُ مَاكُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك/ ١٠] ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت/ ٤٣] وقال عليه الصلاة والسلام: «الدينُ هُو العقْلُ ولا دِين لمنْ لا عقْلَ لَهُ» وقال «يا أيُّها النَّاسُ اعقلوا عن ربِّكم، وتواصَوا بالعقْلِ تعرفُوا ما أُمِرْتُم بِهِ وما نُهيتُمْ عنْه، واعلمُوا أَنه يُنجِدُكُم عنْدَ ربِّكم» قال عليه الصلاة والسلام: «لا يعجِبْكُم إسْلامُ رَجُلٍ حتَّى تنظُروا ماذَا عقدَه عقْلُه». وأثنى قوم على رجل عند رسول الله ﷺ حتى بالغوا فقال لهم: «كَيفَ عقلُ الرَّجُلِ؟» فقالوا نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن

عقله؟ فقال: «إنَّ الأحمقَ يصيبُ بجهلِهِ أكثَرَ من فجورِ الفاجِرِ، وإنَّما يرتفعُ العبادُ غدًا في الدرجات الزُّلفى من ربِّهم على قدْرِ عُقولِهم».

لم يقف الإسلام عند هذا الحد في رفع قيمة العقل، بل تحله سلطته المطلقة في الحكم على العقائد، فطالب كل معتقد بالدليل على حقيقة معتقدة، حتى ذهب جمهور من العلماء أن إيمان المقلد غير مقبول، قال تعالى من باب المطالبة بالدليل: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ [المؤمنون/ ١١٧]: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[البقرة/ ١١١].

وقال من باب النعي على الآخذين بالظنون والأوهام ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس/ ٣٦] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام/ ١١٦].

ثم بين خطر الاعتقاد بدون عقل ولا علم، وكشف عن عظم العهدة في ذلك فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء/ ٣٦].

بهذا الأصل تحررت العقول من أسر العقائد الباطلة، وظهر الدين لأول مرة مؤاخيًا للعقل، معتضدًا به في تقرير المعتقدات، وتحديد المعاملات. فكان

هذا فاتحة عصر جديد دخل به الدين في مجال المقررات العلمية، بعد أن كان مطروحًا في زوايا التوليدات الخيالية، ولا تسل عما استتبع هذا الأصل من رقي الأمم في معارج الفهم، وسموها في مراقي الفقه ووقوفها قوية عالية الرأس أمام أهل الخداع والمطامع من المتأولين للنصوص الدينية، الذين يرمون لقيادة العامة بأهوائها، وتسخيرها بأوهامها.

قال لاروس في دائرة معارفه: «إذا بحثنا بدون غرض ولا وهم عن سبب الرقي الذي حدث في العالم الماديّ والفكريّ والخلقيّ منذ طفولة الجماعات البشرية إلى أيامنا هذه، فلا نراه إلا خلاص العقل من الضغط عليه».

وقال لاروس أيضًا في دائرة معارفه: «من لدن زمن الإصلاح لغاية الثورة الفرنسية استمرت المجالدات بحظوظ مختلفة بين محرري العقل وبين الضاغطين عليه من القدم، ولأجل الإعراض الكلي عن أساطير الماضي، ورسم خطة جديدة للمستقبل، أخذت الثورة الفرنسية في ترميم ما تهدم من أركان الجماعة، وصار تعليم النشء من أهم اشتغالاتها». انتهى.

الأصل الإسلامي السادس: المؤاخاة بين الدين والمدنية

الإنسان بما فطر عليه من حب الذات مدفوع لأن يحصل لنفسه أقصى ما يستطيعه من كمال جسداني ولذة بدنية، ويدفع عنها ما يمكنه من مبيدات

الوجود ومهلكاته، ثم إن ما متع به من القوى المعنوية البعيدة المدى يمكنه من الوصول لأكثر رغائبه، مادام يعمل للحصول عليها بالوسائل المقررة.

على هذا فطر الإنسان، وقد حقق لنفسه بعض هذه الأماني في أزمنة مختلفة، ولكن قادة الأديان لأجل أن يقبضوا على نواصي الأمم ويسخروها لأهوائهم خشوا أن تكون السعادة الجسدية مغرية للإنسان إلى التملص من قيودهم والتخلص من سطوتهم، فيضيعوا مكاناتهم الموهومة؛ فمزجوا بتعاليم الدين ما ليس منها من الدعوة إلى الذل والاستكانة، وحببوا إليهم الزهد والتقشف. نعم إن الله أرسل بعض الرسل بالدعوة إلى الزهد المطلق في الدنيا ونعيمها، ولكن كان ذلك لأسباب خاصة في أحوال تقتضيها، لا لأن الدين بطبيعته عدو للمنافع المادية، وخصم للسعادة الجسدية.

تمسكت أمم بالدين المشوب بتلك التعاليم، فانحط أهله إلى أسفل الدركات، وصاروا أضعف الناس في ميدان التغالب الحيوي، ووقر في النفوس أن الدين ينافي كل عمل يؤدي إلى النعيم البدني، فنجحت الشبه والشكوك، وتناقضت تعاليمه والفطرة البشرية. وتمسك قادته بأصولهم، فأخذوا يعملون على إبادة كل نزعة تبدو من الأمم لطلب الرقي، وأصبح الدين في أيديهم آلة للتعذيب والقهر، وكانت الحرب سجالاً بينهم وبين الدعاة للمدنية، حتى تم لهم الفوز

المطلق، فنضبت موارد العلم ودرست أعلامه، وأمسى العالم في ظلام حالك من الجهل والعماية.

ظهر الإسلام فقرر أن الدين ليس عدوًّا للمدنية، بل هو دليلها الصادق ومرشدها الخبير، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[الأعراف/ ٣٢] وقال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة/ ٢٠١] وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُواْ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[النحل/ ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾[القصص/ ٧٧].

ولما كان العامل في إيجاد المدنية المادية هو العلم، قرر الإسلام طلبه على كل مسلم ومسلمة، فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[طه/ ١١٤] وقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء/ ٨٥] وقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر/ ٩] وقال عليه الصلاة والسلام: «طلبُ العلمِ فريضَةٌ علَى كلِّ مسْلمٍ ومسْلِمَةٍ» وقال: «منْ علِمَ علمًا فكَتَمَه ألجَمهُ الله بلجَامٍ من نَارٍ».

الأصل الإسلامي السابع: تنبيه الإنسان إلى أن للوجود الإنساني سننًا لا تتبدل

كان الناس قبل الإسلام يتخيلون أن الجماعات البشرية كقطعان السوائم تصرفها إرادة رعاتها وتقودها إلى حيث يتفق مع مصلحتها، وما كانت أدوار التاريخ

في نظرهم إلا صنع الرؤساء والقادة يستطيعون تغييرها وتبديلها على ما تقتضيه سياستهم، فكان نظرهم يتجه إلى أولئك الرؤساء كلما لاح لهم عارض مصلحة، واستشرفوا بأرق أمل، ثقة منهم أن إرادة سادتهم كافية في تغيير كل حال إن همّوا به وأرادوه. وفي هذه العقيدة من زيادة توريطهم في العبودية لهم ما فيه. فلما جاء الإسلام قرر أن للوجود الإنساني سننًا لا تتحول ولا تتبدل لا تزال عاملة على مقتضى نظامها المقرر لها حتى تبلغ الغاية مما ترمي إليه، فالجماعات البشرية في مجموعها كائنات حية لها أدوار تأتي عليها، وحالات تدخل فيها، لكل دور منها شؤون ومقتضيات، ولكل حال لوازم وعلاقات لابد من ظهورها جميعًا، كلٌّ في حينه المقرر له من سن الاجتماع وصفات الجماعات.

هذا الخلاف في النظر بين القدماء والإسلام ذو شأن خطير في باب الحقائق العلمية، وتأثير في التعاليم الفلسفية، فالقدماء كانوا ينظرون للقادة نظرهم للآلهة المتحكمين في إسعادهم وإشقائهم، إرشادهم وإضلالهم، فكان هذا الضلال في العقيدة مُكسبًا وظائف أولئك القادة عِظَمًا وجلالاً، ونفوس تلك الشعوب حِطَّة وإذلالاً، ولكن الإسلام يقرر أن الأمم وفي مقدمتها ملوكها منفعلون جميعًا لقوى متسلطة عليهم، تابعة لناموس عام ينظم سيرها ويرتب أفاعيلها على حسب أحوالهم، وبقدر استعدادهم وقابليتهم، فهو ينظر في أمر إصلاح الأحوال وترقية النفوس، لا إلى القادة المتسلطين، لأنه لا يرى أن لهم حولاً في أقل تغيير، بل

إنهم في حقيقتهم أثر من آثار الحال التي فيها الأمم، بل ينظر إلى ذات الأمم فينبهها لواجباتها، ويزعجها إلى تلمس منجاتها بقواها الذاتية، وإرادتها الشخصية.

القرآن أكثر من الزجر والوعظ والترغيب والترهيب، فلم يوجه الكلام في واحدة للكبراء والقادة، ولكنه وجهه للناس كافة مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[التحريم/ ٦] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [النساء/ ١٧٤] وما ذكر أولئك السادة إلا في معرض النعي على الأمم في استسلامها لضلال قادتها وأهواء كبرائها فقال: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[الأحزاب/ ٦٧] بل إنه عدهم من آثار حيادها عن الطريق المستقيم، كأنهم من كسب أعمالها، وثمرة ضلالها فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام/ ١٢٩].

ثم إنه لفت الناس لاستخدام قواهم المودعة فيهم إذا أرادوا تغيير أحوالهم، وتحسين شؤونهم فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[الرعد/ ١١].

لا جرم أن هذا الأصل أقوى باعث لهداية الأمم إلى الطرق الحقة في حصولها على سعادتها وعروجها إلى كمالها، فإن الأمم متى عرفت أن بيدها سعادتها وشقاءها، وأن أحوالها المختلفة من ثمرة أعمالها، لم تعد تعتمد في تبديل شؤونها على غير جهادها، وفي تكميل وجودها على سوى قواها الكامنة فيها.

الأمم المتشبعة بمثل هذا الأصل الاجتماعي يستحيل عليها الاستخذاء لعظيم، أو الاعتماد على فرد مهما بلغ شأنه من شرف المولد وكرامة المَحْتِد، وناهيك بهذه النزعة سائقًا إلى الحرية الصحيحة، والديموقراطية الحقة.

من الآيات الدالة على ما ذكرناه من أن الإسلام قرر أن للوجود الإنساني سننًا لا تتبدل قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[الأحزاب/ ٦٢] وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[الأنعام/ ١١].

الأصل الإسلامي السابع[١]: لفت الإنسان لنظام الطبيعة وتوجيه نظره لأسرارها الخفية

حرم رؤساء الدين على الأمم النظر في الكون إلا فيما يمس العبادة ويتعلق بأداء واجباتها، فرصد الآشوريون الأفلاك لمعرفة مواقيت العبادة، وبرع المصريون الأقدمون في صناعة النقش والتصوير والنحت والبناء بسائق الدين أيضًا لتصوير الآلهة، وإقامة النصب لها، وبناء الأهرام عليها وعلى الموتى، وليس فيما بين أيدينا دين يدعو الإنسان للنظر في الطبيعة لدرس أسرارها، واستكناه خافياتها، ليستخدم ذلك في تحسين أحواله وترقية وجوده إلا الإسلام، فإنه لما جعل غرضه ترقية الإنسان، وإبراز قواه الكامنة فيه، حرضه على النظر في الكون، فقال:

---

(١) هكذا ورد الترقيم بالطبعة المعتمدة بتكرار «الأصل الإسلامي السابع». (م).

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾[يونس/ ١٠١] وقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ. وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾ [الغاشية/ ١٧–١٨] وقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[آل عمران/ ١٩٠].

لا جرم أن النظر في الكون يستتبع استكناه نظامه، واستكشاف أسراره، ولا يخفى ما في ذلك من الأثر البين في إقامة الأمم على النظام، وتدريبها على محاكاة صنائع الله في الإبداع والأحكام، وقد عملت الأمة الإسلامية الأولى بهذا الأصل؛ فبرع منها ألوف من العلماء، جعلوا لعلم الطبيعة شأنًا يذكر في تاريخهم، ثم إنهم لم يتخذوه علمًا كلاميًا نظريًّا، بل جعلوه علمًا عمليًّا، فاستخدموه في إبلاغ مدنيتهم أوجًا لم تصل إليه أمة قبلهم، ولا يزال الأوربيون يترجمون من كتبهم ما يقفهم على أن العرب بلغوا من العلوم الطبيعية شأوًا لا يزال مداه مجهولاً.

الأصل الإسلامي الثامن: الاعتراف بحقوق ميل الإنسان وعواطفه

في الإنسان ميول مختلفة وعواطف جمّة، وكلها فيه غريزية طبيعية أودعتها فطرته لتكمله في شخصه ونوعه، وتوصله بما تنشئه له من الحاجات والعاديات إلى أقصى ما قدر له من المدنية.

فالإنسان يميل لأجل حفظ شخصه للغذاء والكساء، ولحفظ نوعه للزواج والاجتماع، ولكنه بما ركب فيه من القوى المُرَقّية لا يقف من هذه الحاجات عند حد الضرورة، فيميل لأن يفتن في نوع غذائه ولباسه ومأواه، ولا يزال على تلك الحال وهو في كل اندفاعاته هذه يحصل من ورائها علمًا جديدًا يبعثه لاستكناه مجهول، واكتشاف سر، وربما كان بعض افتنانه في الوفاء لميوله هذه جالبًا عليه من مصائب تجتاح كثيرًا من آحاده، ولكن من يبقى منهم يستفيد منها رقيًّا جديدًا لما يفتحه عليه الفكر من مجالات الحيل وباحات الوسائل.

على هذا فُطر الإنسان، ومن هنا نشأت مدنياته وعلومه وصنائعه، وسيتأدى من هذا الطريق نفسه إلى كماله المنتظر الذي يعلو به عن مستوى الحيوان الأعجم.

كانت قبل الإسلام أديان تنزع إلى وقف تيار هذه الميول بتقرير صنوف الرياضات وأشكال الحرمان، ومنها ماعدا الزواج دنسًا من الأدناس، ونظر إليه نظرة للشر الضروري فكان هذا النزوع من تلك الأديان سببًا لتعطيل قوى النفس الإنسانية، وصدِّها عن استخدام جميع وسائلها، ومنع بذلك ظهور آثارها البديعة في عالم الحس. فجاء الإسلام معترفًا بحقوق هذه الميول الطبيعية غير مطالب الإنسان إلا بخصلة واحدة، وهي الاعتدال فيها على حد قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف / ٣١] حتى إنه لم يحرم عليه الدفاع عن نفسه بالقوة والتبسط في استعمار الأرض؛ لعلمه بأن الحرب كانت لدى بعض الأمم من الحاجات التي لا غنى لها عنها، وهي تجتاز دورًا من أدوار الاجتماع،

فطالب ذويه بالعدل فيها، وعدم الإيغال في إشباع عاطفة الانتقام، فقرر أولاً: ضرورة الدفاع بقوله: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾[البقرة/ ٢٥١] ثم نص على وجوب الإنصاف فيها فقال تعالى: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[البقرة/ ١٩٠].

بهذا الأصل حفظ الإسلام لمتبعيه جميع صفات الأمم الحية المستأهلة للتدرج في مراقي الكمال البشري، ولو كان العرب الأولون أمروا بصدم هذه الميول الطبيعية بالزهد والتقشف، وحرمت عليهم جميع مقومات الاجتماع من مقابلة القوة بمثلها، لما كان من أثره إلا تكوين جماعة من المتبتلة يعيشون ضعافًا ويموتون أسرى سواهم من المتغلبين، ولما قاموا بهذه الأعمال الجليلة من بناء مدنية فخمة، وإقامة دولة عظيمة، وحفظ ميراث العالم من العلم والحكمة، ولانتهى أمرهم كما انتهى أمر كل طائفة مستضعفة مستكينة.

اعتبر بعض الطاعنين في الإسلام إباحة الحرب والتنازع من العيوب التي يجب أن يخلص منها كل وحي إلهي، وغاب عنه أولاً: أن شريعة موسى كانت تتيح الحرب والتنازع على أشد درجاتهما، حتى ورد في التوراة أن موسى كان إذا غلب الأمة اجتاح أهلها ولم يُبق حتى على حيواناتها، وشريعته مع هذا معتبرة من الوحي لدى أكثر الطاعنين على الإسلام من هذه الوجهة. ثانيًا: أن الحرب مظهر من مظاهر التنازع المعاشي، وهذا التنازع لا يزال سنة إنسانية يسوق إليها فساد في بنية الاجتماع، فإذا حرمه الإسلام حرم ذويه الدفاع عن أنفسهم

وبلادهم، وقضى عليهم بالتلاشي والزوال. لأننا لا نزال نرى بأعيننا أن الأمم في نزاع مستمر، وأن مدار الفوز فيه على القوى المسلحة وأن الحياة هي للحاصل على جميع أسباب الدفاع عن الحوزة.

الأصل الإسلامي التاسع: توحيد العالم في دائرة المعاملات

يلاحظ الناظر في الأديان السابقة على الإسلام أن الأثرة القومية ظاهرة في تعاليمها ظهورًا بينًا، وكثير منها حرم التعدي على الآخذين بها، وأحله لمن عداهم من سائر الأمم، من هنا حدث التضاغن والتغابن بين أهل الممالك المختلفة، وورث الناس هذه الأخلاق جيلاً بعد جيل، حتى ليكاد أحدهم يفضل أن يرى الحيوانات الكاسرة ولا يرى وجه رجل يخالفه في معتقده.

لا جرم تأثرت المعاملات بين هذه الأمم المتخالفة في العقائد على نسبة قوة هذه التعاليم الضارة ومبلغ تأثيرها على أذهانهم؛ فتعطلت المصالح المادية وكثرت الغارات الجائرة، ونزع بعضها لإبادة بعض، لا لغرض سوى تطهير الأرض منها.

ولكن الإسلام لم يسلك هذه السنة، بل رمى إلى توحيد العالم كله في دائرة المعاملات الحيوية، تاركًا لكل أمة حريتها في اعتقاد ما تريده من العقائد، فقرر لمتبعيه من هذه الوجهة أصولاً، فقال لهم إن اختلاف الأمم والنحل في الاعتقادات أمر يقتضيه نظام الكون، وأنه مراد الله تعالى، وأنه من المحال جمع

الأمم على عقائد واحدة، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود/ ١١٨- ١١٩].

علم المسلمون بهذه الآية أن هذا الخلاف مراد الله تعالى لحكمة يعلمها هو، وأن الأمم لا تزال عليه حتى يأتيها أمر ربك فلم تَغْلِ مراجل الأحقاد في صدورهم، ولم تلتهب جذوة الأضغان في نفوسهم، بل تركوا ما لله لله، وعملوا بقوله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ولم يظاهروا على إخراجكم أن تبروهم وتقسطوا إليهم﴾[الممتحنة/ ٨].

أمر الله متبعي الإسلام بهذه الآية أن يبرروا ويقسطوا إلى الأجانب عن دينهم الذين لم يقاتلوهم من أجل ملتهم ولم يخرجوهم من ديارهم، ثم أيد ذلك بقوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الممتحنة/ ٩].

بهذه الآيات لم يجد المسلم في نفسه ما يجعله على الحقد على مخالفه في الدين، مادام لم يقاتله ليفتنه عن دينه، بل إنه أمر بأن يعدل في معاملته، وبأن يبره، والبر فوق العدل؛ لأنه يقتضي التفضل والإحسان.

وقد دل تاريخ المسلمين في جميع أدوارهم على تأصل هذه النزعة في نفوسهم، فلم يَرْوِ عنهم أنهم أبادوا ملة من الملل لغرض ديني، أو اضطهدوا طائفة من الطوائف بقصد اعتقادي، بل سمحوا لجميع محكوميهم بممارسة أديانهم

وتعليمها لذويهم، وكانوا يحترمون آحادهم وجماعاتهم احترام العشير للعشير، ولم يمنعوا نواقيس الكنائس والبيع أن تدق بجانب منائر المساجد، وزاد الإسلام هذه العلاقات بالسماح للمسلمين بمؤاكلة مخالفيهم ومجالستهم ومؤاساتهم في حزنهم، ومشاطرتهم في فرحهم، وكان النبي ﷺ أسوة أمته في ذلك؛ فقد رُوي عنه أنه نشر رداءه وأجلس عليه بعض زائريه من النصارى، وثبت أنه كان راهنًا درعه عند بعض يهود المدينة في دَيْن عليه، ولم يخلص درعه إلا خلفاؤه بعد موته. وزاد الإسلام هذه العلاقات، فأباح مصاهرتهم، ولولا أنه خشي على النساء الفتنة لكان أباح أن تتزوج المسلمة من غير المسلم.

لا جرم نشأ المسلمون نشأتهم الأولى والدين أقوى حاكم على شعورهم، فلم يشاهد منهم ما يعابون عليه من جهة التسامح مع مخالفيهم، ثم لما انتشر فيهم العلم ونبغ منهم المؤلفون والباحثون لم تكابد هذه النزعة فيهم أدنى انحراف، بل زادوها رونقًا بما قاموا به من حماية علماء الملل الأجنبية، وما والوه عليهم من الإقبال والإجلال، حتى صار أطباء الخلفاء والقادة منهم مثل بختيشوع طبيب الرشيد والمأمون وغيره بين نصارى واسرائليين لا يعدون كثرة.

هذا الأصل الإسلامي يعتبر في ذاته آية على حقية هذا الدين، فإن هذا التسامح الديني لا يكاد يعرفه العالم إلى اليوم، وإن أوروبا الحالية على ما حصلته من علم ومدنية لا يزال منها جنوح عن مثل هذا المبدأ الكريم في أحوال كثيرة.

الأصل الإسلامي العاشر: الاعتراف بناموس الترقي

ليس فيما بين أيدينا من الأديان التي سبقت الإسلام دين يرفع بالرقي الإنساني رأسًا أو يأبه بحصول الناس على ما ينفعهم في أمر حياتهم الدنيوية، وكل ما فيها أنها علقت أمر الدين كله على حادثة تاريخية أو موت زعيمها على شكل من الأشكال، فهي تنظر للوراء في جميع أوامرها ونواهيها، بل طبيعتها تقتضي أن يكون الإنسان بقلبه وشعوره ومراميه من أهل العصور الأولى، ولا بأس عليه بعد ذلك أن كان من حياته هذه في أخس دركات القسوة والمهانة.

لا جرم سادت هذه الأديان قرونًا، فلما ولد العلم وتأيدت دولته زالت من على سطح الأرض، ولولا أوقاف محبوسة على قادتها لما وجدت لها ممثلاً في بلد متمدين اليوم.

ولكن الإسلام خالف جميع هذه الأديان في اعترافه بناموس الترقي، واعتباره الإنسان مسوقًا لغايات من المدنية بعيدة لم ينلها إلى اليوم، وهو لأجل تقرير هذا الأصل في أذهان متبعيه قطع كل علاقة بينهم وبين الأمم السابقة إلا من وجهة تاريخية، فلم يعلق تعاليمه على حادثة ماضية، ولم يبن أصوله على أمر سبق الزمن الذي نزل فيه، بل قال عن العلاقة الموجودة بيننا وبين الأمم السابقة: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة/ ١٣٤].

قطع الإسلام بهذه الآية وأمثالها كل علاقة لهذه الأمة بما قبلها من حيث العقائد، وقرر أن لكل أمة ما تكسب، لا تُسأل سابقتها عن لاحقتها، ولا لاحقتها عن سابقتها.

ولما كان ناموس الترقي في نفسه ليس له مظهر إلا تقدم الإنسان في باحات العلم، ومن هذا التقدم العلمي ينشأ التقدم الأدبي والمادي بجميع أشكاله، قرر الإسلام أن العلم لدى الأمم لذلك العهد نزر قليل لا يوصل إلى إدراك كبريات المسائل، ولا يحل معضلات الأمور، فقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء/ ٨٥] بعد أن قرر أن العلم الذي أوتوه قليل أراهم أن العلم دائم التجدد متواصل المدد فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[طه/ ١١٤].

هذا الأصل يعتبر اعترافًا صريحًا بناموس الترقي، وقد حقق المسلمون مؤداه؛ فإنهم لم يقصروا في طلب العلم في عصر من عصورهم، بل هبوا هبة رجل واحد، فأخذوا كل ما رأوه من علم نافع وصناعة محكمة، وجمعوا بين مظاهر مدنيات الفرس والرومان واليونان والهنود.

الأصل الإسلامي الحادي عشر: تقرير أن الدين شرع لخير الناس ومصلحته لا لتسخيره وإذلاله

غرس الإسلام في نفوس ذويه أنه إنما شرع لمصلحتهم، وأنزل لترقيتهم، وما العبادات التي فرضها الله على عباده، والسنن التي أمر بها نبيه إلا وسائل لفوائد رُوحانية تأتي من ورائها، وليست هي ذاتها مقاصد تطلب لنفسها، بمعنى أن الصلاة وما ركبت منه من ركوع وسجود وما يسبقها من وضوء لم تشرع لذاتها، بل لما تستتبعه من الفوائد الرُّوحانية والإمدادات الربانية، وكذلك كل العبادات المشروعة والمناسك المفروضة، قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة/ ٦] وقال في بيان حكمة تشريع الصلاة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت/ ٤٥] وقال في بيان حكمة الحج: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ [الحج/ ٢٧-٢٨].

أين هذا من قوم يعتقدون أن الدين لم ينزل إلا لتسخيرهم وإذلالهم، وأن الله يود منهم هذه العبادة لذاتها لا لنفع الإنسان من طريقها، لا جرم أن مثل هذه الأمم تعتبر الأديان عبئًا ثقيلاً. فلا ترى مندوحة للتخلص منها وإلقاء نيرها إلا أمْلَست منها[1]، مسفهة حلوم الذين تمسكوا بها، زارية بعقولهم في تعويلهم عليها.

(١) أملستْ منها: أفلتت. (م).

الأصل الإسلامي الثاني عشر: حرية البحث والنظر

أباح الإسلام لمتبعيه البحث والنظر في الأصول الدينية، ناهيك أنه طالب المتمسك بالدليل، وكره الإيمان بالتقليد، فكانت هذه الإباحة فاتحة رقي كبير في الأفكار وثمراتها، إذ لا يخفى أن الحرية في البحث تؤدي إلى تحاكِّ الآراء، وتنازع الأفهام؛ فتتجلى الحقيقة من خلال هذه المنازعات الأدبية، بل تتأدى العقول إلى باحات لا حد لها من العلوم الاجتماعية التي عليها قوام الجماعة وحياة الأمة.

لا جرم لم يلب رسول الله ﷺ دعوة ربه وينقطع مدد الوحي، حتى أخذ المسلمون يعملون بهذا الأصل في فروع العبادات ونظام المعاملات، فنشأ الخلاف في الآراء، ولكنه كان خلافًا سلميًّا محضًا، إذ كان الجميع يستندون على النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، فكان المتخالفون يعرض بعضهم آراءه على البعض الآخر، فيحمى بينهم وطيس الجدال، فإن أقام أحدهم الحجة على أخيه صرفه عن رأيه، وإلا بقي الاثنان على رأيهما، لا يؤديهما خلافهما إلى المنابذة والملاجَّة.

نشأت من هذه الإباحة في البحث ميول أخرى كلها كانت ذات فائدة في ترقية الأمة، ودفع الجمود الفكري عنها مثل الميل لتمحيص الأحاديث ومعرفة صحيحها من موضوعها، والنظر في التفسير وجمع الآراء المتباينة فيه، ونقل اختلاف المأولين لمعانيه والجري وراء استيعاب اللغة ليفهم على وجهه الحق وغير ذلك، فلم تمض مائة سنة حتى رأينا المذاهب تعد بالعشرات في الفقه وفروعه،

وإذا كان قد بقي منها أربع فما ذلك إلا لكثرة أتباعها وانتشار زعمائها في أرجاء الأرض.

وإذا كان المسلمون قد وقفوا من البحث عند هذا الحد وقنعوا بما جاء به أولئك الأربعة الكرام، فليس ذلك لأن طبيعة الدين الإسلامي تستدعيه، ولكن لتقصير المسلمين في النظر وقصورهم عن لحاق شأو الأقدمين في العلم، وهو تقصير وقصور رأوا نتائجهما الوخيمة وسيرونها ما داموا ملتاثين(١) بهما.

ومما يدل على أن وقوفهم عند هذا الحد تقصير، أن أولئك الأئمة الأربعة لم يحتموا على الناس الأخذ بمذاهبهم، ولم يدعوا أنهم بلغوا الغاية مما تمس الحاجات إليه في كل زمان ومكان، بل اعترفوا بأن ما جاءوا به هو أقصى ما قدروا عليه، وحظروا على متبعيهم الأخذ بما قالوا إلا بعد الفكر في أدلتهم عليه، فقال الإمام الأعظم أبو حنيفة: «حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي» وكان إذا أفتى يقول: «هذا رأي أبي حنيفة، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بأحسن منه فهو أولى بالصواب».

وكان الإمام مالك بن أنس إذا استنبط حكمًا يقول لأصحابه: «انظروا فيه فإنه دين، وما من أحد إلا ومأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا صاحب هذه الروضة»، يعني رسول الله ﷺ.

---

(١) ملتاثين: متلطخين. (م).

وقال الإمام الشافعي للربيع: «يا أبا اسحق لا تقلدني في كل ما أقول، وانظر في ذلك لنفسك فإنه دين».

وقال الإمام أحمد بن حنبل: «انظروا في أمر دينكم فإن التقليد لغير المعصوم مذموم وفيه عمى للبصيرة».

هذه أقوال الأئمة الأربعة أنفسهم، ومنها يتضح أنهم أفتوا بحرمة تقليدهم لمن لم يعرف دولتهم، وقد استحال أمر المسلمين اليوم من الجمود أنهم يلومون من يسأل عن أدلة المجتهدين، ويدّعون أنه يجزئ أحدهم أن يفهم من أقوالهم أو من أقوال تلاميذهم.

انظر لهذه الإباحة التي قررها الإسلام للنظر، وتأمل في أديان سبقته كان قادتها يحرقون بالنار كل من يتجارى على فهم يخالف فهمهم، ثم قارن بين أئمة هذا الدين في تحريمهم الأخذ بأقوالهم بدون نقد، وبين الحظر العظيم الذي كان يصدر من قادة تلك الأديان على الناس أن ينظروا فيما يصدرونه من الأوامر، مدعين أنها والأوامر الإلهية في مستوى واحد، يجب أن تترفع عن كل نقد وتمحيص.

هذه هي الأصول الاثنتا عشرة التي نراها من خصوصيات الإسلام قد غالب بها جميع العقائد التي كانت منتشرة على عهده، فغلبها وحل من النفوس والعقول محلها، ولا يزال يحل بما بقي منها في أعماق الصدور، ويختلط بهوى القلوب.

كل ما في الإنسان من تعاليم إنما تتفرع عن هذه الأصول، وتشتق منها، كاحترام الغرباء والحنان على الأُسراء وصيانة حقوق الضعفاء.

لماذا انحط المسلمون وفيهم هذه الأصول؟

إن هذه الأصول الاثنتي عشرة التي قررناها تصلح لإقامة أكرم مدينة في العالم، وتؤلف أشرف مجتمع فيه، بل هي أصول تدأب العلوم الكونية والاجتماعية على غرسها في النفوس، وتعد نفسها من أجلها أرقى من أرقى فلسفة في المتقدمين، فلماذا انحط المسلمون وهي أصولهم المقررة في دينهم، وبأي علة تدهوروا في تَيْهُور[١] الاضمحلال، وأصبحوا حيارى لا يجدون مخلصًا مما وقعوا فيه؟

الجواب ليس بالأمر الصعب، ذلك أنهم انحرفوا عنها، وتنكبوا طريقها، بل دابروها كل المدابرة وعادوها جد العداء، وعملوا على خلافها جهد طاقتهم، كأن حظهم من الدين استحال إلى مناقضتها والعمل بما يعاكسها، وإليك التفصيل:

قلنا إن أول الأصول الإسلامية التخليص بين الإنسان وخالقه، فهل بقي المسلمون على هذا الأصل؟ لا.

إنهم اتخذوا قبور صالحيهم قبلة يتوجهون إليها، وبنوا عليها القباب، واتخذوا فوقها المقاصير، ورفعوها عن الحد الشرعي، ووضعوا عليها العمائم، وأشعلوا فيها السُّرُج، وقد ورد في السنة النهي بالنص الصريح عن إدخال القبور في المساجد،

(١) تيهور: ما انهار من الرّمل. (م).

وعن إيقاد السُّرُج عليها، حتى لا تفتتن العامة فيعبدوها، ويتخذوا من فيها وسطاء بين الله وبين عباده. فترى دَهْماء المسلمين[١] اليوم لا يدعون الله وحده، ولا يرفع أحدهم يده إلا مستشفعًا بواحد من أولئك الصالحين، ومتخذًا إياه وسيلة إلى الزلفى من خالقه.

نعم إن المسلمين لم يصلوا من هذه الوجهة إلى مثل ما وصل إليه سابقوهم من أهل الملل الأولى، ولكنهم حادوا عن أصلهم الأول بما لا يتفق مع رُوحه الخالصة النقية، وزادوا انحرافهم ضوضاء بما يتخذونه من الاحتفالات حول تلك القبور فيما يسمونه بالموالد، فتراهم شيعًا مُتَحلِّقين إلى حلقات، يذكرون الله بأصوات منكرة، وبألفاظ لا تفهم، صاخبين، مصفقين، متمايلين، مضطربين، فإذا فرغوا من ذلك ساروا إلى الطريق حاملين الرايات والطبول، وطافوا شوارع المدينة على حال لو رآها النبي ﷺ أو أحد خلفائه لحدَّهم عليها حدَّ المشاغبين، المتلاعبين بالدين.

يحصل كل هذا والعَرَفة[٢] بحقيقة الدين يملئونهم عليها[٣] ويمدونهم فيها، بعضهم جرًّا لمنفعة تلحقه منهم، والبعض الآخر تقصيرًا منه في أداء وظائفه، والحكومة لا تستطيع أن تمد إلى أولئك المتلاعبين يدًا مادام حفظة الدين أنفسهم يقرونها ويعملون على تأييدها.

---

(١) دهماء المسلمين: عامّتهم. (م).

(٢) العرفة: العارفون. (م).

(٣) يملئونهم عليها: يساعدونهم ويناصرونهم. (م).

بهذا الانحراف انحرفت القلوب عن حكمة ذلك الأصل الكريم، ولم تعد تستفيد من آثارها عليها، وظهر المسلمون من هذه الوجهة بمظهر الأمم المُتَبربرة الذين جاء الإسلام بالنعي عليها والأخذ على أيديهم.

أما الأصل الإسلامي الثاني وهو المساواة العامة، فقد صدف عنه المسلمون أيضًا؛ فقسموا الناس قسمين: قسم سموهم رجال الدين، وقسم سموه أهل الدنيا، فأبقوا الأولين حيث هم قطعوهم عن الأعمال الدنيوية، وقصروهم على خدمة المساجد وتعليم الدين. ليس في طبيعة الإسلام ما يسمح بوجودهم، فلم يبلغوا شأو نظرائهم في الملل الأخرى، لا من ناحية التأثير على الأرواح، ولا من جهة قيادة العامة، وتوالت على المسلمين حكومات أقرت هذا التقسيم، وأمسكت يدها عن ترقية شؤونهم، فبقوا حيث كانوا منذ مئات من السنين يعتبرون من جهة أئمة الدين وحملة شرائعه، وليس لهم من جهة أخرى ما لغيرهم من السلطة، فصار هذا التقسيم أضر على المسلمين مما كان منه في الأمم السالفة؛ لأن تلك الأمم كانت فيها وظائف رؤساء الدين منصوصًا عليها في ذات الدين، فلما نشأت السلطة الدنيوية، وقويت شوكة الشكوك، وتنازعت السلطتان قيادة الأمم، حصلت تلك الأمم من ذلك التنازع تجارب نفعتها في تحديد السلطة الدنيوية وردها إلى ما يوافق مصلحتها فيما بعد، ولكن نشأ هذا التقسيم في المسلمين ضد طبيعة الدين بمحض إرادة الحاكمين، فلم يكن لطائفة رجال الدين دائرة اختصاص يدافعون عن حدودها، وكانوا طول عهدهم ألعوبة في يد القادة الدنيويين، فلم تشعر الأمة من وجودهم إلا برؤية ذواتهم، ولم تتدافع

الطائفتان لتتعلم بتدافعها موضع مصلحتها منهما، فلم تستفد مثل ذلك الدرس الاجتماعي الذي أخذته الأمم الأخرى، ولم تتهيأ في وقت من أوقاتها لإحداث مثل ما أحدثته من الانقلابات العمرانية التي كان لها أكبر أثر في انتظام شؤونها القومية.

أما من جهة الأصل الإسلامي الثالث وهو تقرير مبدأ الشورى في الحكومة، فقد انحرفت عنه الأمة من زمان بعيد، أي من عهد معاوية بن أبي سفيان، حين ناهض الخليفة الرابع ولم يعبأ بإجماع أهل الحل والعقد في إسناد الخلافة إليه، فأدرع بالقوة القاهرة لتحقيق أمانيه، وأوجب على الناس طاعته بقوة السلاح، وعهد بالأمر لابنه يزيد، وأخذ له البيعة بالإرهاب والرشا، فأعطى السيف من استعصى، وبذل المال لمن مد يده، حتى استتب له الأمر، فنجمت نواجم الفتن الداخلية، فخرج عليه الحسين بن علي بن أبي طالب بالكوفة، وعبد الله بن الزبير بمكة، ونشبت الحرب الأهلية، ثم استقر الأمر لبني أمية حينًا من الزمان، ثم ظهر دعاة بني العباس فأوغلوا في خصومهم قتلاً وسفكًا، حتى أسندوا الأمر لأنفسهم، فذهلت الأمة عن وجودها بهذه الحروب المتوالية، واستكانة للغالب الفاتح، وأخطأ العباسيون في إحاطة أنفسهم بشُذَّاذ الآفاق من الأتراك، فصارت الخلافة ألعوبة بأيديهم، وقامت في كل صقع من أصقاع المملكة دولة يرأسها متغلب مغتصب، وصارت البلاد بين ثائريهم في معارك مستمرة، حتى سطا عليهم المغوليون؛ فأسقطوا الخلافة العباسية التي لم يكن لها حظ من هذه الوظيفة غير الاسم، فضاع أصل الشورى، واستحال الأمر إلى الاعتماد على القوة، وعجز المركز العام

عن حفظ وجوده، فلم تقف المطامع عند حد، واستمر والمسلمون في حركتهم القهقرية، حتى ورث الغرب أكثر أصولهم، فما شعروا إلا وهم محاطون بالأمم الاستعمارية من كل مكان.

أما من جهة الأصل الإسلامي الرابع، وهو تعليق السعادة والشقاوة في الحياة الأخرى على الأعمال والصفات الذاتية، لا على الشفاعات والقرابات، فقد كابد عين الانحراف الذي كابده ما تقدمه من الأصول؛ ذلك أن دهماء المسلمين بما تأسروا به[(١)] من مطالعة الكتب التي وضعها جهلة المؤلفين من أهل البطالة والتعطيل، وقر في نفوسهم أن المكانات الأخروية تنال بمجرد قراءة بعض الأدعية، والهمهمة ببعض الألفاظ، وقد نقل أولئك المؤلفون من الأحاديث الموضوعة والآثار المكذوبة ما يكفي لتضليل العقول عن الحقائق الرُّوحانية المقررة.

انتشرت هذه الكتب بين المسلمين؛ فصرفتهم عن حقائق الدين، وموهت عليهم الأباطيل، وصورت لهم العالم الرُّوحاني تصويرًا خياليًّا، وجعلت زمامه بأيدي أفراد من المقربين، حاكمة بأن من انتمى إليهم فاز بالحور والجنان، ولو كان عليه من الذنب ما أتعب الملكين، وإن من فاته اللِّيَاذ بهم[(٢)]، فاته الخير كله ووكل إلى نفسه؛ فمالت نفوس العامة إلى هذا التمويه، ونسوا قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء/ ١٢٣] وضاع في نظرهم معنى الثواب والعقاب في الآخرة واضطرب في وهمهم ميزان العدل الإلهي؛

(١) تأسروا به: سُلبوا وتقيدوا. (م).
(٢) اللِّياذ بهم: الالتجاء والاستغاثة بهم. (م).

فبطلت حكمة الترغيب والترهيب، وفقدت العبادات والمجاهدات ثمرتها المقصودة منها، واستحال الأمر إلى أمان كاذبة، وأوهام باطلة، ولا تسل عما ينبني على هذا الضلال من ضياع حكمة الدين وخروج أهله عن سننه القويم.

أما من جهة الأصل الإسلامي الخامس، وهو الاعتراف بحقوق العقل والعلم، فقد لقي من إعراض المسلمين ما لقي سابقوه من الأصول، كيف لا؟! وقد راجت فيهم الحكايات الميتلوجية(١) مما جمعه جهلة المؤلفين من أساطير الأولين وخرافاتهم، وما رووه عن الأفراد منهم، فانحطت قيمة العقل واتسعت أمامهم دائرة الممكنات، حتى شملت المستحيلات، واستعدت الأذهان لقبول كل ما يقال ولو كان فيه هدم لأصول الشريعة، ثم زادوا في هذه الطريقة غلو فحرموا الاعتراض ما يروى من تلك المناقضات للعقل، وأعدوا من يتجارى على تكذيبها بالحرمان من الرحمة الإلهية والاستهداف لسوء الخاتمة، فلم يبق للآيات الداعية إلى تعقل الأمور وتدبرها بعين النقد أثر في نفوس المسلمين، وتبع ذلك ما يستلزمه من انحطاط مداركهم ووقوفهم موقف العاجز أمام الحقائق الساطعة.

أما الأصل الإسلامي السادس وهو المؤاخاة بين الدين والمدنية، فقد انحرف به المسلمون انحرافًا يناسب انحرافاتهم في كل ما عداه، فإن الحروب التي وقعت بين أمراء المسلمين في القرن الثاني وما يليه، صرفت الأذهان عن نعم الحياة الأرضية، ولفتتها إلى ما أعد لها في الحياة الأخروية، فراجت الكتب

---

(١) الميتلوجية: الميثولوجية، وهي: الأساطير. (م).

الزَّارية[١] على الدنيا، الناعية[٢] على أهلها ولوعهم بها، وأكثر المؤلفون من إيراد الحكايات عن الزهاد والمتصوفة، فأشربت نفوس المسلمين الاستكانة والذلة، وتوجهت إلى إيثار الزهد والإقلال، وإن كان مثل هذا الزهد القسري لا يعد فضيلة، فاكتسبت نفوسهم صفات المستخذين من الأمم، وتطرفوا فعدوا مظاهر المدنية من فاتنات النفوس وقاطعاتها عن كمالها، فلما ظهرت لهم المدنية الأوروبية بما حملت من سحر وإبداع، صرحوا بأن لهم الأخرى ولغيرهم الدنيا، وأصبحت تلك عقيدة بعضهم لليوم، وفي هذا التصريح ما فيه من إعطاء الدَّنِيَّة، والإقرار بالعجز، والركون للسكينة.

أما الأصل الإسلامي السابع وهو تنبيه الإنسان بأن للوجود الإنساني سننًا لا تتبدل، فقد انقلب في نظر المسلمين إلى ضده؛ لأنهم لما اعتمدوا في حياتهم على الأوهام والأماني، وعولوا في تصرفاتهم على الخرافات والأضاليل الموضوعة، ذهلوا عن النظر للواقع المحسوس وشغلهم الطيران في جواء الخيالات، عن التدبر في الحقائق الراهنة، فلم يتحروا الأسباب، ولم يتلمسوا وجوه النجاة، وكأنه وقر في نفوسهم أن تبدل حالهم إلى أحسن حال يجيء بمحض الدعاء، أو بحادثة غير منتظرة، فتراهم كلما ألم بهم ألم من حال نظروا إلى السماء ولم يزيدوا عن الحوقلة[٣]، والاسترجاع[٤]، فراجت عليهم الكتب الرمزية الدالة على

---

(١) الزارية: المحقرة العائبة. (م).

(٢) الناعية: المشنعة. (م).

(٣) الحوقلة: قول: لا حول ولا قوة إلا بالله. (م).

(٤) الاسترجاع: قول: إنَّا لله، وإنَّا إليه راجعون. (م).

مستقبل الحوادث، كالجَفْر[1] واعتمد ملوكهم على حركات الأفلاك، فاسترشدوا بالمنجمين، واستهدوا بالمضللين من المتنبئين، فضل سعيهم في الحياة الدنيا. فلما احتك بهم الغربيون وجدوا منهم أممًا على غير هدى لا بصيرة لها بدين ولا دنيا، فسهل عليهم قيادهم، ولولا أن الاستعمار العصري ترقت أساليبه، وصار للعدل فيه حظ كبير، لبادت أكثر الأمم الإسلامية كما بادت أمم أمريكا الشمالية والجنوبية تحت سيطرة المستعمرين.

أما الأصل الإسلامي السابع، وهو لفت الإنسان إلى نظام الطبيعة، وتوجيه نظره لأسرارها الخفية؛ ليستفيد منها لتغذية رُوحه وعقله ونظامه الاجتماعي، فقد حاد عنه المسلمون؛ إذ قَصَروا العلم عن العلوم الكلامية، وصار كل اهتمامهم في المجهودات العقلية موجهًا إلى تفهم كلام الأقدمين، وياليتهم توسعوا في هذا الباب فجمعوا كتب آبائهم في الطبيعيات والرياضيات والطب والفلك، وجعلوا لها حظًّا من عنايتهم، بل اقتصروا على علوم الكلام، وتفرغوا لها فصاروا غرباء، حتى عن تحقيقات أسلافهم في الكون، فلم ينبغ فيهم واحد كابن سينا أو ابن رشد أو الفارابي، وانحطت مدركاتهم على الكون، حتى لم يعد فيهم من يبحث عن قوى أجسادهم وطبيعة أرضهم وما برح الانحطاط آخذًا مجراه، حتى جاءتهم العلوم الأجنبية بلغاتها الأعجمية، فظنوها كفرًا، فتألبوا على معارضتها، وأصبح علم الطبيعة في نظرهم من الرجس الذي لا يصح أن يقربه مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر. فتأمل رحمك الله في هذا الانحراف عن سنن القرآن وأصول

(١) الجفر: طريقة يزعمون بها إمكانية التنبؤ بحوادث العالم، من خلال النظر في دلالات الحروف. (م).

الإسلام، وقل لي إلى أي حضيض لا تسقط المجتمعات الإسلامية من الانحلال وفساد الكيان.

فبينما نرى الأمم قد وصلت من العلم الطبيعي إلى حيث يستخدمون قوى الماء والهواء، فأصبحوا يقطعون القِفار المترامية الأكناف في الساعات المحدودة، ويحلقون في الجواء إلى أبعد مما تصل إليه النسور والعقبان، تجد المسلمين لا يزالون من علومهم الكلامية في حال مقيم مقعد. وقد أدركهم الانحطاط في ذات تلك العلوم، فقنعوا من كتبها بما لا يوصل إلا إلى إنضاب معين القرائح، ووقف حركة الأفكار.

أما الأصل الثامن وهو الاعتراف بحقوق ميول الإنسان وعواطفه، فقد خبطوا فيها على غير بصيرة، تبعًا لانحرافهم في الأصول السابقة، وهل يميز بين الميول الحقة والوهمية، وبين العواطف الحسنة والرديئة إلا العالمون بأسرار العلوم النفسية، وأنَّى لهم ذلك وتلك العلوم فرع من العلوم الطبيعية، وهي قابلة للترقي إلى غير حد، وإني ليؤلمني أن أذكر أن ليس في معهد من معاهد العلوم الإسلامية من يدرس هذا الفرع العلمي، أو من يدور بخلده أنه من المعارف الضرورية.

أما الأصل الإسلامي التاسع وهو العمل على توحيد العالم في دائرة المعاملات، فقد أصابه ما أصاب سائر الأصول؛ إما من عدم الباحثين في هذا الأمر، أو لعدم إمكان تنفيذه بما دخل فيه المسلمون من الجمود، فإنهم لذهولهم عن جميع أصولهم المحيية صار أمرهم ليس في أيديهم وأصبحت شؤونهم الخاصة

والعامة تبعًا لشؤون سواهم، فسواء بحثوا في مثل هذا الشأن أو لم يبحثوا فيه، فليس لهم حول على عمل تمليه عليهم الفكر الناضجة والآراء الأصيلة.

فالمسلمون اليوم إذا كانوا لا يبحثون هذا التوحيد في حدوده الحافظة لوجودهم، فهم مقودون قسرًا للفناء في أجساد الأمم المحيطة بهم.

أما الأصل الإسلامي العاشر وهو الاعتراف بناموس الترقي، فقد كابد انحرافًا عظيمًا؛ فالمسلمون بحالهم وقالهم اليوم يميلون للرُّجْعَى إلى دور من أدوارهم الماضية، فقادة أرواحهم يحلمون بإعادة مثل عصر بني العباس أو سواه مما تكون المدنية الإسلامية فيه بلغت شأوها إلا بعدوهم مع محاولتهم الرجعى يعملون على عكس الأصول التي رقت تلك الدول، فإن أسلافهم في العصر العباسي نهضوا نهضتهم من طريقها الطبيعي، فترجموا الكتب الطبيعية التي كانت لليونان والفرس والهنود إلى لسانهم، وأخذوا في دراستها وتفهمها حتى برعوا فيها، ولم يكفهم ذلك؛ بل رحلوا إلى بلاد تلك الأمم وتعلموا لغاتها، وبحثوا في مجتمعاتها، ونقبوا في آثارها، وتعرفوا نباتاتها وحيواناتها، ونقلوا لبلادهم كل ما توسموا فيه الفائدة والمصلحة، ولكنا اليوم نتمنى الرجعى إلى مثل عهد من عهودنا السابقة، ولم نعمل في هذا السبيل عملاً يؤدي إليه كأننا نزعم أن ذلك يتم بمجرد تمنيه.

أما الأصل الإسلامي الحادي عشر، وهو تقرير أن الدين إنما شرع لفائدة الإنسان ومصلحته، لا لتسخيره وإذلاله، فلم يعد أحد يبحث فيه، فترى ألوفًا من

المعلمين يعلمون الدين في المساجد والمعاهد العلمية، مكتفين منه بكيفية الوضوء والصلاة والحج والزكاة، ولم يتعرض واحد منهم لبيان الحكمة المقصودة من هذه العبادات، حتى وقر في نفوس العامة والخاصة أنها تطلب لذاتها، لا أنها وسائل لغيرها. لذلك يكتفي أحدهم من الصلاة بالركوع والسجود على أسرع ما يكون كأنه مسخر لأداء حركات معدودة لا مزية فيها. وإن صام أمسك عن الأكل طول نهاره صاخبًا لاغيًا مشاغبًا، كأنه يؤدي سخرة، حتى إذا قال المؤذن حي على الصلاة أقبل على مائدته بِكُلِّيَتِهِ فلا يزال يملأ وعاءه حتى يعجز عن الحركة، ثم يأخذ في التنقل من ناد إلى ناد حتى يجيء وقت السحور، فيعاود الأكل جهد استطاعته، وهكذا فلا ينسلخ شهر الصوم إلا وفي معدته أثر سيئ من ذلك النهم الذي سماه صومًا. ولكن لو كان قادة العقائد وقفوا الناس على حكمة العبادات، وعرفوهم أنها رياضات لتحصيل الكمال الرُّوحي، وتوسعوا في هذا البحث الخطير بما يليق به من البيان، لكان حظ المسلمين منها غير حظهم اليوم.

أما الأصل الثاني عشر وهو إطلاق حرية البحث لأولي البصر بالدين، فقد استحال إلى عكسه، فوقر في النفوس اليوم أن ليس في الإمكان أبدع مما كان، وأن الأمة يكفيها أن تكون عالة على أسلافها في جميع الكليات والجزئيات، ليس في الأمور العبادية فقط، بل وفي جميع المسائل الشرعية مما يختص بالمعاملات، ولم يكفهم هذا التضييق حتى قروا أنه لا يجوز لإنسان أن يخلط بين المذاهب فيقلد إمامين في وقت واحد، فتقرر العمل بمذهب أبي حنيفة وحده وترك ما عداه من المذاهب، وفي هذا من الحجر على أمة برمتها ما فيه. فبينما نرى للأمم

الأوروبية جماعات تشريعية تواصل العمل في سن النظامات وتقنين القوانين وتنقيح الأصول وتجديد ما رثَّ منها وبطل موجبه، ترى المسلمين جامدين على شكل واحد منها لا يبغون عنه حولاً. فلو كان في طبيعة دينهم ما يحرم عليهم النظر والتجديد، لكان لهم بعض العذر، فما بالهم ودينهم يحضهم على النظر ويزعهم عن الوقوع في الجمود، وأئمتهم قد تبرأوا ممن يأخذ بأقوالهم بدون نقد، وقرروا أن باب الاجتهاد مفتوح إلى يوم القيامة.

هل خفي عن المسلمين اليوم أن الحوادث تتجدد، وأن النظامات تبلى كما تبلى الأثواب، وأن القوانين تتطور في حالات شتى لتتفق مع مصلحة الأمة؟

﴿نهاية المتن﴾

معد التقديم في سطور

معتز محمود عبد الحميد شكري

- صحفي وباحث مصري، حصل على ليسانس الآداب بقسم اللغة الإنجليزية وآدابها بجامعة القاهرة عام ١٩٧٥، ودبلوم الترجمة الإنجليزية العالي بجامعة القاهرة عام ١٩٨٤.
- مدير تحرير وكالة أنباء الشرق الأوسط.
- شارك في العديد من المؤتمرات العلمية والاقتصادية.
- فاز بجائزة نقابة الصحفيين لأحسن مقال اقتصادي عام ٢٠٠٧، وجائزة التفوق الصحفي لثاني أحسن تقرير خارجي عام ٢٠٠٨، وجائزة رابطة الشئون الخارجية بنقابة الصحفيين لأحسن عمل صحفي عام ٢٠٠٩.

من أعماله المنشورة

- شارك في ترجمة وتحرير دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية – دار الشعب – المجلدان ١٦ و١٧).
- دليل القارئ الواعي إلى بروتوكولات حكماء صهيون.
- له عشرات المقالات والدراسات بالصحف والمجلات والدوريات المصرية والعربية وبعض مواقع الإنترنت.

اللجنة الاستشارية للمشروع

٢٠١٣/٢٠١٢

إسماعيل سراج الدين (مكتبة الإسكندرية)، مصر - **رئيس اللجنة.**

إبراهيم البيومي غانم (جامعة زايد، دبي)، الإمارات العربية المتحدة.
إبراهيم زين (الجامعة الإسلامية العالمية، كوالالمبور)، ماليزيا.
أبو يعرب المرزوقي (عضو المجلس التأسيسي، وزير مستشار لدى رئيس الحكومة التونسية في مجالي التربية والثقافة)، تونس.
جاسرعودة (مركز دراسات التشريع والأخلاق، كلية الدراسات الإسلامية)، قطر.
حسن مكي (جامعة إفريقيا العالمية)، السودان.
رجب شان ترك (جامعة فاتح، إسطنبول)، تركيا.
رضوان السيد (الجامعة اللبنانية، بيروت)، لبنان.
زاهر عبد الرحمن عثمان (مؤسسة إعمار بالرياض)، السعودية.
زكي الميلاد (رئيس تحرير مجلة الكلمة)، السعودية.
زينب الخضيري (جامعة القاهرة)، مصر.
سعيد بنسعيد العلوي (جامعة الرباط)، المغرب.
صلاح الدين الجوهري (مكتبة الإسكندرية)، مصر- **أمين اللجنة.**
ظفر إسحق أنصاري (الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد)، باكستان.
عبد الرحمن السالمي (وزارة الأوقاف والشؤون الدينية)، عُمان.
عمار الطالبي (جامعة الجزائر)، الجزائر.
محمد زاهد جول (كاتب وباحث)، تركيا.
محمد عمارة (هيئة كبار العلماء، الأزهر الشريف، القاهرة)، مصر.
محمد كمال الدين إمام (جامعة الإسكندرية)، مصر.
محمد موفق الأرناؤوط (جامعة آل البيت)، الأردن.
مصباح الله عبد الباقي (جامعة كابول)، أفغانستان.
منى أحمد أبو زيد (جامعة حلوان، القاهرة)، مصر.
نور الدين الخادمي (وزير الشؤون الدينية)، تونس.
نوزاد صواش (مؤسسة البحوث الأكاديمية والإنترنت، إسطنبول)، تركيا.

سلسلة «في الفكر النهضوي الإسلامي»

صدر في هذه السلسلة

(١) العـودة إلـى الـذات، تأليف علي شريعتي.
(٢) الحياة الروحية في الإسلام، تأليف محمد مصطفى حلمي.
(٣) امرأتنا في الشريعة والمجتمـع، تأليف الطاهر الحداد.
(٤) الإسلام دين الفطرة والحرية، تأليف عبد العزيز جاويش.
(٥) المـرأة والعمـل، تأليف نبوية موسى.
(٦) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، تأليف مصطفى عبد الرازق.
(٧) دفـاع عـن الشـريعـة، تأليف علال الفاسي.
(٨) مقاصد الشريعة الإسلامية، تأليف الطاهر ابن عاشور.
(٩) تجديد الفكر الديني في الإسلام، تأليف محمد إقبال، ترجمة محمد يوسف عدس.
(١٠) طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تأليف عبد الرحمن الكواكبي.
(١١) المدرسـة الإسـلامية، تأليف محمد باقر الصدر.
(١٢) الإسلام وأصول الحكم، تأليف علي عبد الرازق.
(١٣) أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تأليف خير الدين التونسيّ.
(١٤) الحرية الدينية في الإسلام، تأليف عبد المتعال الصعيديّ.
(١٥) الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقية الشريعة المحمدية، تأليف حسين الجسر.
(١٦) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، تأليف محمد الغزاليّ.
(١٧) القرآن والفلسفة، تأليف محمد يوسف مُوسى.
(١٨) كشف المخبَّا عن فنون أوربا، تأليف أحمد فارس الشدياق.
(١٩) المرشد الأمين للبنات والبنين، تأليف رفاعة الطهطاوي.
(٢٠) شروط النهضة، تأليف مالك بن نبيّ.
(٢١) مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، تأليف رفاعة الطهطاويّ.
(٢٢) نهضة الأمة وحياتها، تأليف طنطاويّ جوهريّ.
(٢٣) البيان في التمدن وأسباب العمران، تأليف رفيق العظم.
(٢٤) - (٢٥) تحـرير المـرأة، تأليف قاسم أمين، وتربية المرأة والحجاب، تأليف طلعت حرب.
(٢٦) تنبيه الأمة وتنزيه الملة، تأليف محمد حسين النائيني، تعريب عبد المحسن آل نجف، تحقيق عبد الكريم آل نجف.
(٢٧) خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني، تأليف محمد باشا المخزومي.
(٢٨) - (٢٩) السفور والحجاب، تأليف نظيرة زين الدين، ونظرات في كتاب السفور والحجاب، تأليف مصطفى الغلاييني.
(٣٠) في الاجتماع السياسي الإسلامي، تأليف محمد مهدي شمس الدين.
(٣١) لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟، تأليف الأمير شكيب أرسلان.
(٣٢) المدنية الإسلامية، تأليف شمس الدين سامي فراشري، ترجمة وتقديم محمد م الأرناؤوط.
(٣٣) المدنيــة والإسلام، تأليف محمد فريد وجدي.
(٣٤) المسـئلة الشرقية، تأليف مصطفى كامل.
(٣٥) وجهة العالم الإسلامي، تأليف مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين.
(٣٦) طلعة الشمس شرح شمس الأصول، تأليف نور الدين عبد الله بن حميد السالمي.

’AL-MADANIYYAH WAL-’ISLĀM

Civilization and Islam

Muhammad Farīd Wajdī

DAR AL-KITAB
AL-MASRI

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

DAR AL-KITAB
AL-LUBNANI

في الفكر النهضوي الإسلامي

’AL-MADANIYYAH ’AL-’ISL ĀMIYYAH

(32)

هذا الكتاب

طُبع لأول مرة عام (١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م) باللغة التركية في إسطنبول، وتلك هي أول ترجمة عربية له. جاء صدوره في وقت عصيب؛ ليشحن القُراء- آنذاك- بالأمل في نهضة جديدة، بإطلاعهم على ما وصل إليه المسلمون من مدنية على مستوى العالم بفضل اهتمامهم بالعلم والمعرفة، في الوقت الذي كان ينبهر فيه البعض بالمدنية الأوروبية الحديثة التي أخذت تسيطر على العالم بآلتها العسكرية، وتأكيده على أن المسلمين يمكن بذلك الطريق نفسه أن يستعيدوا مشاركتهم في المدنية الحديثة.

يركز شمس الدين سامي فراشري على «المدنية الإسلامية» وإسهاماتها على المستوى العالمي في كل المجالات العلمية، وأن «المدنية الأوروبية الحديثة» قامت بالاستناد إلى «المدنية الإسلامية»، ولم تولد مباشرة من «المدنية اليونانية القديمة».

كما يُلحّ على: إعلاء قيمة الإنسان والعقل، وأن الإسلام ليس دين عنف، ولم ينتشر بالسيف، ولا يتعارض مع العلم والحقيقة والحياة، بل يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمدينة. وأن التمدّن لا يبدأ من فراغ ولا يختص بشعب؛ بل هو حصيلة التراكم البشري.

يقول الإمام الأكبر أحمد الطيب عن المشروع:

بسم الله الرحمن الرحيم

إن هذا المشروع الذي تقوم به مكتبة الإسكندرية - وهي تستهدف إعادة نشر الإنتاج العلمي والثقافي لأعلام نهضتنا في العصر الحديث - ليُعدُّ فيما أرى - من أهم المشاريع العلمية نحو تأصيل المفاهيم الثقافية في العالم الإسلامي وإعادة تأسيس عقل إسلامي معاصر يستوعب أصوله، ويعيش عصره. وإني أدعو إلى ترجمة هذه الأعمال إلى اللغات الحية، وتعميم نشرها، بكل الوسائل الورقية والإلكترونية.

شيخ الأزهر

أ.د/ أحمد محمد الطيب

ISBN: 978-977-452-169-4

DAR AL-KITAB AL-MASRI
CAIRO

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

DAR AL-KITAB AL-LUBNANI
BEIRUT